ليونيد أندرييف

كتاب الجنون

ترجمة: نوفل نيوف

@ketab_n
Follow Me
15.5.2016

ليونيد أندرييف

كتاب الجنون

(أربع قصص طويلة)

ترجمة : نوفل نيوف

Twitter: @ketab_n

كتاب الجنون

(أربع قصص طويلة)

ليـونيـد أنـدرييـف

Twitter: @ketab_n

قصص

Author: Леонид Андреев
Title: «Книга безумия» (4 рассказа)
Translator: Нофаль Найюф
cover designed by: **Majed Al-Majedy**
P.C. : **Al-Mada**
First Edition: **2015**

Copyright © Al-Mada

المؤلف: ليونيد أندرييف
عنوان الكتاب: كتاب الجنون
ترجمة: نوفل نيوف
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى: 2015

جميع الحقوق محفوظة

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

Twitter: @ketab_n

تقديم

أصدر الكاتب الروسي ليونيد أندرييف (١٨٧١ ـ ١٩١٩) مجموعته الأولى «قصص» عام ١٩٠١ في دار «زناني» (المعرفة) التي كان يرأسها مكسيم غوركي (١٨٦٨ ـ ١٩٣٦). وقد أرسى هذا الحدث الأدبي شهرة أندرييف، وارتقى به إلى مصاف خيرة أقرانه من الكتّاب الروس يومذاك، أمثال إيفان بونِن (١٨٧٠ ـ ١٩٥٣) وألكساندر كوبرين (١٨٧٠ ـ ١٩٣٨). كما حظيت هذه المجموعة باستقبال دافئ ومرحِّب من قبل مشاهير عصره: ليف تولستوي (١٨٢٨ ـ ١٩١٠)، وأنطون تشيخوف (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤)، وزعيم الحركة الشعبية (نارودْنكي) ن.ك. ميخايلوفسكي (١٨٤٢ ـ ١٩٠٤)... وحتى ١٩٠٧ كان قد أعيد نشر هذه المجموعة القصصية اثنتَي عشرة مرّة، وبلغ عدد النسخ الإجمالي خمسين ألفاً، وهو رقم قياسي في ذلك الزمان. على أن تاريخ نشر أول قصة كتبها الطالب ليونيد أندرييف موقّعة بحرفين «ل. ب" يعود إلى عام ١٨٩٢ ، أمّا تاريخه الفعلي كأديب فيبدأ من قصة "بَرْغَموت وغَراسْكا" التي نشرها عام ١٨٩٨.

وُلِد ليونيد أندرييف في مدينة أريول لأبٍ يعمل موظفاً بسيطاً في إدارة مساحة الأراضي. وفي سنة ١٨٩١ سافر إلى بطرسبورغ لدراسة الحقوق في جامعتها، فعاش حياة فقر، شبهَ جائع، يعطي دروساً خاصّة، ويخوض نقاشات مع زملائه حتى الصباح. فقد كان عصره شديد الاضطراب، مليئاً بالأحداث الجسام، تخترقه النظريات

Twitter: @ketab_n

السياسية والاجتماعيــة، والأفكار الفلسفية، والتيارات الأدبية من كل نــوع... وللإيجاز نكتفــي بالإشارة إلى: هيمنة الأجــواء البوليسية في ظل القضــاء على حركة "حريــة الشعــب"(١٨٨١)، ومحاولة اغتيال القيصر الروســي ألكساندر الثالــث (١٨٨٧)، وتفشِّي روح التشاؤم والإحباط ، ودعوة ليف تولستوي إلى عدم التصدي للشر بالعنف، من جهة، والانتشار الواسع للحركة الشعبية، والنظرية الماركسية في روسيا خلال التسعينيات، من جهة ثانية... (بعد ذلك تأتي: هزيمة روسيا أمام اليابــان ١٩٠٤، الثــورة الروسية الأولى سنــة ١٩٠٥، الحرب العالمية الأولى ١٩١٤، الثورة الشيوعية ١٩١٧، ثم الحرب الأهلية...).

هــذه الأجــواء والظــروف المشحونة التــي كان يختمر فيهــا المجتمع الروســي، والطليعة السياسيــة والمثقفون بالدرجــة الأولى، مثّلت تربة خصبةً لشحذ حساسية أندرييف الذي كان مولعاً على وجه الخصوص بقــراءة نيكــولاي غوغَــل (١٨٠٩ ـ ١٨٥٢/ مات مجنونــاً)، وفيودَر دَستويِفسكــي (١٨٢١ ـ ١٨٨١/ كان مصابــاً بالصــرع)، وغْليــب أوسبينسكــي (١٨٤٣ ـ ١٩٠٢/ مــات مجنونــاً)، وفسيفولود غارشِن (١٨٥٥ ـ ١٨٨٨/ انتحــر في الثالثــة والثلاثين من عمره)، يضاف إلى ذلك انتشــار فلسفة التشــاؤم متمثلة بترجمــات الفيلسوفين الألمانيين آرثــور شوبنهــاور (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠) وإدوارد هارتمــان (١٨٤٢ ـ ١٩٠٦)، وظهور أوائل المتأثرين بفلسفة نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠)... (تعود إحدى أولى محاولات أندرييف الانتحار إلى عام ١٨٨٢).

كانت الأعمــال الأدبية (القصص والمسرحيات) التــي كتبها أندرييف وثيقــةَ الصلة بمجمل القضايا والإشــكالات والتناقضات التي يغلي بها زمانه. وكان الكاتب يعيش ذلك بعمقٍ وبكيانه كلّه، مؤكِّداً في الوقت

Twitter: @ketab_n

نفســه نأيَه بإبداعه الواقعي عن أن يكــون نسخة عن الواقع، فيقول إنه يكتُــب من رأسه فقط . لقــد كان الأدب، بجانبيــه الفنّي والمضموني، في نظــره مسؤوليــة وموقفاً في الحيــاة، وهذا ما عبّر عنــه سنة ١٩١٣ بقولــه: "لم يكن الأدب أبداً تسليــةً بعد الغداء، وفي اللحظات التعيسة التــي أصبــح فيهــا كذلك كان يمــوت". وعلــى مدار سنــوات طويلة كان أندرييــف وإبداعه مَثار جدالٍ قويّ وطويــل بين مختلف التيارات السياسيــة والأدبية. وربّمــا تكون القطيعة، أو نهايــة ما يوصف بعلاقة "الأصدقــاء الأعداء"، بــين المتمرِّد الفرديّ المتناقض ليونيد أندرييف والمتمرِّد الاشتراكي مكسيم غوركي (بعد نشر قصة أندرييف "الظلام" عام ١٩٠٧) أحد التعبيرات المثيرة عن ذلك الجدال والتناقض في النظر إلى أندرييف وإبداعه.

تُرجمــت أعمال ليونيد أندرييف في حياته، ابتداء من عام ١٩٠٢، إلى أكــثر من عشرين لغة في العــالم. ومن أوائل مترجميــه الكاتب الصيني الكبير لو سين (١٨٨١ - ١٩٣٦)، كما أبدى الكاتب الفرنسي رومان رولان (١٨٦٦ - ١٩٤٤) اهتمامــاً خاصــاً بإبــداع أندرييــف. فيما اقتصــرت معرفة القــارئ العربي على بعض قصــص متفرقة لأندرييف مترجمــةٍ عن لغــات غــير الروسيــة أوّلاً، ليطّلع بعد ذلــك على بعض من قصصــه ومسرحياته مترجمة عــن اللغة الروسية ابتــداء من أواسط سبعينيات القرن الماضي.

القصص الأربع المختارة التي نقدّمها في هذا الكتاب، من اللغة الروسية مباشــرة، مساهَمةٌ في استكمال معرفتنا بالأدب الروسي عامة، وبأدب ليونيد أندرييف على وجه الخصوص.

xxx

Twitter: @ketab_n

كتب ليونيد أندرييف "قصة سبعةٍ شُنقوا" (١٩٠٨) في المرحلة الرجعية الظلامية التي أعقبت إخفاق الثورة الروسية الأولى (١٩٠٥)، فكانت صرخة حارّة في وجه الإرهاب الذي قابل به النظامُ القيصريّ الثوريين عبر محاكم عسكرية ميدانيــة صوريّة. وتنطوي هذه القصة على صوَرٍ حيّــة، ناطقة تبيّن كيف يواجه الثوريّ لحظــة الموت، وكيف يواجهها جاهلٌ مسطّح الوعي، أو مجرمٌ سفّاح. وقد بيع في الحال من "الكتاب السنوي" الــذي نشرت فيه "قصة سبعةٍ شُنقوا" ٢٣ ألف نسخة (رقمٌ قياســي يومها). وأثارت القصة عاصفةً مــن التمجيد بين النقاد شارك فيهــا حتى الرمزيون الذين لم يكونوا معجبين بكاتبها قبل ذلك الحين. وبين ١٩٠٨ و ١٩١٨ أعيد طبعها ٢٨ مرّة. وتكريماً لليف تولستوي في عيــد ميلاده الثمانين (٢٨/٨/١٩٠٨) تنــازل أندرييف عن كامل حقوقه في نشرهــا لمن يشاء. وقد تُرجِمت هــذه القصة سنة صدورها (١٩٠٨) إلى الإيطاليــة والألمانيــة والبولنديــة واللاتفيــة والجورجية والإستونية، ثم سنة ١٩٠٩ إلى الإنكليزية[1] والأرمنية والترية...

تمثّــل الحرب الروســية اليابانيــة (١٩٠٤) الخلفيةَ العامــة التي دفعت بأندرييف أواخر ذلك العام إلى كتابة قصة «الضحك الأحمر» الباهرة في فكرتهــا وفنّيتهــا ولغتها، والتي كان يعدّهــا الكاتــب أحبَّ قصصه علــى نفسه. يقــول المؤلف إنه أنجزهــا في تسعة أيــام، وكان يتمنّى لو يستطيــع الرجــوع إليها ليعيــد النظر في أماكــن عديدة منهــا، إلا أن أعصَابــه لم تعد تقوى على العمــل فيها «ولا يوماً واحــداً، ولا ساعة

١- New .The Seven Who Were Hanger. A story by Leonid Andreev York (١٩٠٩) الترجمة الأولى إلى الإنكليزية قام بها بيرنشتاين: وصدرت في نيويورك. - م.

Twitter: @ketab_n

واحدة». لقد كان على حدود الجنون. وظلّ ثمانية أشهر لا يستطيع أن يمدَّ يده إلى القلم، كما قال.

على أن القطيعة التي وقعت بين ليونيد أندرييف ومكسيم غوركي كانت قد بدأت تعمّق طريقها منذ «الضحك الأحمر»، أساساً. فعندما قرأ غوركي مخطوطة «الضحك الأحمر»، التي أرسلها له المؤلف، طالبه بأن يعيد النظر فيها لينطلق من «وقائع الحرب» وفساد النظام القيصري، ويبتعد عن النظر إلى الحرب عموماً نظرةً مجردة، نظرةَ من يؤمن بوجود قوة شريرة تتحكّم بالعالم، وبأهمية فائقة للحدْس في العملية الإبداعية، على نحو ما يرى شوبنهاور. وقد عبّر أندرييف عن هذا الافتراق بقوله سنة ١٩٠٦: «إن غوركي نفسَه رايةٌ حمراء، أمّا أنا فضحكٌ أحمر، شيءٌ ليس له أيّ قيمة بالمعنى السياسي. إنني في الحقيقة ثوريٌّ، من حيث جوهر نشاطي الأدبي، ولكنْ ليس تلك الثوريّةَ التي تتطلّبها اللحظة». ومع ذلك نشر غوركي «الضحك الأحمر» في كتاب مخصص لتكريم ذكرى أنطون تشيخوف، صدر يوم ١٩٠٥/١/٢٢. فلاقت قصة أندرييف استقبالاً منقطع النظير بين القراء والنقاد في روسيا. على أنه يشار عادة إلى تأثر أندرييف في «لضحك الأحمر» بالمدارس التعبيرية والرمزية، وبالمذهب الانطباعي خاصّة. وقد ترجمت هذه القصة في عام صدورها ١٩٠٥ إلى اللغتين الألمانية والفرنسية. ويشهد سلامة موسى (١٨٨٧-١٩٥٦) أن ترجمة "الضحك الأحمر" يوم صدور ترجمتها الإنكليزية "سرَت في لندن سريان النار في الهشيم".

لم يفُتِ النقّادَ ذلك التشابهُ في نقطة الرهان بين راسكولنيكوف، بطل رواية دَستويِفسكي «الجريمة والعقاب»، والدكتور كيرجِنتسِف،

Twitter: @ketab_n

بطـل قصة «فكرة» التـي كتبها ليونيد أندريـيـف ونشرها عام ١٩٠٢ (تجدر الإشارة إلى أن ليونيد أنديف كان أوّل كاتب روسي يدخل في سجـال إبداعي مع أفكار فيـودَر دَسويِفسكي). ذلك أن كيرجِنتِسف أيضاً يرتكب جريمـة قتلٍ، زاعماً تسويغها وَفقاً لمبدأ فلسفي هو إثبات حريتـه بقدرتـه علـى انتهاك المبـادئ الأخلاقيـة السائـدة في مجتمع لاأخلاقـي. كما وجد بعضهـم في هذه القصة نقضـاً لنظرية الإنسان الخـارق (السوبرمان)، ومبدأ «ما وراء الخـير والشر» عند الفيلسوف الألمـاني فريدريك نيتشـه. ذلك أن هزيمة الدكتـور كيرجِنتِسف كامنة سلفـاً في منطلقاته الفلسفية نفسها التي ينصبها فخّاً للآخرين فيقع هو فيـه. لآن مسألة دفاعه عـن «أنا»ه الشخصية، وتأكيـده هذه الـ«أنا» لا تقـوم إلا علـى الجريمة/القتـل، أي على حسـاب شخصية الآخر. وهكذا يخون العقلُ والفكر هذا البطلَ، كما يدرك وهو في مستشفى الأمراض العقلية، عندما يتبيَّن أن جنونه المفتعل أصبح جنوناً حقيقياً، موتاً للعقل.

وفي عـام ١٩٠٦ نشر ليونيـد أندرييف في شتوتغـارت الألمانية قصته «هـذا ما كان»[٢] مـع عنوان فرعـي ينسب أحداثهـا إلى عهد الثورة الفرنسية (١٧٨٩) ومرحلة ديكتاتورية اليعاقبة. ولكنّ المؤلّف تخلّى في طبعاتهـا الروسية عن تثبيت هذا العنـوان الفرعي خوفاً من أن تمنع الرقابـة القيصريـة نشر القصـة في روسيا. وقد يرى قـارئ ما في قصة «هـذا ما كان» من تشاؤم وواقعية، مهمـا بدا من غرابة في الجمع بين هاتـين المفردتين، وقد يرى قارئ آخر غير ذلك. وربّما يتأسّف آخرون

٢- لقد فضّلنا صيغة «هذا ما كان» على الترجمة الحرفية للعنوان بـ«هكذا كان». - م.

Twitter: @ketab_n

متعاطفـين مع أندرييف، أو يسدِّدون رصاصـة لوم وعتبٍ إلى صدره الذي يؤلمهم أيضاً، لأن التاريخ نفسه ليس عملية جمعٍ حسابيٍّ بسيط، ولا طريقاً مستقيماً يوصلنا إلى جنّة على الأرض. وليس غريباً أن ينطق صمتنا العميق بصوتٍ واحد: أحقّاً، هذا ما كان، هذا ما سيكون؟!

أم لعلّنـا نعـود إلى «رحـلات غوليفر» لـنردِّد مكنون قلـب جوناثان سويفت: من أنت أيها الإنسان؟

المترجم

٥/٧/ ٢٠١١

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قصّةُ سبعةٍ شُنِقوا

مهداة إلى تولستوي ل. ن.

١. في الواحدة ظهراً، معاليكم -

لمّا كان الوزير إنساناً مفرِطَ البدانةً، ميّالاً إلى الإصابة بالسكتة الدماغية، فإنهم نبّهوه، بكل أنواع الحذر، تفادياً لاستدعاء اضطراب خطير لديه، إلى أنه يَجري الاستعداد للقيام بعملية اغتيال جدية تستهدفه. وحين رأوا أن الوزير تلقّى الخبر بهدوء، بل وببسمة، أخبروه بالتفاصيل أيضاً: سوف تقع عملية الاغتيال يوم غد، في الصباح، عندما يخرج ومعه التقرير. ثمة بضعة أشخاص من الإرهابيين الذين وشى بهم أحد المخبرين، وهم الآن موجودون تحت مراقبة يقظة من قبل العملاء السريين. إنهم سيجتمعون في الساعة الواحدة ظهراً مزوَّدين بالقنابل والمسدّسات، وينتظرون عند المدخل. وهناك سيُلقى القبض عليهم.

- مهلاً، - تعجّب الوزير، - ومن أين يعرفون أنني سأذهب في الساعة الواحدة ظهراً لإلقاء تقرير، ما دمت أنا شخصياً لم أعرف بذلك إلا قبل يومين من الآن؟

فبسط رئيس الحرس ذراعيه على نحو غير محدد:

- في الواحدة ظهراً بالضبط ، معاليكم.

Twitter: @ketab_n

وبين متعجِّب ومبارِك ما تقوم به الشرطة التي أحسنت إعداد كل شيء هـزّ الوزير رأسه، وافترّت شفتاه السمينتـان عن بسمة عابسة. وبهذه البسمـة نفسهـا تقبّل الأمر طائعـاً، غير راغب بعرقلـة عمل الشرطة. وبعد ذلك تهيّأ بسرعة وذهب لقضاء الليلة في قصرٍ مضياف يملكه أحد الغرباء. كذلـك نُقلت زوجته وولداه الطفلان من البيت الخطير الذي سينتظره الإرهابيون بالقرب منه.

وبينمـا كانـت الأضواء مشتعلـة في القصر الغريـب، وكان أشخاص بشوشون يعرفهم، ينحنون له بالتحية، ويتسمون ويستنكرون، أحسَّ الوزير بشعور مثير طيِّب، وكأنه قد أُعطيَ أو سوف يُعطى الآن مكافأة غـير متوقّعة. إلا أن الناس رحلوا، والأضـواء انطفأت، وعبْر الزجاج العاكـس انتشر من المصابيح الكهربائية علـى السقف والجدران ضوءٌ مخـرَّمٌ، شفّاف. ولأن الوزيـر غريب عن هذا البيـت بلوحاته وتماثيله وسكينتـه الآتية مـن الشارع، ولأنه هـادئ الطبع، حائـر، فإنه أيقظ في نفســه فكرة مقلقة عن عدم جدوى المغاليـق والحراسة والجدران. وعندئـذ في الليـل، في سكينة غرفة النـوم الغريبـة ووحشتها، أحسَّ الوزير برعب لا يطاق.

كان يشكـو من كِليتَيه، إذ عند كل اضطـراب قويّ كان جسمه يمتلئ بالمـاء، فينتفخ وجهه ورجلاه ويداه، ويجعله ذلك يبدو أكثر ضخامة، وأكـثر سمنة وبدانة. والآن وهو مرتفـعٌ، مثل جبل من اللحم المنتفخ، فوق نوابض السرير المضغوطـة، كان حزيناً حزنَ رجل مريض، يشعر بوجهـه المنتفخ وكأنه ليـس وجهه، ولم يفارقه التفكـير بذلك المصير القاسـي الذي كان يُعدُّه لـه الناس. وواحدة تلو أخـرى تذكّر جميع الحـوادث المرعبة التـي وقعت في الماضي القريب، حـين كانوا يُلقون

Twitter: @ketab_n

القنابـل على من هم في مقامه، بل وفي مقام من هم أعلى منه، فتمزِّق تلك القنابل الجسم إرباً، وتنثر الدماغ على الجدران القرميدية الوسخة، وتقتلـع الأسنان من أماكنها. وبسبب هذه الذكريات كان يخيَّل له أن جسمه البدين، المريض، المستلقي على السرير بات غريباً عنه، وصار يعاني من قوة نار الانفجار. وخُيِّل له وكأن يديه تنفصلان عند الكتفين عن جسمه، وأسنانه تتساقط، ودماغـه يتقطَّع إرباً، ورجليه تتخدَّران وتستلقيـان مستسلمتين، وأصابعهما مرفوعة إلى فوق، كما هو الحال عند الموتـى. وجهِد لتحريك جسمه، وتنفَّس بصوت عالٍ، وسعل، لكـي لا يشبـه الميت بشـيء، وأحاط نفسـه بضجيج حـيّ من صرير النوابض، وحفيف اللحـاف؛ ولكي يبيِّن أنه حيٌّ تمامـاً، ولم ينل منه الموت مثقال ذرّة، وأنه بعيد عن الموت مثل أي إنسان آخر، راح يقول في سكينة غرفة النوم ووحشتها بصوت خشن، عالٍ ومتقطِّع:

ـ أحسنتم! أحسنتم! أحسنتم!

بهذه الكلمات كان يمـدح العملاء السريين، والشرطة، والجنود، وكلَّ أولئـك الذين يحرسون حياته، وأنقذوه من الجريمة في الوقت المناسب تمامـاً، وبهذا القـدْر من المهـارة. ولكنـه وهو يتحـرّك، وهو يمدح، وهـو يسخر بابتسامة عوجاء، مفتعلة قسراً مـن أجل أن يعبِّر عن هزئه بالإرهابيين الفاشلين الأغبياء، لم يكن قادراً على التصديق بعدُ بأنه نجا، وبـأن حياته لن تغرُب فجـأة وفي الحال. والموت الذي حاكه له الناس والـذي لم يكـن موجـوداً إلا في أفكارهم، في نواياهـم، بات وكأنه واقـف هنا، وهـو الآن يواصل وقوفـه، ولن يرحل قبـل إلقاء القبض عليهـم، وتجريدهم من القنابل والزجّ بهم في سجن حصين. إنه واقف في تلـك الزاويـة ولا يرحـل، لا يستطيع أن يرحل، مثلمـا لا يستطيع

Twitter: @ketab_n

الرحيلَ جنديّ مطيع يقوم بالحراسة وَفقاً لأمرٍ من أحدٍ ما وإرادته.

ـ في الواحـدة ظهراً، معاليكم! ـ كانت ترنّ في سمعه تلك الجملة التي قيلـت له، وتـتردد بمختلف نغمـات الأصوات: تـارة مرحة ساخرة، وتارة غاضبة، وأخرى عنيدة وغبيّة. وكأنما وضعوا في غرفة نومه مائة من أجهزة الحاكـي (غرامفون) الميكانيكية، وجميعها تصرخ واحدة تلو الأخرى مردِّدة كلمات هذا الأمر بدأب آلة غبيّ:

ـ في الواحدة ظهراً، معاليكم.

وهـذه "الواحدة ظهـراً" غداً، التـي لم تكن حتى وقـت قريب جداً تختلف عن غيرها من الساعات، ولم تكن إلا حركة هادئة من عقرب الساعـات على مينـا ساعته الذهبية، إذا بها فجـأة تكتسب درجة من اليقـين تنذر يالشر، وتقفز من مينا الساعـة وتمضي تعيش على انفراد، وتمتـدّ مثل عمود ضخم أسود شقّ الحيـاة كلّها نصفين. وكأنما لم يكن ثمـة أية ساعـات أخرى من الزمن، لا قبلهـا ولا بعدها، وحدها فقط تلك الساعة الوقحة والمغرورة كان لها الحق بوجودٍ من نوع خاص.

ـ هه؟ وما الذي تريده؟ ـ لفظ الوزير عبر أسنانه بغضب.

كانت أجهزة الغرامفون تزعق:

ـ في الواحـدة ظهـراً، معاليكـم! ـ وكان العمـود الأسـود يضحـك باستهزاء، وينحني محيّياً.

كـزَّ الوزير على أسنانه، ونهض في سريـره، وجلس سانداً وجهه على يديه، ـ حقّاً لم يكن في مقدوره أن يغفو في هذه الليلة الكريهة.

Twitter: @ketab_n

وتصوّر بسطوع مرعب، وهو يضغط على وجهه بكفّيه المنتفختين المعطّرتين، كيف كان سينهض في صباح غدٍ وهو لا يعرف شيئاً، ثم يشرب قهوته وهو لا يعرف شيئاً، وبعدها يرتدي ثيابه عند الباب. وما كان لأحد أن يعرف: لا هو ولا حاجبه الذي يقدّم له معطف الفرو، ولا خادمه الذي يقدِّم القهوة، أن من العبث تماماً أن يشرب القهوة، وأن يرتدي الفرو ما دام أن ذلك كلّه: معطف الفرو، وجسمه والقهوة التي فيه، سوف يدمِّره الانفجار ويمضي به الموت. وإذا بالحاجب يفتح الباب الزجاجي... هو ذاته، الحاجب اللطيف، الطيِّب، الحنون، ذو العينين الزرقاوين العسكريتين، والأوسمة التي تغطي صدره، هو نفسه، بيديه يفتح الباب الرهيب، يفتحه لأنه لا يعرف أيَّ شيء. الجميع يتبسمون لأنهم لا يعرفون أيّ شيء.

- أوهووو! - قال فجأة بصوت عالٍ، و أبعد يديه عن وجهه ببطء.

وبينما كان يُلقي إلى العتمة، بعيداً إلى الأمام، نظرة جامدة، متوترة، مدّ يده بالبطء نفسه فلمس زرَّ الكهرباء الناتئ وأشعل الضوء. ثم نهض، ومن غير أن يلبس شيئاً، مشى بقدميه الحافيتين على السجادة، وطاف في غرفة نوم الغرباء التي لا يعرفها، فوجد زرّاً ناتئاً آخر لمصباح في الجدار وأشعله. فسرَّه النور، ووحدهما الفراش المنبوش واللحاف المتكوِّم على الأرض كانا شاهدين على حدوث شيء رهيب لم ينقضِ تماماً بعدُ.

كان هذا المسؤول وهو في ثياب نومه، وبلحيته المهوَّشة بسبب حركاته القلقة، وبعينيه الغاضبتين، شبيهاً بأيِّ عجوز غاضب آخرَ مصابٍ بأرَقٍ وضيقِ نَفَسٍ شديد. كأنّما عرّاه الموت الذي أعدّه له الناس، وأبعده عمّا كان يحيط به من ترف وروعة ساحرة، فقد كان

Twitter: @ketab_n

مـن الصعب التصديق بأنه يتمتّع بكل هذه السلطة، وبأن جسده هذا، الجسد البشـري البسيط، العادي للغاية، كان يجـب أن يموت بطريقة رهيبـة، في نارٍ ودويٍّ انفجار مريع. ومن غـير أن يلبس ثيابه أو يشعر بالـبرد جلس على أوّل كنبة صادفها، فاستند بلحيته المهوَّشة على يده، وبتركيـز وغيـاب في تأمّلٍ عميق وهـادئ ثبّت ناظريـه على السقف المزيَّن بالجبصين الذي لم يرَه من قبل.

تلك إذاً هي القضية! ذلك إذاً ما جعله يجبن ويضطرب إلى هذا الحد! لذلـك إذاً يقـف الموت في الزاويـة، ولا يريد أن يرحـل، ولا يستطيع الرحيل!

ـ حمقى! ـ قال باحتقار ويقين.

ـ حمقـى! ـ كـرَّر بصوتٍ أعلـى، واستدار برأسه صـوب الباب لكي يسمعـه أولئك الذين يقصدهم بكلامـه. وكان المقصود أولئك الذين أثنـى عليهم قبـل وقت قصير بقولـه "أحسنتم"، وذلـك الذي حدّثه بالتفصيل، وباهتمام فائق عن عملية الاغتيال الجاري إعدادها.

«طبعـاً ـ فكّر عميقاً بفكرة سلسة ترسّخت لديه على حين غرّة، ـ فأنا الآن، بعـد أن أخبروني، أعـرف وأشعر بالخوف، وإلا لما كنت عرفت أيَّ شيء، ولكنت شربت قهوتي باطمئنان. ولكنْ طبعاً بعد ذلك كان سيأتـي المـوت. ولكنْ، أأنا خائف من المـوت كلَّ هذا الخوف؟ ها أنا تؤلمني كليَتـاي، وسوف أموت ذات حين، إلا أنني لا أخاف، لأني لا أعـرف أيَّ شيء. غير أن هؤلاء الحمقى قالـوا لي: في الواحدة ظهراً، معاليكـم. وقد ظن هؤلاء الحمقـى أنني سأفرح، ولكنّـه، عوضاً عن ذلك، واقـف في الزاوية ولا يرحل. وهو لا يرحل لأنه فكرتي. إن ما

Twitter: @ketab_n

هــو رهيب ليس الموت، وإنما معرفتــه. فلو كان في مقدور الإنسان أن يعـرف بقدْرٍ كبير من الدقة والتحدي اليـومَ والساعةَ اللذين سيموت فيهمـا لتعذّر عليه تماماً أن يعيش. أمّا هؤلاء الحمقى فيحذّرونني: "في الواحدة ظهراً، معاليكم!".

وتخفّف من ثقل كبير، وراقَ كأن أحداً قال له إنه خالد تماماً ولن يموت أبداً. ولمّا عاوده الإحساس بأنه قويٌّ وذكيٌّ بين هذا القطيع من الأغبياء الذين يقتحمـون سرَّ المستقبل عبثاً وبوقاحة، راودته بعمقٍ أفكار ثقيلة حول نعيم الجهل تليـق برجل هَرِمٍ، مريض، عانى الكثير. ليس مقدَّراً لحـيّ، سواءٌ أكان إنساناً أو حيوانـاً، أن يعرف يوم أو ساعة موته. لقد كان مريضـاً قبل مدّة قصيرة، وقال له الأطبّاء إنــه سيموت، وإن عليه أن يفصــح عن وصاياه الأخيرة، ولكنه لم يصدّقهم. وبالفعل ظلَّ حيّاً. وكان في صبـاه قـد ضـلّ في الحياة وقـرر الانتحار، فأعـدَّ المسدس، وكتب الرسائل، بل وحدَّد يوم وساعة الانتحار، ثم غيَّر رأيه فجأة قبل لحظـة التنفيذ تماماً. فدائماً في اللحظة الأخيرة تماماً يمكن أن يتغيَّر شيء ما، يمكن أن تظهر مصادفة غير متوقّعة، ولذلك ما من أحد يستطيع أن يقول عن نفسه متى سيموت.

«في الساعة الواحدة ظهراً، معاليكم"، - قال له أولئك الحمير اللطفاء. ورغـم أنهـم لم يقولوا له ذلـك إلا لأن الموت قد تمَّ تفاديـه، فإن مجرَّد معرفة الساعة التي كان يمكن أن يقع فيها ملأته رعباً. ثمة احتمال كبير بأنهـم سيقتلونه ذات يوم، ولكن ذلك لن يكون غداً - ذلك لن يكون غـداً - وبوسعـه أن ينام مطمئنّـاً، كأنه خالد. إنهم حمقـى، لم يعرفوا أيَّ قانـون عظيـم أزاحوه عن مكانه، وأيّ ثقـب فتحوه حين قالوا لي بلطفهم المعتوه ذاك: "في الواحدة ظهراً، معاليكم".

Twitter: @ketab_n

ـ كلا، ليس في الواحدة ظهراً، معاليكم، وإنما في وقت غير معروف. في وقت غير معروف. ماذا؟

ـ لا شيء، ـ أجاب السكون. ـ لا شيء.

ـ كلا، إنك تقول شيئاً ما.

ـ لا شيء، سخافات. إنني أقول: غداً في الواحدة ظهراً.

وبحزن فجائي حادّ في قلبه أدرك أنه لن يعرف النوم، ولا الطمأنينة، ولا الفرح قبلَ أن تمرَّ هذه الساعة اللعينة، المقتطعة من مينا الساعة. ومثل خيالٍ لمعرفةِ ما لا ينبغي أن يعرفه أيّ كائن حيّ، كان واقفاً هناك في الزاوية، وكان كافياً لحجب الضوء وحشرِ الإنسان في ظلام دامس من الرعب. كان رعب الموت الذي أُثيرَ مرة ينتشر في الجسم، فيتسرّب إلى العظام، ويُطلّ برأسه الشاحب من جميع مسامّ الجسد.

إنه الآن لا يخاف من قتَلَة الغد، فقد اختفى هؤلاء، طواهم النسيان، وذابوا في حشد من الأشخاص الأعداء والظواهر المحيطة بحياته البشرية، وإنما يخاف من شيء فجائي وحتمي، من سكتة دماغية، من سكتة قلبية، من أبهرٍ ما رقيق غبي يعجز فجأة عن تحمُّل ضغط الدم فينفجر مثل قفّازٍ ضيّقٍ جدّاً على أصابع منتفخة.

وكانت رقبته القصيرة السمينة تبدو مخيفة، وكان مخيفاً النظر إلى أصابعه القصيرة المنتفخة، والإحساس بأنها قصيرة، وبأنها مليئة بماء قاتل. ولئن كان عليه فيما مضى أن يتحرّك في الظلام لكي لا يكونَ شبيهاً بميت، فقد تبدّى له الآن، في هذا الضوء الساطع، المخيف، البارد في عدوانيته، أنه لَشيءٌ رهيب ومستحيل أن يتحرّك من أجل

Twitter: @ketab_n

أن يتنـاول لفافة تبغ، أو أن ينادي أحداً. كانـت أعصابه تتوتّر. وكان كل عصـب يبدو شبيهاً بسلْـكٍ مقوّس متوثِّب وعلى قمَّته رأسٌ صغير فيـه عينان جاحظتان من الخوفَ، مفتوحتان بتشنّجٍ، مختنقتان، وفمٌ لا ينطبق. كان الهواء مقطوعاً.

وفجأة رُنَّ جرسٌ كهربائي في العتمة وسط الغبار وأعشاش العنكبوت، في مكان قريب من السقـف. راح اللسان المعدني الصغير يقرع حافّة الجرس بتشنّجٍ، مرعوباً، ثم أخذ يصمت، ثم راح يضطرب مرة أخرى برنين وخوفَ لا ينقطع. كان ذلك معاليه يقرع الجرس من غرفته.

تراكض الناس. واشتعل بعض المصابيح الكهربائيـة هنا وهناك، في الثريّـات وعلى الجـدران. كان عددها قليلا لا يكفـي لإشاعة النور، ولكنّه كان كافياً لظهور الظلال. لقد ظهرت في كل مكان: فانتصبت في الزوايـا، وامتـدّت على السقف، وطفقت ترجـرج وهي تتشبّث بـكل نتوء، وتستلقـي على الجدران. وكان من الصعـب على المرء أن يفهم أيـن كان موجوداً في الماضي كل هذه الظلال اللامتناهية العدد، القبيحة، الصامتة، هذه الأرواح البكماء التي لأشياء بَكماء.

صوتٌ مرتعش، خشنٌ قال شيئاً بصوتٍ عال. ثم طلبوا طبيباً بالهاتف. فقد كنت حالة الوزير سيئة. كما استدعوا أيضاً زوجة معاليه.

٢. الحكم بالإعدام شنقاً

حـدث ما توقّعته الشرطة. فقـد تمَّ القبض على أربعـة إرهابيين، ثلاثة رجـال وامـرأة، مسلّحـين بقنابـل وأجهـزةٍ جهنّميّـة ومسدّسات، عنـد مدخل البناية تمامـاً. أمّا الشخص الخامس فامـرأة تمَّ اعتقالها في شقـة للعمل السرّيّ هـي صاحبتها. وقبضـوا أيضاً علـى كمية كبيرة

Twitter: @ketab_n

من الديناميت، والقنابل شبه الجاهزة للتفجير، والأسلحة. جميع المعتقلين كانوا شباباً في مقتبل العمر. فأكبرهم من الرجال كان عمره ثمانيةً وعشرين عاماً، وأصغر الفتاتين عمرها تسعة عشر عاماً. وقد جرت محاكمتهم في القلعة نفسها التي ساقوهم إليها بعد الاعتقال، وحاكموهم بسرعة، ودون حضور أحد، على جري العادة في ذلك الزمن الذي لا يرحم.

في المحكمة كان الخمسة كلّهم هادئين، ولكنّهم كانوا جدّيين للغاية. فقد كان احتقارهم للقضاة عظيماً إلى درجة أنه ما من أحد منهم كان راغباً في أن يعبِّر بابتسامة زائدة، أو بتعبير مبتذل عن المرح لتأكيد جرأته. كانوا هادئين بقدْر ما كان مطلوباً لحماية الروح وكدرِها العظيم الذي يسبق الموت من نظرة الغرباء الشرّيرة والعدائية. كانوا يرفضون الإجابة على الأسئلة حيناً، وحيناً يجيبون بطريقة مقتضبة، بسيطة ودقيقة، كأنهم لا يردّون على قضاة، وإنما على إحصائيين يملأون جداول من نوع خاص. ثلاثةٌ منهم، رجلان وامرأة، صرّحوا بأسمائهم الحقيقية، فيما رفض اثنان التصريح أمام القضاة باسميهما اللذين ظلا مجهولَين. وبالإضافة إلى كل ما جرى في المحكمة، فإنهم كشفوا عن ذلك الفضول الملطَّف الذي يظهر مغبَّشاً ويكون ملازماً للناس المصابين بمرض عُضال، أو للمأخوذين بفكرة واحدة ضخمة تستولي على كيانهم كلِّه. كانوا يُلقون نظرة سريعة، وبمهارة يلتقطون كلمة تكون أكثر أهمية من سواها، ويعودون من جديد إلى مواصلة التفكير من نفس المكان الذي توقّف فيه تفكيرهم.

أوّل من جُنَّ بسبب القضاة كان واحداً ممَّن صرحوا بأسمائهم، إنه سيرغي غولوفين، ابن عقيد متقاعد، وهو نفسه كان ضابطاً. وقد كان

Twitter: @ketab_n

سيرغي في عنفوان الشباب تماماً، ناصع البياض، عريض المنكبين، له من قوة البنية ما يجعل السجن، وانتظار الموت المحتوم عاجزين عن محو حمرة خدَّيه، وتعابيرِ سعادة الصبا الساذج من عينيه. وكان طول الوقت، يحكّ - بين لحظة وأخرى - لحيته الشعثاء التي لم يعتدْ عليها بعد، ولا يكفُّ عن النظر من النافذة مكوِّراً عينيه وهما تطرفان.

وقع ذلك في أواخر الشتاء الذي كان الربيع يرسل بين عواصفه الثلجية وأيامه الباهتة، على شكل بشارة، يوماً مشمساً، دافئاً، صافياً، أو حتى ساعة واحدة، ولكنّها تكون ساعة ربيعية، فيّاضة بالشباب والنور إلى حدٍّ يصيب عصافير الدوري والشارع بجنون من الفرح وكأنها سكارى آدميّون. والآن عبر النافذة العليا الملبّدة بالغبار، والتي لم تنظَّف منذ الصيف الفائت، كنت ترى سماء فائقة الغرابة وجميلة: إنها تبدو للوهلة الأولى رمادية أقرب إلى البياض، عليها مسحة دُخان، وعندما تطيل النظر قليلاً ترى الزرقة فيها آخذة بالظهور، فتبدأ زرقتها الشفافة تزداد عمقاً وسطوعاً وانتشاراً بلا حدود. ولأنّها لا تُسفر عن كامل وجهها فوراً، بل تحتجب بعفاف وراء غلالة من الغيوم الرقيقة، فقد كان ذلك يجعلها غالية مثل فتاة تحبُّها. وكان سيرغي غولوفين ينظر إلى السماء وهو يعبث بلحيته تارة، ويزمّ عينيه برموشهما الكثيفة الطويلة تارة أخرى، ويمعن التفكير بشيء ما. حتى إن شيئاً مفرحاً ما جعله مرة يحرِّك أصابعه بسرعة، ويتغضّن بسذاجة، إلا أنه أجال طرْفه حواليه وانطفأ مثل شرارة حطّت عليها قدم. وبطرفة عين تقريباً انبثقت من خلال حمرة خدَّيه، وقبل أن تتدرّج إلى الشحوب تقريباً، زُرقةُ موتى ترابية، وانكمشت الشعرة الرقيقة، وهي تُقتلع من عشها بألم، كما في عناق قويٍّ، بين أصابعه التي ابيضّت أطرافها. غير أن

Twitter: @ketab_n

فرحة الحياة والربيع كانت أقوى، إذ ما هي إلا بضع دقائق حتى تطلّع وجهه الفتي، الساذج إلى سماء الربيع.

وإلى تلك السماء نفسها كانت تنظر الفتاة الشابة الشاحبة، المجهولة الاسم، الملقَّبة بـ موسيا. كانت هذه أصغر عمراً من غولوفين، ولكنها بصرامتها وسواد عينيها الصريحتين والأبيتين كانت تبدو أكبر منه سنّاً. وما من شيء كان يُفصح عن عمرها غير رقبتها البضّة والرفيعة جداً، ومثلها يداها الأنثويتان الرفيعتان، وشيء آخرُ مراوغٌ هو الصبا نفسه الذي كان ينبض بهذا الوضوح في صوتها الصافي، المتناغم، المضبوط بكل دقّة مثل آلة غالية، وفي كل كلمة بسيطة، وصيحةٍ تفصح عن مضمونه الموسيقي. كانت شاحبة جداً، ولكنْ ليس شحوب الموتى، بل شحوب ذلك البياض الحارِّ المميَّز، عندما يكون داخل الإنسان ما يشبه ناراً ضخمة قوية، وجسده يشعّ بضوء شفّاف مثل خزف سيفر[٣] الرقيق. كانت جالسة دون حراك تقريباً، لا تزيد على أن تتلمّس خفيةً في حالات نادرة بحركة من أصابعها حزّاً عميقاً على إصبعها الوسطى في يدها اليمنى خلّفه خاتم خلعته قبل حين. ودون حنان وذكريات مفرحة كانت تنظر إلى السماء لسبب واحد فقط هو أنه في قاعة المحكمة القذرة كلّها كانت هذه القطعة من السماء هي الأجمل، والأنظف، والأصدقَ لأنها لم تكن تستجوب عينيها عن أيِّ شيء.

كان القضاة يعطفون على سيرغي غولوفين، أمّا هي فكانوا لا يطيقونها.

كذلك كان جارها المجهول الاسم، الملقَّب بـ فيرنر، جالساً دون

٣- الواقعة على مسافة ١٠ كم جنوب غرب باريس والمشهورة بصناعة هذا النوع من الخزف. SEVR نسبة إلى البلدة الفرنسية.

Twitter: @ketab_n

حـراك، في وضعية لا تخلو من غطرسة، ضامّـاً يديه بين ركبتيه. فإذا كان بالإمـكان إغلاق الوجه مثل باب أصـمّ، فإن هذا المجهول أغلق وجهـه مثل بـاب وعلّق عليـه قفلاً من حديـد. كان ينظـر بثبات إلى الأسفـل، نحو الأرض الخشبية القـذرة، وكان مستحيلاً أن يفهم المرء أهـو مطمئنٌّ أم مضطرب إلى أقصى حدّ، أهـو يفكّر بشيء أم يستمع إلى مـا يقدّمه العملاء السريون أمـام المحكمة من قرائن. لم يكن طويل القامـة، وكانت ملامـح وجهه رقيقة وطيّبة. كان علـى قدْر من الرقة والجمال يذكّر بليلة مقمرة على شاطئ البحر في الجنوب، حيث أشجار السرو وظلالهـا السوداء. وفي الوقت نفسـه كان يبعث على الشعور بقوة هادئة ضخمة، وصلابة لا تقهر، ورجولة باردة، جسورة. وكان التهذيب نفسـه الذي يعطي به إجاباته المختصرة والدقيقة يبدو خطيراً في شفتيـه، وفي نصف انحناءتـه. وإذا ما كان ثوب السجن يبدو على الآخرين كلهم تهريجاً سخيفاً، فإن ذلك لم يكن ظاهراً عليه البتّة، وما أشـدَّ ما يكون هذا الثوب غريباً علـى الإنسان. ومع أنه تمّ العثور على قنابل وأجهـزة جهنمية عند الإرهابيين الآخريـن، ولم يُعثر عند فيرنر إلا علـى مسدَّسٍ أسود، فإن القضـاة كانوا لسبب ما يَعدُّونه الشخص الرئيس ويخاطبونه بشيء من الاحترام بطريقة مختصرة وعملية أيضاً.

وجـاء بعده فاسيلي كاشيرِن الـذي كان يتألّف كلّه من مجرّد رعبٍ من المـوت كلّـيّ لا يطاق، ومن رغبـة يائسة بالسيطرة علـى هذا الرعب وبعـدم إظهارِه أمـام القضاة. ومنـذ أن قادوه مع رفاقـه إلى المحكمة في الصبـاح الباكر شرع يختنق من تسـارع نبض القلب. وكان جبينه ينضـح بقطـرات من العرق، كذلـك كانت تعرق وتـبرد يداه، وكان قميصه البارد المبلل بالعرق يلتصق بجسمه، ويعرقل حركاته. وبجهد

Twitter: @ketab_n

إرادة خارق كان يرغم أصابعه على ألا ترتجف، وصوتَه على أن يكون ثابتاً وواضحاً، وعينيه هادئتين. لم يكن يرى حوله أيَّ شيء، وكانت الأصوات التي تصله كأنها آتية من الضباب، وإلى هذا الضباب بالذات كان يوجِّه جهوده اليائسة من أجل أن يجيب بصوتً ثابت، ومن أجل أن يجيب بصوتٍ عالٍ. ولكنه كان ما إن يجيب حتى ينسى في الحال السؤال وجوابه عليه، سواء بسواء، ويعود ثانية إلى صراعه الرهيب بصمت. وكان ينضح بالموت على قدْر من الوضوح جعل القضاة يتحاشون النظر إليه، وكان تقدير عمره صعباً صعوبة تقدير عمر جثة تتفسّخ. و لم يكن عمره في بطاقته الشخصية إلا ثلاثة وعشرين عاماً. وقد لمس فيرنر ركبته بيده مرة أو اثنتين لمسة خفيفة، وكان في كل مرة يجيب بكلمة واحدة:

- لا شيء.

على أن أفظع شيء بالنسبة له هو عندما راودته رغبة لا تَحتمل الصبر بأن يصرخ، دون كلام، صرخة حيوانيةً يائسة. وقتها لمس فيرنر بهدوء، فردَّ عليه بصوتٍ خفيض، دون أن يرفع عينيه:

- لا بأس، يا فاسيا، قريباً ينتهي هذا.

وكانت الإرهابية الخامسة، تانيا كوفالتشوك، المثقلة بالحزن والاضطراب، تعانق الجميع بنظرة أمّ حنون. لم يكن لها أطفال يوماً، فقد كانت ما تزال في ميعة الصباً، حمراء الخدّين، مثل سيرغي غولوفين، ولكنها كانت تبدو أمّاً لكل هؤلاء لشدّة ما كان في نظراتها، وابتساماتها، ومخاوفها من حنان ومحبة لانهائية. لم تكن تولي المحكمة أيَّ اهتمام، وكأنها شيء لا يخصها البتة، فتكتفي بالإنصات إلى

Twitter: @ketab_n

الطريقة التي يجيب بها الآخرون: ألا يرتعش صوتهم، أليس خائفاً، هل من حاجة لتقديم الماء.

كان حزنها يجعلها غير قادرة على النظر إلى فاسيا، فتكتفي بفرقعة خفيفة من أصابعها البضّة. وكانت تنظر إلى موسيا وفيرنر بفخر وإجلال، وتضفي على وجهها علائم وقارٍ وتركيز، فيما ظلّت تحاول إيصال بسمتها إلى سيرغي غولوفين.

«يا للغالي، إنه ينظر إلى السماء. انظر، انظر، يا يمامتي، - تقول في سرّها وهي تفكر بغولوفين. - وماذا عن فاسيا؟ ما هذا، يا إلهي، يا إلهي... ماذا أفعل به؟ إن قلتُ له شيئاً ازدادت حالته سوءاً، فقد ينخرط بالبكاء؟».

-ومثل بحيرة هادئة عند الفجر تعكس كلّ غيمة عابرة، كانت تانيا كوفالتشوك تعكس على وجهها البضّ، الحبيب، الطيّب كل شعورٍ سريع، كل فكرة من أفكار أولئك الأربعة. لم تكن تفكّر إطلاقاً بأنها تحاكَم هي أيضاً، وبأنها سوف تُشنَق هي أيضاً، فقد كانت لامبالاتها عميقة. إنها هي مَن وجدوا عندها في شقتها مخزناً من القنابل والديناميت. والغريب هو أنها هي التي تصدّت للشرطة بإطلاق النار وأصابت أحد العملاء السريين بجرح في رأسه.

انتهت المحاكمة في حوالي الساعة الثامنة، عند هبوط الظلام. وشيئاً فشيئاً كانت السماء المتقدة بالزُّرقة تخمد أمام عيون موسيا وسيرغي غولوفين، ولم تغدُ زهرية اللون، لم تبتسم بهدوء كما في أماسي الصيف، وإنما تكدَّرت، وأصبحت رمادية، ثم فجأة صارت باردة وشتوية. وتنهَّد غولوفين وتمطّى، ونظر مرتين إلى النافذة، غير أنه لم

Twitter: @ketab_n

يكن هناك إلا ظلمــة الليل الباردة. وفيما هو مستمرٌ في العبث بلحيته شرع بفضولٍ طفولي يتفحّص القضاة والجنود المسلَّحين، وابتسم لتانيا كوفالتشــوك. أمّا موسيا فإنها، عندما خمــدت زرقة السماء، حوّلت عينيهــا، بهدوء ودون أن تخفض نظرها إلى الأرض، نحو الزاوية التي كان يهتــزّ فيها على مهــلٍ عشّ عنكبوت بفعل تيــار خفيف من هواء التدفئة، وظلّت على هذه الحال حتى إعلان الحكم.

بعــد إعلان الحكــم ووداع محامــي الدفــاع الذين يرتــدون الفراك(٤) ، وتفــادي عيونهــم التي جعلها العجــز تائهة، شاكيــة، مذنبة، التقى المتَّهمون لدقيقة في الباب وتبادلوا جُملاً قصيرة.

- لا بأس، يا فاسيا، قريباً ينتهي كل شيء، - قال فيرنر.

- أجل، يا أخ، أنا لا بأس، - ردّ فاسيا بصوتٍ عالٍ، بهدوء بل وبما يشبه المرح.

وحقّاً، تضرّج وجهه بالحمرة، ولم يعد يشبه وجه جثّة تتفسّخ.

- فليأخذهــم الشيطان، ومع ذلك فقد حكموا علينــا بالشنق، - سبَّهم غولوفين بسذاجة.

- هذا ما كان يجب علينا أن ننتظره، - أجاب فيرنر بهدوء.

- غــداً يُعلَن الحكــم في صيغته النهائية، ثم يضعوننــا في السجن معاً، - قالت كوفالتشوك مواسية. - وسنظلّ معاً حتى لحظة الإعدام.

كانت موسيا صامتة. ثم اندفعت إلى الأمام بحزم.

٤- وطويلة الذيل من الخلف مع بنطال لمّاع ذي مواصفات خاصة. نوع من اللباس الرسمي الأسود يتألف من سترة قصيرة من الأمام

Twitter: @ketab_n

٣. لا لزوم لشنقي

قبل أسبوعين من محاكمة الإرهابيين كانت المحكمة العسكرية نفسها في تلك المنطقة قد أصدرت، ولكنْ عن طريق قضاةٍ آخرين، حكماً بالإعدام شنقاً على فلاح اسمه إيفان يانسُن.

كان إيفان يانسُن هذا عاملاً زراعياً عند صاحب مزرعة ميسور، و لم يكن يختلف بشيء عن الشغّيلة الآخرين من أمثاله. كان إستونيَّ الأصل، من فيزنبرغ. وظلَّ على مدى عدّة سنوات يتنقّل تدريجياً من مزرعة إلى أخرى إلى أن اقترب من العاصمة تماماً. كان يتكلّم الروسية بطريقة رديئة جداً. ولمّا كان ربُّ عمله روسيّاً، كنيته لازاروف، و لم يكن في الجوار إستونيون، لزم هذا العامل الصمت سنتين بطولهما. وبصفة عامة فإن يانسُن لم يكن ميّالاً إلى الكلام، على ما يبدو. و لم يكن يصمت مع الناس فقط، بل ومع الحيوانات أيضاً. فقد كان يسقي الفرَس صامتاً، وصامتاً يُسرجها، وببطء وتكاسل يتحرك حولها بخطىً صغيرة، مرتبكة. وعندما تبدأ الفرس المستاءة من صمته تغضب وتتململ كان ينهال عليها بالضرب صامتاً بسوط غليظ. كان يضربها بقسوة، بعنادٍ بارد وشرّير. وإذا ما صادف وقوع ذلك في الوقت الذي يكون خلاله في حالة من السكر الشديد، فإنه كان يستشيط غضباً حتّى الجنون. عندها كان لسع السوط، وخبط الحوافر الخائف، السريع الوقع، المليء بالألم على الأرض الخشبية في الزريبة، يصل حتى البيت تماماً. ولمّا كان يانسُن يضرب الفرَس فإن السيد كان يضربه أيضاً، غير أنه عجز عن إصلاحه فتخلّى عن ذلك.

كان يانسُن يسكر مرة أو مرتين في الشهر، وكان ذلك يحدث عادة في الأيام التي ينقل فيها السيدَ إلى محطة السكك الحديدية الكبيرة التي

Twitter: @ketab_n

يوجـد فيها مطعـم صغير وكحول. فبعـد أن يوصل السيـد يبتعد عن المحطـة مسافة نصف فرسخ، وهناك يحيد عن الطريق قليلاً، ثم يربط الزحّافة والفرَس في الثلج، وينتظر رحيل القطار. وتكون الزحّافة مائلة إلى الجانب، تـكاد تنقلب، فيما تمضي الفرَس تشقّ بقوائمها المتشنّجة الثلجَ الذي يصل إلى بطنها، ونادراً ما تنحني بخطمها إلى الأسفل كَي تلحس قليلاً من الثلج الغض المنفوش، فيما يكون يانسُن شبه مستلق في الزحّافـة بطريقة غير مريحة وكأنه غفا قليلاً. كان طرفا قبّعته الفرو العتيقـة المفكوكان يتهـدّلان عاجزَين مثـل أُذُنَي كلب سلوقي، وتحت أنفه الصغير المحمرّ تتجمّع ندفُ ثلج هشّة.

بعد ذلك يعود يانسُن إلى المحطة ويسرع في الشرب حتى السكر.

وطول الفراسخ العشرة في طريـق العودة إلى المزرعة كان يطلق العنان للفرَس كي تمضي بأقصى سرعـة. وكانت الفرَس المسكينة، المنهَكة من الضرب حتى الرعب تقفز بجُماع قوائمهـا الأربع كأنها تحترق، فيما الزحّافة تنزلق وتتمايل مصطدمـة بأعمدة الطريق، ويانسُن مُرخ العنـان يكاد كلّ دقيقة يطير مـن الزحّافة وهو يغنّي تارة، وتارة يصرخ بجُمـل إستونية متقطّعة عمياء. بل وفي أغلـب الأحيان كان لا يغنّي، وإنمـا ينطلـق إلى الأمام صامتاً، يكـزّ على أسنانه من شـدة ما يداهمه من غضب دفين، وعذابـات، وذهول، فيكون كالأعمى: لا يرى من يصادفهـم، ولا يصـرخ، ولا يخفّف من سرعته الجنونيـة، سواءٌ أكان ذلك عنـد المنعطفات الحادّة، أو على المنحـدرات. وما من أحد يعلم كيـف لم يدهس أحـداً، وكيف لم يتحطّم هو حتـى الموت في إحدى تلك السفْرات الوحشية إلى هذا الحد.

كان ينبغـي أن يُطـرَد منذ مدّة طويلـة، مثلما كان يُطـرَد من الأماكن

Twitter: @ketab_n

الأخرى، غير أن أجره كان رخيصاً، و لم يكن الشغّيلة الآخرون بأفضل منه، فظلّ يعمل هناك سنتين. لم يكن في حياة يانسُن أيّ نوع من الأحداث. وذات مرّة استلم رسالة باللغة الإستونية، إلا أنها ظلّت دون قراءة لأن يانسُ نفسه كان أميّاً، و لم يكن الآخرون يعرفون اللغة الإستونية. وبنوع من اللامبالاة الهمجية ألقى بها في المزبلة، كمن لا يدرك أن الرسالة تحمل أخباراً من وطنه. كذلك حاول يانسُن استدراج عاملة المطبخ بسبب تشوقه لامرأة، على ما يبدو، ولكنه لم ينجح في مسعاه، ونال صدّاً فظاً وسخرية به، فقد كان قصير القامة، هزيل الجسم، متهدِّل الوجه، أنمَش، له عينان صغيرتان ناعستان بلون زجاجة وسخة. وقد تلقّى يانسن ذلك الفشل بلامبالاة، و لم يعد إلى التحرش بعاملة المطبخ مرة ثانية.

لئن كان يانسُن يتكلم قليلاً، فإنه كان ينصت ويستمع طول الوقت إلى الحقل الثلجي المضجر، بما فيه من أكوام الزبل المتجمّد الشبيه بصف من القبور التي غطّاها الثلج، وإلى الآفاق الرقيقة، وأزيز أعمدة التلغراف، وأحاديث الناس. لم يكن أحد غيره يعرف ما الذي يقوله له الحقل وأعمدة التلغراف، أمّا أحاديث الناس فكانت تبعث على القلق، مليئة بالإشاعات عن جرائم القتل، والنهب، وإشعال الحرائق. وذات مرّة ترامت في الليل دقّاتٌ متباعدة وواهنة من قرية مجاورة، دقات صادرةٌ عن ناقوس كنيسة بروتستانتية صغير كأنه جرس للعب، وطقطقةُ اشتعال حريق، بعد أن سطا غرباء على مزرعة غنيّة نهبوها وقتلوا مالكها وزوجته وأضرموا النار في البيت.

ولمّا كانوا يعيشون في مزرعتهم قلقين، فإنهم كانوا يطلقون كلابهم ليس في الليل فقط، بل وفي النهار أيضاً، وكان السيد يضع بندقية

Twitter: @ketab_n

إلى جانبه ليلاً. وقد خطـر له أن يسلِّح يانسُن ببندقية من النوع نفسه، ولكنهـا بندقية ذات فوّهة واحدة وقديمة، لولا أن العامل قلَّب البندقية بـين يديه، ثم هزّ رأسه رافضـاً ذلك لسبب مجهول. و لم يفهم صاحب البيـت سبب الرفض، فسبَّ يانسُــن. أمّـا السبب فـكان يتمثَّل في أن يانسُـن كان أكثر ثقة بقـوة سكينه الفنلندية ممّا بهـذا الشيء العتيق الصدئ.

- إنهـا ستقتلنـي أنـا، - قـال يانسُن وهو ينظـر بعينيـه الزجاجيتين إلى صاحب البيت نظرة ناعسة.

فنفض هذا يده يائساً:

- يا لك من أحمق، يا إيفان. فلتعِشْ هنا مع هؤلاء العمال.

وإذا بهـذا الـ إيفان يانسُن نفسـه، الذي لم يثق بالبندقيـة، يقوم ذات مســاء في الشتاء، عندمـا أرسلوا العامل الآخـر إلى المحطة، بارتكاب جريمة مركّبة بهـدف النهب المسلّح، والقتـل، واغتصاب امرأة. وقد قـام بذلك كلِّه بطريقة في غاية البساطـة، إذ أغلق قفل المطبخ بالمفتاح علـى عاملة المَطبخ، ثم بكسلٍ وهيئة رجل تغالبـه رغبة مميتة كي ينام، تقدّم نحو صاحب البيت من الخلف وأسرعَ ينهال عليه طعناً بالسكين في ظهـره. ولمّا سقط السيد فاقداً وعيـه، تراكضت الزوجة وهي تجأر بالعويـل، فكشـَّر يانسُن عـن أسنانـه ملوِّحاً بالسكـين، وشرع ينبش الصناديـق والأدراج. وبعد أن أخذ المـال بدا كمن رأى الزوجة لأول مـرّة. وبطريقة فاجأته هو نفسه انقضّ عليهـا يريد اغتصابها. ولكنْ، لمّـا لم تكـن السكين في يـده تلك اللحظـة، تبيّن أن ربّـة البيت أقوى منه. فهـي لم تكتف بمنعه من اغتصابها وحسـب، بل وكادت تخنقه

Twitter: @ketab_n

أيضاً. وعندها تحرّك زوجها على الآرض، وقرقع المِحراك[٥] في يد عاملة المطبخ وهي تخلع به الباب، فلاذ يانسُن بالهرب راكضاً صوب الحقل. وقد ألقيَ عليه القبض بعد ساعة بينما كان يجلس القرفصاء وراء زاوية الزريبة وهو يشعل أعواد ثقاب تنطفئ واحداً تلو الآخر محاولاً إشعال حريق.

بعد بضعة أيام مات صاحب البيت بسبب تسمم الدم. أمّا يانسُن فقد حكموا عليه بالإعدام شنقاً عندما جاء دوره بين الآخرين الذين ارتكبوا جرائم قتل ونهب. وكان في المحكمة، كما هو دائماً، صغيراً، هزيل الجسم، أنمش، ذا عينين زجاجيتين، ناعستين. وكان كمن لا يفقه نهائياً مغزى ما يدور، إذ كان مظهره لامبالياً تماماً: يطرِف بأجفانه البيضاء، وبغباء وانعدام فضول يُجيل نظره في القاعة المهيبة التي لا يعرفها، وينكش أنفه بإصبعه الخشن، المتخشّب الذي لا ينحني. لم يكن أحدٌ يستطيع أن يتبيّن أنه قد تأنّق بعض الشيء إلا أولئك الذين كانوا يرونه أيام الأحد في الكنيسة. فقد وضع على رقبته لفحة حمراء وسخة حيكت باليد، وبلّل بالماء بعض أماكن من شعر رأسه، فكَمَدَ لون الشعر المبلول وكان سابلاً أملس، فيما كان شعره على الجهة الأخرى من رأسه يتهدّل خصلاتٍ شقراءَ نادرةً مثل سيقانِ سنابلَ هزيلة كسّرها البَرَد.

عندما أُعلِن الحكم عليه بالإعدام شنقاً دبَّ الاضطراب في يانسُن فجأة. فتضرج وجهه بحُمرة قوية، وطفِق يعقد اللفحة ثم يفكّها كما لو أنها كانت تخنقه. ثم لوّح بيديه بحركة عديمة المعنى، وقال

٥- الجدارية القديمة أو الوجاق. ـ م. عصا خشبية غليظة تنتهي برأسٍ حديدي مقوَّس كالقرنين، تستعمَلَ لتحريك الحطب في المدفأة

Twitter: @ketab_n

يخاطب القاضي الذي لم يكن يقرأ الحكم، مشيراً بإصبعه إلى القاضي الذي كان يقرأه:

- قالت إنه يجب أن يشنقوني.

- مـن هي التي قالت؟ - بصـوتٍ أجشَّ، خشنٍ سأل الرئيس الذي كان يقرأ الحكم.

فابتسـم الجميع وهـم يخفـون البسمة تحت شواربهـم وفي الأوراق، ولكنّ يانسُن أشار بسبّابته إلى الرئيس وبغضب أجاب مقطِّباً:

- أنت!

- وماذا؟

ومـرّة أخرى وجّه يانسُن عينيه إلى القاضي الصامت الذي كان يبتسم بأدب، وأحسَّ فيه صديقاً وإنساناً ليس له أيّ علاقة البتة بقرار الحكم، وكرَّر:

- هي قالت إنه يجب أن يشنقوني.

- أخرِجوا المتَّهم.

غير أنه تسنّى ليانسُن أن يكرر مرة أخرى بإلحاح ويقين:

- لا لزوم لشنقي.

كان بوجهـه الصغير الغاضب الذي عبثاً حاول أن يُضفي عليه أهمية، وبإصبعه الممـدودة، شديد التفاهة إلى درجـةٍ جعلت جندي الحراسة يخالف التعليمات ويقول له بصوتٍ خفيض وهو يُخرِجه من القاعة:

Twitter: @ketab_n

ـ يا لك من أحمق، أيّها الفتى.

ـ لا لزوم لشنقي. ـ كرر يانسُن بعناد.

ـ سوف يشنقونك قبل أن يرفَّ لك جفن.

ـ يكفي، اسكتْ! ـ صرخ الجندي الآخر بغضب. غير أنه لم يحتمل أيضاً وأضاف: ـ ثم إنك لصٌّ أيضاً! لماذا، أيّها الأحمق، أهلكتَ نفْساً بشرية؟ فلْيشنقوك إذاً.

ـ ربّما يعفون عنه؟ ـ قال الجندي الأوّل وقد أخذته الشفقة بيانسُن.

ـ طبعاً! سيعفون عن أمثاله... هه، يكفي، لقد تكلّمنا وانتهى.

إلا أن يانسُن كان قد صمت. ومن جديد أعادوه إلى الزنزانة نفسها التي سبق له أن أمضى فيها شهراً وتسنّى له أن يعتادها مثلما كان يعتاد كلّ شيء: الضرب، والفودكا، والحقل الثلجيّ الممل، المفروش بتلال ثلجية مستديرة، صغيرة كأنها مقبرة. حتّى إنه بات يُحسّ الآن بالسرور بعد أن رأى سريره ونافذته المشبّكة بالقضبان، وقدّموا له الطعام، فهو منذ الصباح لم يكن قد أكل أيّ شيء. ما من شيء كان يضايقه إلا ما حدث في المحكمة، غير أنه لم يكن يُحسِن ولا يستطيع التفكير بذلك. ولم يكن يتصوّر إطلاقاً ما معنى الموت شنقاً.

ومع أن يانسُن كان محكوماً بالإعدام، فقد كان هناك كثيرون من أمثاله، ولم يَعدُّوه في السجن مجرماً متميِّزاً. لذلك كانوا يتكلمون معه من غير تهيُّب أو احترام، مثلما يتكلّمون مع أيِّ سجين آخر ليس محكوماً بالإعدام. وكأنهم ما كانوا يَعدّون موته موتاً. ولمّا علم ناظر السجن بالحكم عليه قال له بلهجة واعظة:

Twitter: @ketab_n

ـ وماذا، يا أخ؟ قريباً يشنقونك!

ـ ومتي سيشنقونني؟ ـ سأل يانسُن مرتاباً.

فكَّر الناظر ثم قال:

ـ يجب عليك أن تنتظر قليلاً، يا أخ. إلى أن تكتمل عندنا مجموعة. لأن شنق واحد فقط ، بل ومثلك، فمسألة لا تستحق حتى المحاولة. هذا يحتاج إلى تنظيم.

ـ طيِّب، متى؟ ـ سأل يانسُن بإلحاح.

لم يسؤه مثقالَ ذرّة أنه لا يستحق حتى أن يُعدَم بمفرده، وهو لم يصدِّق ذلك، وعدَّه حُجّة لتأجيل إعدامه، ومن ثّمَّ لإلغائه تماماً. فأحسَّ بالفرح لأن اللحظة الغامضة والرهيبة التي لا يمكن التفكير بها أُقصَيت إلى مكان بعيد، وصارت خرافية وغير معقولة مثل كلِّ موت.

ـ متى، متى! ـ غضب الناظر، ذلك العجوز الغبيّ والمتجهِّم. ـ لا تظنّ المسألة شَنْقَ كلب يأخذونه إلى وراء الزريبة وبلحظة ينتهي كل شيء. أمّا أنت فهذا ما تريده، يا أحمق!

ـ أنا لا أريد! ـ فجأة قطّب يانسُن بسرور. ـ هي التي قالت أن يشنقوني، وأنا لا أريد!

وضحك، ربّما أوّل مرة في حياته، ضحكةَ وَقْوَقة، سخيفة ولكنها شديدة السرور والفرح. كان مثل إوزّة صاحت: غا ـ غا ـ غا! فنظر إليه الناظر متعجِّباً، ثم عبس بصرامة، إذ إن هذا السرور السخيف الذي يُبديه رجل ينتظر الإعدام كان إهانة للسجن وللإعدام نفسه، كما

Twitter: @ketab_n

إنــه جعَلهما شيئاً غريبــاً جدّاً. وفجأة، للحظــة واحدة، لأقصر لحظة، بــدا للناظر العجوز الــذي أمضى حياته كلهــا في السجن الذي يؤمن بقواعــده وكأنها قوانين الطبيعة، بدا لــه أن السجن وحياته كلها شيء شبيه بمستشفى مجانين، بل وأن الناظر نفسه أكبر المجانين.

ـ تفو،عليك اللعنة! ـ وبصق. ـ ما لك تكشِّر عن أسنانك، لا تظننّ أنها قصّة كلب!

ـ أنا لا أريد، ها ها ها! ـ ضحك يانسُن.

ـ يــا للشيطــان! ـ قــال الناظر وهــو يشعر بحاجــة لأن يرســم إشارة الصليب.

لم يكــن ثمــة إلا أقــلّ شبــه بــين الشيطان وهــذا الرجــل ذي العينين الصغيرتــين، والوجه المترهِّــل، ولكنْ كان في صوتــه الشبيه بصوت الإوزِّ شــيء يحطِّــم قدسيــة السجن ورسوخــه. يكفــي أن يزيد من ضحكــه قليلاً حتّى تنهــار جدرانه النخرة، وتسقــط شباكه الحديدية البليلــة، ويقود الناظــر نفسُه السجنــاء إلى وراء البوّابــة ويقول لهم: تفضّلوا، أيُّها السادة، وتنزّهوا في المدينة على هواكم، ولعلّ بينكم من يريد الذهاب إلى القرية؟ أيّها الشيطان!

ولكنّ يانسُن كان قد توقّف عن الضحك مكوِّراً عينيه بمَكرٍ لا غير.

ـ كما قلت لك! ـ قال الناظر بتهديدٍ غيرِ محدَّدٍ وانصرف وهو يتلفَّت.

ظــلَّ يانسُن هادئــاً، بل ومرِحاً، ذلك المساء كلّــه. كان يردِّد في نفسه الجملــة التي قالها: لا لــزوم لشنقي، وكانت على قــدْرٍ من الإقناع، والحكمة وقوّة الحجّة جعل المسألة لا تستحقّ القلق. حتى إنه كان قد

Twitter: @ketab_n

نسـيَ جريمته من زمان، غير أنـه كان يتأسّف أحياناً لأنه لم يتمكّن من اغتصاب السيّدة. ولكنه سرعان ما نسيَ هذا أيضاً.

كلَّ صبـاح كان يانسُن يسأل متى سيشنقونه، وكلَّ صباح كان الناظر يردّ عليه:

ـ سيأتي دورك، يـا شيطان. اجلس! ـ ويسرع بالخروج قبل أن يتسنّى ليانسُن أن يُغرِق في الضحك.

وبسبـب هذه الكلمات التي تتكرّر برتابة كلَّ يوم، ولأن كل يوم يبدأ ويمـر وينقضي كأكثر الأيّام اعتيادية، ترسّخ يقـين لدى يانسُن بأنه لن يكـون هناك أيّ إعدام. وبسرعة كبيرة صار ينسى المحكمة ويستلقي أيامـاً بطولها علـى سريره حالماً علـى نحوٍ غامض ومفـرح بالحقول الثلجية المضجرة بتلالها الثلجية، وببوفيه المحطة، وبأشياء أخرى أكثر بعداً وبهجة. كانوا يطعمونه جيداً في السجن، وبسرعة كبيرة، خلال بضعة أيّام، زاد وزنه فصار يتباهى قليلاً.

«الآن كانـت ستحبّنـي، ـ خطرت على بالـه ربّة البيـت. ـ فأنا الآن سمين، لست أسوأ من زوجها».

لم يـراوده شـيء إلا إحساسه برغبة قويّـة في أن يشرب فودكا، في أن يشرب وينطلق سريعاً ـ سريعاً على ظهر الفرس.

حـين اعتقلوا الإرهابيين وصل الخبر إلى السجـن. ورداً على السؤال المطروق الذي يكرِّره يانسُن أجاب الناظر فجأة على نحوٍ غيرِ متوقَّع وبفظاظة:

ـ الآن صار شنقك قريباً. أظنّ أنه سيكون بعد أسبوع.

Twitter: @ketab_n

اصفرّ يانسُن وكأنه يستسلم لنوم عميق. وكانت نظرة عينيه الزجاجيتين عَكِرة، تماماً كأنه يغفو، وسأل:

- هل تمزح؟

- كنتَ لا تطيق صبراً، وإذا بك الآن تمزح. عندنا لا يجوز المزاح. أنت تحب المزاح، وعندنا لا يجوز المزاح، - قال الناظر بمهابة وانصرف.

ومع حلول مساء ذلك اليوم كان الهزال قد ظهر على يانسُن. وجِلدُه الذي اشتدّ، وصار لبعض الوقت أملس، عاد فجأة ليتقلّص إلى عدد كبير من التجاعيد الصغيرة، حتّى إنه بدا متهدّلاً في بعض الأماكن. وصارت عيناه ناعستين تماماً، وباتت كل خطواته شديدة البطء والذبول، وكأن كل التفاتة برأسه، وحركة في أصابعه، وخطوة برجله كانت عملاً بالغ الصعوبة والثقل يتطلّب إعمال الفكر مدة طويلة جداً قبل الشروع به. وفي الليل استلقى على فراشه، ولكنه لم يُغمِض عينيه، الناعستين أصلاً، فظلّتا حتى الصباح مفتوحتين.

- آها، - قال الناظر بسرور حين رآه في اليوم التالي. - هذا المكان، يا صاحبي، ليس خمّارة.

بشعور من الرضا الطيِّب، كشعور عالم نجحت تجربته مرّة أخرى، تفحَّص المحكومَ من أخمص قدميه حتى قحفة رأسه باهتمام وتفصيل. الآن سيسير كل شيء كما ينبغي. لقد خُذِل الشيطان، وعادت القدسيّة للسجن والإعدام، - وبتسامحٍ، بل وبشفقة صادقة، استفسر العجوز:

- هل ترغب بمقابلة أحد أم لا؟

Twitter: @ketab_n

ـ لماذا المقابلة؟

ـ للوداع. أن تقابل أُمّك، مثلاً، أو أخاك.

ـ لا أريد أن أُشنَق، ـ قال يانسُن بصوتٍ خفيض ومال بطرف عينه إلى الناظر. لا أريد.

نظر إليه الناظر، ونفض يده بصمت.

بحلول المساء كان يانسُن قد اطمأنّ قليلاً. كان النهار عاديّاً جداً، وعادياً جداً كان ضياء السماء الشتوية الغائمة، وعادياً جدا كان وقْع الخطوات في الممر، والكلام العملي الذي ينطق به أحدهم، وعادية وطبيعية ومألوفة كانت رائحة الحَساء الحامض، حتى إنه توقّف من جديد عن التصديق بالإعدام. ولكن الوضع بات رهيباً مع قدوم الليل. قبل ذلك كان يانسُن يُحسّ الليل مثل ظلام لا غير، مثل زمن مظلم من نوع خاص، عندما يكون النوم ضرورياً، ولكنه أحسَّ الآن بجوهره الغامض والرهيب. فلكي لا يؤمن المرء بالموت، يجب عليه أن يرى ويسمع ما حوله من أشياء عاديّة: الخطوات، الأصوات، النور، حَساء الملفوف الحامض، أمّا الآن فكان كل شيء غير عادي، وهذا السكون وهذا الظلام كانا بحد ذاتهما قد باتا وكأنهما الموت.

كلّما امتدّ الليل ازداد الشعور بالرعب. وبسذاجة الهمجي أو الطفل اللذين يَعدّان كلّ شيء ممكناً، كان يانسُن يرغب في أن يصرخ بالشمس: أشرقي! فدعا الشمس وتوسّل إليها كي تشرق، إلا أن الليل كان ينشر ساعاته السوداء على الأرض، ولم يكن هناك من قوّة تستطيع وقف جريانه. وهذه الاستحالة التي مثُلت أمام يانسُن لأوّل مرّة بهذا الوضوح ملأته بالرعب. إذ إنه قبل أن يتجرّأ على الإحساس بذلك

Twitter: @ketab_n

علـى نحوٍ واضـح كان قد أدرك حتمية المـوت القريب، فخطا بقدم داهمها الموت إلى أولى درجات المقصلة.

مرة أخرى أشعرَه النهار بالطمأنينة، ومرة أخرى أخافه الليل، واستمرّ ذلك حتى تلك الليلة التي وعى فيها وأحسَّ بأن الموت حتميّ وسيأتي إليه بعد ثلاثة أيام، عند الفجر، وقت شروق الشمس.

إنـه لم يفكر في يـوم من الأيام ما هو المـوت، و لم يكن للموت صورة في ذهنه، ولكنه أحسّ الآن بوضوح، ورأى ولمس أن الموت دخل إلى الزنزانة، وأنه يبحث عنه بحركات من يديه. وطلباً للنجاة راح يانسُن يركض في زنزانته.

غـير أن الزنزانـة كانت صغيرة، حتـى خُيِّل له أن الزوايـا فيها ليست حـادّة، بل هي مـدوّرة، وكلّها تدفعه إلى وسط المـكان. وما من شيء ليختبـئ خلفه. والباب مقفل. والدنيا نهـار. وصامتاً اصطدم جسمه عـدة مرّات بالجدران، ومرة اصطدم بالبـاب صدمة صمّاء مندفعاً في الفراغ. وتعثّر فسقط علـى وجهه، وحينها شعر بأنه في قبضة الموت. وبينمـا كان مستلقيـاً على بطنـه ملتصقاً بالأرض، يُخفي وجهه في أسفلتهـا الأسود القذر، جأر يانسُن من الرعـب. وظلّ مستلقياً يجأر إلى أن جـاؤوا إليـه. ولمّا رفعوه عـن الأرض وأجلسـوه على السرير، وصبّـوا ماء بارداً على رأسه كان يانسُن ما يزال لا يجروؤ بعد على فتح عينيه المغمضتين بقوّة. كان يفتـح إحداهما قليلاً فيرى الزاوية المضاءة الفارغة، أو فردة حذاء في الفراغ، فيعود لينخرط بالصراخ من جديد.

إلا أن المـاء البـارد بدأ يفعـل فعله. وساعـد في هذا أيضاً قيـامُ الناظر المنـاوب، ذلك العجـوز نفسه، بضرب يانسُن عدة مـرّات على رأسه

Twitter: @ketab_n

بقصد علاجه. على أن إحساسه هذا بالحياة طرد الموت حقاً، ففتح يانسُن عينيه، وبدماغ عَكَرِ أمضى الجزءَ الباقي من الليل في نوم عميق. كان مستلقياً على ظهره، فاغراً فاه، يشخر شخيراً مديداً وعالياً. وبين جفنيه المطبقين قليلاً كانت تظهر عينه المسطّحة والميتة بيضاءَ وليس فيها حدَقة.

—وكلُّ شيء في العالم: من نهار، وليل، وخطوات، وأصوات، وحَساء كرنب حامض صار في نظره رعباً خالصاً، وألقى به إلى حالة همجية من الذهول لا يضاهيها شيء. ولم يكن في مقدور فكره الضعيف أن يربط بين هذين التصوّرين المتناقضين فيما بينهما إلى هذا الحد من الغرابة: ضوء النهار العادي، ورائحة الكرنب وطعمه، من جهة، وكونُه سوف يموت بعد يومين، أو بعد يوم، من جهة ثانية. إنه لم يفكر بشيء، بل ولم يَعد الساعات، وإنما وقف ببساطة في رعبه الأخرس أمام هذا التناقض الذي شقّ دماغه نصفين. وصار شاحباً تماماً: لا أكثر بياضاً، ولا أكثر حمرة، وأوحى مظهره بأنه هادئ مطمئن. غير أنه لم يأكل شيئاً، وأقلع عن النوم كلياً: فكان إمّا يضمّ رجليه تحته طول الليل خائفاً وهو جالس على كرسي دون مسند، وإمّا يتمشّى في الزنزانة بهدوء، خلسة وهو ينظر حوله ناعساً. وطول الوقت كان فمه نصف مطبَق كما لو بسبب تعجُّب عظيم لا يتوقّف. وقبل أن يتناول بيديه أبسط الأشياء كان يتفحصه طويلاً، وببلادة يأخذه مرتاباً.

ولمّا صار إلى هذه الحال لم يعد أحد يوليه اهتماماً: لا الناظر، ولا الجندي الذي يرصد حركاته عبر كوّة الباب. كانت تلك حالةً عاديّة بالنسبة للمحكومين، شبيهة ـ في رأي الناظر الذي لم يجرِّبها يوماً ـ بالحالة التي تمر بها البهيمة عندما يجعلونها تفقد صوابها بضربة عصا غليظة على جبينها.

ـ لقد فقد صوابه الآن، ولن يعود يشعر بأي شيء قبل أن يجيء الموت،

Twitter: @ketab_n

ـ قال الناظر وهو يتفحّصه بعينيه الخبيرتين. ـ هل تسمع، يا إيفان؟

ـ لا لزوم لشنقي، ـ ردَّ يانسُن بفتور، وتدلّى فكّه السفليّ من جديد.

ـ لو لم تقتل لمّا شنقوك. ـ بنبرة وعظٍ قال كبير النظّار الذي ما يزال شاباً، ولكنه مهيب جداً يتقلّد أوسمةً. ـ ولكنك قتلت، والآن لا تريد أن يشنقوك.

ـ لقد قررت أن تقتل إنساناً دون عقاب. غبيٌّ، غبيٌّ وماكر.

ـ لا أريد، ـ قال يانسُن.

ـ طيّب ،يا حبّوب، أن لا تريد، هذا شأنك، ـ قال كبير النظّار. ـ ولكنْ، بدلاً من التلفّظ بحماقات، خيرٌ لك أن توصي لأحدٍ بما تملك مهما كان قليلاً.

ـ ليس عنده أيّ شيء. ثوب وسروال لا غير. وكذلك هذه القبّعة الفرو من نوع «غندور».

على هذا النحو مرّ الوقت حتى يوم الخميس. وفي يوم الخميس، في الساعة الثانية عشرة ليلاً، دخل إلى زنزانة يانسُن أناس كثيرون، وقال سيّدٌ ذو رُتب:

ـ استعدّوا. فقد حان وقت السفر.

ارتدى يانسُن كلَّ ما كان عنده من ثياب، وعقد لفحته الحمراء القذرة وهو يتحرك بقدْر واحد من البطء والخمول.

وبينما كان السيد ذو الرتب يدخِّن لُفافته وينظر كيف يرتدي يانسُن ثيابه، قال لأحدهم:

Twitter: @ketab_n

ـ ما أدفأ هذا النهار اليوم. ربيعٌ تماماً.

فجأة توقّف يانسُن:

ـ لا أريد، ـ قال بفتور.

أخذوه من تحت إبطيه وقادوه، فسار معهم طائعاً، رافعاً كتفيه. وفي الحال هبّت في الباحة نسمة ربيعية رطبة، وأحسّ بالبلل تحت أنفه. ورغم أن الوقت ليل فقد ازداد الجو دفئاً، وكانت تتساقط على الأحجار من مكان ما قطرات كثيفة مرحة. وبينما كانوا في انتظار دخول رجل الدرك إلى العربة السوداء التي ليس فيها مصابيح، وصليل سيوفهم يتعالى وهم ينحنون، كان يانسُن يمرّر إصبعه بكسلٍ تحت أنفه البليل ويعدِّل لفحته التي لم يعقدها جيداً.

٤ . نحن، أبناء أورلوف[٦]

بحضور هيئة محكمة الإقليم العسكرية ذاتها التي حاكمت يانسُن، صدر الحكم بالإعدام شنقاً على فلاح من مقاطعة أورلوف، قضاء يليتس، هو ميخائيل غولوبيتس المشهور باسم ميشكا[٧] الغجري، وأيضاً باسم التتري. تتمثّل جريمته الأخيرة، الثابتة بأدلة دامغة، بقتل ثلاثة أشخاص، وعملية نهب بالسلاح. وكان ماضيه الأسود يذهب أبعد من ذلك باتجاه أعماق مجهولة. إذ كانت هناك تلميحات غامضة إلى مشاركته في عدد كبير من أعمال النهب والقتل الأخرى تُشعِر بما وراءه من دم وعربدة سكر غامضة. وكان بصراحة كاملة وصدق تام

٦– اسم مدينة هي مركز مقاطعة في روسيا. ـ م.

٧– ميشكا صيغة التحبب والتصغير من اسم ميخائيل.

Twitter: @ketab_n

يسمّـي نفسه قاطع طريق، وينظر بسخريـة إلى أولئك المجرمين الذين كانوا يعظّمون أنفسهم بقولهم إنهم يسترجعون المسروق. وقد تحدّث برضـا وتفصيل عن جريمته الأخيرة التي لم يـؤدِّ الحبس بسببها إلى أيّ نتيجـة. وردّاً على الأسئلة عن ماضيه كان يكتفي بالتكشير عن أسنانه والصفير:

ـ ابحث عن الريح في البراري!

وحين كانوا يشدِّدون الإلحاح عليه بالأسئلة كان الغجري يتّخذ مظهراً جدّياً ومهيباً.

ـ نحـن جميعنا، أبنـاء أوريول، كسّارو رؤوس. أوريول وكرومي[8] أوّل اللصوص. كاراتشوف وليفني قـدوة اللصوص أجمعين. أمّا يليتس فإنها أمّ اللصوص كلِّهم. لا شيء هنا يحتاج إلى الشرح!

كانـوا يسمّونه الغجـري لشبهه بالغجر ولخفة يـده في السرقة مثلهم. كان سـواد شعره شديداً إلى حـدٍّ غريب، وكان نحيلاً، وعلى صدغيه التريـين الناتئين آثار حروق شمسية صفـراء. وعلى شاكلة الخيل كان يقلـب عينيه فـلا يعود يظهر منهمـا إلا البياض، ولا تـراه إلا متعجّلاً أبـداً. كانـت نظرته قصيرة، غـير أنها حارقـة في استقامتها وامتلائها بالفضـول، والشيء الذي ينظر إليه نظرة قصـيرة كان كأنما يفقد شيئاً ما، يتخلّى عن جزء من نفسه، ويغدو شيئاً آخر. ولُفافة التبغ التي ينظر إليها كان أخذُها مكروهـاً وصعباً أيضاً، وكأنها كانت في فم شخص آخـر. كان مسكوناً بشـيء أبديّ لا يمكن كبحه، تـارة يقرنه ويعصره مثل حبل مجـدول، وتارة يُطلقه بقوّةٍ طيفاً واسعـاً من شرارات تتطاير

8–أوريول. ـ م. كرومي، كاراتشوف، ليفني ويليتس قرى وبلدات في مقاطعة

Twitter: @ketab_n

وتدوِّي. وكان يشرب من الماء سطولاً تقريباً، مثل حصان.

كان يقفز بسرعة وهو يجيب على الأسئلة كلِّها في المحكمة باختصارٍ، وثبات، بل وكأنما بسرور:

- صحيح!

وأحياناً كان يؤكِّد:

- صـ- حـ- يـ- - يـ- ح!

وعلـى نحو غير متوقَّـع إطلاقاً قفز عندما تطـرّق الحديث إلى شخص آخر، وطلب من الرئيس:

- اسمحْ لي بأن أصفِر!

- ولماذا؟ - تعجَّب الرئيس.

- مـا داموا يؤشِّرون أنني أعطيت إشـارة لرفاقي، فانظـروا. إنه شيء طريف جداً.

بقليـل من الحـيرة وافق الرئيـس. وسرعان ما وضع الغجـريّ أصابعه الأربع في فمـه، إصبعين من كل يد، وقلب عينيه بوحشية، فشقّ هواءَ قاعة المحكمـة الميت صفيرُ قاطع طريق همجـي يجعل الخيل تشرئبّ واقفـة على قوائمها الخلفية ، ووجـهَ الإنسان يشحب رغماً عنه. هذا الصفـير الثاقـب الذي لم يكن بشريـاً، ولا وحشيّـاً، كان يتضمَّن كل شيء: كآبة القتيل المميتة، وفرحة القاتل الهمجية، والتحذير الرهيب، والاستغاثة، وعتمة الليل الخريفي المكفهر، والوحدة.

صـرخ الرئيس بكلامٍ ما، ثم لـوّح بيده للغجـري فانصاع وصمت.

Twitter: @ketab_n

ومثل فنّان حقق نصراً في أداء نغم غنائي صعب، ولكنه يؤديه بنجاح دوماً، جلس ومسح أصابعه البليلة بثوبه، وأجال بصره بالحاضرين.

ـ يا له من قاطع طريق! ـ قال أحد القضاة وهو يحكّ أذنه.

إلا أن قاضياً آخر، له لحية روسية عريضة وعينان تتريتان كعينَي الغجري، اعترض مبتسماً:

ـ هذا طريف حقّاً.

وبقلبٍ مطمئن، من غير ما شفقة، ومن غير ما تأنيب ضمير أصدر القضاة على الغجريِّ حكماً بالإعدام.

ـ صحيح! ـ قال الغجريُّ بعد قراءة الحكم. ـ في الحقل الرحيب، لكنّ ثمّة حاجزاً. صحيح!

وخاطب الحارس باستهتارٍ قائلاً:

ـ فلنذهبْ، أيُّها العفِن. ولتقبض على سلاحك جيداً، وإلا نزعتُه منك!

نظر الحارس إليه بصرامة وتخوّف، ثم تبادل النظر مع رفيقه وتلمّس زناد بندقيته. وفعل الحارس الآخر الشيء نفسه. وطول الطريق إلى السجن كان الجنديّان كأنما لا يمشيان، بل يطيران في الهواء، فقد أذهلهما المجرم و لم يشعرا بالأرض تحت أقدامهما، ولا بالزمن، ولا بنفسهما بالذات.

قبل الإعدام كان على ميشكا الغجري، مثلُه مثل يانسُن، أن يُمضيَ في السجن سبعة عشر يوماً. وقد طارت تلك الأيام السبعة عشر كلّها مثل يوم واحد، مثل فكرة لا تنطفئ عن الهرب، والحرية، والحياة. وذلك

Twitter: @ketab_n

الشيء الذي لا يمكن كبحُـه، المسيطرُ على الغجري، والمحصور الآن بين الجدران، والقضبان، والنافذة الميتة التي لا يُرى منها شيء، وجّه غضبه كلَّه إلى داخل نفسه وحرق فكرة الغجري مثل فحم منثور على خشب. وكما في حالة من السكْر كانت تحوم حوله وتتصادم وتتوه صورٌ ساطعة ولكنها غيرُ مكتملة، كانت تروح وتجيء قريباً منه في زوبعة منفلتة تعمي الأبصار، وكانت كلّها مندفعة باتجاه هدف واحد، باتجاه الهرب، والحرية، والحياة. تارة كان الغجري ينفخ منخريه مثل حصان، ويُمضي ساعات كاملة يتشمَّم الهواء، فقد خيِّل له أنه يشمّ رائحة خشخاش، ودُخانَ حريق، ورائحةَ شيء عديم اللون، لاذع يحترق، وتارة يدور في الزنزانة مثل مِغزلٍ، وهو يتلمَّس الجدرانَ بسرعة، ويدقّها بإصبعه يختبر متانتها، ويسنّ السقف بنظرته، وينشر قضبان الشبابيك. وبحركاته التي لا تهدأ أنهك الجندي الذي يراقبه عبر ثقب الباب. وقد هدَّده الجندي عدة مرات، وهو يائس، بأن يُطلق عليه النار. وكان الغجري يصدّه بفظاظة وسخرية. ولم يكن الأمر ينتهي بسلام إلا لأن الملاسنة سرعان ما كانت تنقلب إلى سُبابٍ فلاحيّ بسيط، خالٍ من الإهانة، يبدو إطلاق النار فيه سخيفاً ومستحيلاً.

كان الغجري ينام لياليه بعمق، دونما حركة تقريباً، في ثبات لا يتبدّل، ولكنّه حيٌّ، مثلَ نابض متوقّف عن العمل مؤقتاً. ولكنه ما إن يقفز ناهضاً حتى يبدأ في الحال بالحَركة والتفكير والتلمّس. كانت يداه جافّتين وساخنتين دائماً، غير أن قلبه كان في بعض الأحيان يبرد فجأة وكأن أحداً وضع في صدره قطعة جليد لا تذوب، فينتشر في كل أنحاء جسمه خدَرٌ جافٌ دقيق. كان الغجري، الكامد اللون أصلاً، يسوَدُّ في هذه اللحظات ويتّخذ وجهه لون الأواني الحديدية الضارب إلى

Twitter: @ketab_n

الزرقـة. وقـد ظهرت عنده عـادة غريبة، إذ كان ـ كمـنْ أكل شيئاً فيه حـلاوة فائقة لا تطاق ـ يلحس شفتيه دائمـاً، ويتمطّق، وبفحيح كان يقـذف لُعابه عبر أسنانه على الأرضـ. وكان لا يكمل نطق الكلمات لشدّة ما كانت تركض أفكاره مسرعة لا يتسنّى للسانه أن يلحق بها.

وذات مـرة دخل عليـه في النهار رئيس الناظريـن مصحوباً بحارس. فمال الرئيس بنظره إلى الأرض المغطاة بالبصاق وقال عابساً:

ـ كم وسّخت!

فاعترض الغجريّ بسرعة:

ـ أمّا أنت، أيُّها الخطم المشْحِم، فقد وسّخت الأرض كلّها، و لم أقل لك شيئاً. لماذا تتحرّش بي؟

ظـلّ الناظر محتفظـاً بعبوسه نفسه وعرض عليه أن يعمـل سيّافاً عنده. فكشّر الغجري عن أسنانه وقهقه.

ـ هـه، ألا يوجد عنـدك أحد؟ شاطر! إليك فاشنـقْ، إذاً، هيّا، ها ـ ها! فالرقبة موجودة، والحبل موجود، ولكن ما من أحد ليَشنِق. أي والله، شاطر!

ـ مقابل ذلك ستظلّ حيّاً.

ـ وكيف لا، إنني لن أشنق أحداً وأنا ميت. يا له من كلام، أيُّها الأحمق!

ـ ماذا تقول؟ فأنت لا فرق عندك: إمّا هذه أو تلك.

ـ وكيف يَشنِقون عندكم؟ لعلّهم يُخنَقون في الخفاء!

Twitter: @ketab_n

ـ كلا، مع موسيقى، ـ ردّ الناظر زاجراً.

ـ حقّــاً، أحمق. بالطبع، لا بد من الموسيقى. انظر كيف! ـ وطفق يغنّي شيئاً فيه طرافة.

ـ إنك جُننت، يا عزيزي، ـ قال الناظر. ـ فما رأيك، قل لي بوضوح.

كشّر الغجري قائلاً:

ـ كم أنت عَجول! تعال مرة أخرى، عندها أقول لك.

واقتحمت فوضى الصور الساطعة، ولكنْ غير المكتملة، التي تثقِل على الغجـري باندفاعها، صورٌ جديـدة هي: ما أحسنَ أن أكـون سيّافاً في ثــوب أحمر. وبحيوية تصوّر ساحة تغصّ بالناس، ومنصّة عالية يتمشّى هو، الغجري، عليها في ثوبه الأحمر متباهياً، والفأس في يده. الشمس تضـيء الرؤوس، شعاعهـا يلمع بمرح على الفأس، ويبلـغ المرح والثراء بــكلِّ شيء ما يجعل حتى ذلك الذي سيقطعون الآن رأسه يبتسم أيضاً. وتظهر وراء الناس عربات وأخطام خيول، لأن هناك كثيراً من الفلاحين الذين جاؤوا من القرى. وبعد ذلك يظهر الحقل الرحيب.

ـ تصــ ـا ـ اخ! ـ تمطّـق الغجري وهو يلحس شفتيـه ويمصق ما سال من لعابه.

وفجأة وكأنما ألبسوه على عَجَلٍ طاقيّة فروٍ هبطت حتى فمه تماماً فأحسّ بظلمــة واختناق، وبأن قلبه صــار قطعة من جليد لا يذوب، ويبعث فيه دبيب خَدَرٍ جافّ.

ثم عرّج الناظر مرّتين، فكان الغجري يقول يكشِّر عن أسنانه ويقول:

Twitter: @ketab_n

ـ كم أنت عَجول. تعال مرّة أخرى.

وبطرفة عين صاح الناظر أخيراً عبر كوّة الباب:

ـ إنك أضعتَ فرصة العمر، أيها الغراب! لقد وجدنا شخصاً غيرك!

ـ فليأخذك الشيطان، قم بالشنق أنت! ـ قال الغجري بغضب. ثم توقّف عن الحلم بمهنة السَّيّاف.

ولكنْ، في نهاية المطاف، كلّما اقترب موعد الإعدام كان اندفاع الصور الممزَّقة يصبح أمراً لا يطاق. لقد بات الغجري يريد أن يتوقّف، أن يمدَّ رجليه ويتوقّف، ولكن دوّامة التيار كانت تحمله بعيداً و لم يكن ثمة شيء ليتشبّث به، لأن كل شيء حوله كان يسبح طافياً على الماء. وبات نومه مضطرباً، تطالعه فيه أحلام جديدة، ناتئة، ثقيلة مثل قطَع خشب ملوَّنة، وأكثر اندفاعاً من الأفكار. ذلك لم يكن الآن تيّاراً، بل كان سقوطاً لانهائياً من جبل لانهاية له، كان تحليقاً دوّاراً عبر عالم يبدو زاهي الألوان. حين كان الغجري طليقاً كان له شاربان فيهما كثير من الغندرة، أمّا في السجن فقد بات له لحية قصيرة، سوداء، شائكة، وهذا ما جعل مظهره مرعباً ومجنوناً. وكان الغجري في بعض الأحيان ينسى نفسه حقّاً، ويدور في الزنزانة من غير ما هدف إطلاقاً، ولكنه كان ما يزال بعدُ يتلمّس القشرة المتصدِّعة على الجدران. وكان يشرب الماء مثل حصان.

وذات مرة قرب المساء، عندما أشعلوا الضوء، جثا الغجري وسط الزنزانة على أربع وعوى بصوتٍ ذئبي يرتجف. وكان عندها جدّيّاً على نحوٍ خاص فعوى عواءَ مَن يقوم بفعل هام وضروري. كان يملأ صدره بالهواء ثم يطلقه على مهلٍ عواءً مديداً يرتجف، وينصت إليه باهتمام،

Twitter: @ketab_n

وهو يكوِّر عينيه، ليحكم عليه. وهذا الارتجاف في صوته كان بحد ذاته يبـدو له مفتعلاً بعض الشيء. و لم يكن يصرخ بطريقة عشوائية، بل كان يدقِّـق بكل نغمة في هــذا العواء الوحشي المفعم بما لا يوصَف من رعبٍ وأسى.

ثــم قطع العــواء في الحال، وظلّ صامتاً بضعَ دقائـقَ لا ينهض من وقفته على أربع. وفجأة تمتم بصوتٍ خفيضٍ، ووجهُه إلى الأرض:

ـ أيُّهـا الأحباب، أيُّها الأعـزاء... أيُّها الأحباب، أيُّهـا الأعزاء، أشفِقوا عليَّ... أيُّها الأحباب!.. أيُّها الأعزاء!..

وكان أيضاً كمن ينصت ليحكم على صوته. يقول كلمة وينصت.

ثــم قفز واقفاً، وظلّ يصــبُّ شتائمه البذيئة ساعة بطولهــا، وعلى نَفَسٍ واحد.

ـ أووو، يــا صفتكم ـ يا نعتكم، هيك وهيك! ـ راح يصرخ وهو يقلب عينيه المحتقنتين بالدم. ـ الإعدام فلتعدِموني، وإلا... أووو، يا صفتكم ـ يا نعتكم...

وكان الجنــدي الأبيض كالطباشــير يبكي مــن الحزن، ومــن الرعب، ويصوِّب بندقيته إلى الباب ويصرخ بلا حول ولا قوّة:

ـ سأطلق عليك النار! والله، سأطلق عليك النار! هل تسمع!

إلا أنــه لم يجــرؤ علــى إطلاق النــار، لأنهــم لم يطلقوا النــار يوماً على المحكومــين بالإعــدام إذا لم يكن هنــاك عصيانٌ حقيقــي. أمّا الغجري فكان يصرف بأسنانه ويسبُّ ويبصق. فدماغه البشري، الذي وصل إلى

Twitter: @ketab_n

خـطٌّ رفيع للغاية بين الحياة والموت، قد تناثر أجزاء مثل كتلة طين يابسة وقد أُشبِعت تجفيفاً.

عندمـا جاؤوا في الليل إلى الزنزانة ليأخـذوا الغجري إلى الإعدام تحرّك كثيراً وكأنه عاد إلى الحياة. وأحسَّ بمزيد من الحلاوة في فمه، وكان لُعابه يتجمّـع دون توقّف. غير أن خدَّيه احمرّا قليـلا، وبرق في عينيه مَكرُه القديم، الهمجي بعض الشيء. وبينما كان يرتدي ثيابه سأل الموظَّف:

ـ ومَـن الـذي سيتولّى الشنق؟ هل هو شخص جديـد؟ قد لا يكون لديه خبرةٌ بعدُ.

ـ ليس لك أن تقلق حول هذا الموضوع، ـ أجابه الموظَّف بجفاف.

ـ وكيف لا أقلـق، حضرتَكم، وأنا من سيشنقونه، وليس أنت. مطلوبٌ منـك أنت علـى الأقـلّ ألا تبخلْ بالصابـون الحكومي مـن أجل حبل المشنقة.

ـ حسناً، حسناً، أرجوك أن تسكت.

ـ أم أنـه أكل كلَّ ما عندكـم من الصابون، ـ وأشار الغجري إلى الناظر، ـ انظرْ إلى بوزُه كيف يلمع. ـ اسكتْ !

ـ حقّاً، لا تبخلْ !

وقهقـه الغجري، إلا أن الحلاوة راحت تزداد في فمه، وفجأة بدأ الخدَر يـدبّ في رجليـه على نحوٍ غريب. ومع ذلك، فإنـه استطاع أن يصرخ وهو يخرج:

ـ هاتوا عربة الكونت بِنغالسكي !

Twitter: @ketab_n

٥ . قبّليه واصمتي

–تمّ الإعلان عن قرار الحكم في صيغته النهائية بخصوص الإرهابيين الخمسة، ثم أُبرِم الحكم في اليوم نفسه. لم يقولوا للمحكومين متى سيكون تنفيذ الإعدام. غير أنهم كانوا يعرفون، وَفقاً لِما كان يجري عادة، أنهم سيُشنَقون في الليلة نفسها، أو في الليلة التالية، على أبعد تقدير. وعندما عرضوا عليهم أن تكون المقابلة مع أهاليهم في اليوم التالي، أي يوم الخميس، أدركوا أن تنفيذ الإعدام سيكون يوم الجمعة عند الفجر.

–لم يكن لتانيا كوفالتشوك أهل، ومَن كان لها من الأقرباء كانوا يعيشون في أماكن نائية، في روسيا الصغرى[٩]، وهيهات حتّى أن يكونوا قد عرفوا بالمحاكمة وبالإعدام المرتقب. ولم يكن متوقّعاً إطلاقاً أن يكون هناك أهلٌ عند موسيا وفيرنر، بوصفهما مجهولين لم يصرِّحا باسميهما الحقيقيين. ولم يكن أحد بانتظار اللقاء مع والديه إلا اثنان، هما: سيرغي غولوفين، وفاسيلي كاشيرِن. وكان الاثنان كلاهما يفكِّران بهذا اللقاء برعب وحزن. ولكن لم تواتِهما الجرأة على حرمان الأهل المسنين من حديثٍ أخير، وقبلة أخيرة.

وقد تعذّب سيرغي غولوفين على وجه الخصوص بسبب هذا اللقاء المرتقب. ذلك أن حبَّه لأبيه وأمِّه كان قويّاً، وقد التقى معهما قبل مدّة قصيرة، وهو الآن مرعوب ممّا سيكون. ذلك أن الإعدام بحدِّ ذاته، بكل غرابته الرهيبة، وبجنونه الذي يشلّ الدماغ، كان في تصور

٩– روسيا الصغرى في العهد القيصري هي ما يعرف اليوم بجمهورية أوكرانيا. - م.

Twitter: @ketab_n

المخيِّلة أهون، وخُيِّل له أنه ليس رهيباً وحسب مثل هذه الدقائق المعدودة، القصيرة وغير المفهومة التي كأنها تقف خارج الزمن، كأنها خارج الحياة نفسها. كان دماغه البشري يرفض أن يفهم كيف ينظر، ماذا يفكِّر، وماذا يقول. إن أكثر الأشياء بساطة واعتيادية، أي أن يأخذه من يده فيقبِّلها ويقول: "يعطيك الصحة[10]، يا أبي»، بدا له رهيباً رهبة لا توصف في زيفها الفظيع، اللاإنساني، المجنون.

بعد إعلان الحكم لم يضعوا المحكومين في مكان واحد معاً، كما كانت تتوقع كوفالتشوك، بل أبقوا كلا منهم بمفرده. وطول الصباح، حتى الساعة الحادية عشرة، حين جاء والده، كان سيرغي غولوفين يمشي في الزنزانة على نحو مسعور، يعبث بشعر لحيته، ويقطِّب بتعاسة ويتمتم. وكان يتوقف أحيانا، وهو في عزِّ مشيه، فيستنشق ملء صدره هواء ثم ينفخه مثل مَن أمضى وقتاً طويلاً تحت الماء. غير أنه كان فيه من فائض الصحة وفتوَّة الحياة ما جعل دمه حتى في هذه الدقائق من العذابات القصوى يغلي تحت جلده فيتضرَّج خدّاه، وتشعُّ عيناه الزرقاوان وضّاءتَين وساذجتين.

غير أن كل شيء جرى على نحوٍ أفضل مِمّا توقَّع سيرغي.

فأوّل من دخل الغرفة التي جرى فيها اللقاء هو والد سيرغي، العقيد المتقاعد نيكولاي سيرغيفِتش غولوفين. كان أبيض اللون تماماً كلّه: وجهه، ولحيته، وشعره، ويداه، وكأنه تمثال من الثلج ألبَسوه ثوبَ

١٠-لا تعني: السلام عليكم، أو مرحبا، كما درج المترجمون على القول. بل هي (et-)iuvtsvardz صيغة السلام بالروسية
حرفياً الصيغة المستعملة في بلدان المغرب العربي حتى اليوم: "يعطيك الصحة"، وكذلك في كثير من أريافنا السورية: "يعطيك العافية". ـ م.

Twitter: @ketab_n

إنســان. وكان يرتدي ذلك المعطف الرسميّ العتيق نفسه، ولكنّه الآن منظَّف جيداً، تفــوح منه رائحة البنزين، وقد ثُبِتت عليه رتيبة حديدية عرضانيــاً. دخل بصرامة واستعراض، بخطوات ثابتة، متقنة. ومدّ يده البيضاء الجافَّة وقال بصوتٍ عالٍ:

ـ يعطيك الصحة، يا سيرغي!

كانــت الأم تسير خلفه وتبتسم بطريقة غريبــة. ولكنها أيضاً مدّت له يدها، وكرَّرت بصوتٍ عال:

ـ يعطيك الصحة، يا سيريوجِنْكا[١١]!

ثــم قبَّلته علــى شفتيــه وجلست صامتــة. لم تُلْـقِ بنفسهــا عليه، و لم تبكــي، و لم تصــرخ، و لم تفعل شيئــاً فظيعاً كان يتوقَّعــه سيرغي، وإنما قبَّلتــه وجلست صامتة. حتى إنها عدّلت ثوبهــا الحرير الأسوَد بيديها المرتجفتين.

لم يعــرف سيرغي أن العقيد أمضى الليلة الفائتة كلّها في مكتبه الصغير الذي أقفله على نفسه واستنفر قواه جميعاً لرسم هذا الطقس. "يجب علينــا أن نخفّف علــى ابننا الدقيقة الأخــيرة، لا أن نُثقلهــا"، ـ اتَّخذ العقيد قــراراً حازمــاً، ووزن بدقة كلَّ جملة ممكنــة في الحديث غداً، وكل حركــة. ولكنه أحيانــاً كان يخطئ ويُضيع حتّى مــا تسنّى له أن رتّبــه، فيبكي بكاء مريراً في زاوية الديوان المغطّى بمشمَّعٍ سميك. وفي

١١ــ سيريوجا وسيريوجِنكا هما تصغير اسم سيرغي، وهما أيضاً صيغة التحبُّب والتدليل من هذا الاسم. والأب هنا ينادي ابنه إلا باسمه الكامل دائماً باستثناء لحظة الوداع الأخيرة، حيث يخاطبه بـ سيريوجا، بينما تنادي الأم ابنها بأكثر صيَغ اسمه رقة ودلالاً: سيريوجِنكا. ـ م.

Twitter: @ketab_n

الصباح أوضح لزوجته كيف يجب عليها أن تتصرّف وقت اللقاء.

- المهمّ، قبِّليه واصمتي! - علّمها. - وبعد ذلك تستطيعين أن تتكلّمي، بعد مُضيّ قليل من الوقت. أمّا عندما تقبّلينه فاصمتي. لا تتكلّمي فوراً بعد أن تقبِّليه، فهمتِ؟ وإلا قلتِ ما لا ينبغي قوله.

- فهمتُ، يا نيكولاي سيرغيفِتش، - أجابت الأمّ وهي تبكي.

- ولا تبكي. أجارك الله من البكاء! فإنك ستقتلينه إذا بكيتِ، أيتها العجوز!

- ولماذا أنت نفسك تبكي؟

- معك لا بد من البكاء. يجب ألا تبكي، فهمتِ؟

- حسناً، يا نيكولاي سيرغيفِتش.

أراد في العربة أن يكرِّر نصيحته مرة أخرى، ولكنه نسيَ. فسافرا صامتين، منحنيين، كلاهما مكللان بالشيب ومسنّان، يفكّران، فيما كانت المدينة ماضية في ضوضائها المرحة. إنه أسبوع المَرْفَع(١٢)، وفي الشوارع صخب وكثير من الناس.

جلسا، واتّخذ العقيد الوضعية المقرّرة، بعد أن وضع يده اليمنى على صدره تحت طرف المعطف. جلس سيرغي لحظة واحدة ورأى عن كثبٍ وجه أمِه المجعّد، فهبَّ واقفاً.

- اجلس، يا سيريوجِنْكا، - طلبت إليه أمُّه.

١٢- عيد ديني عند المسيحيين الأرثوذكس يسبق عيد الفصح. - م.

Twitter: @ketab_n

- اجلس، يا سيرغي، - أكّد الأب.

صمتوا. وابتسمت الأم ابتسامة غريبة.

- كم سعينا من أجلك، يا سيريوجِنْكا.

- عبثاً فعلتم، يا ماما...

قال العقيد بحزم:

- كان واجباً علينا أن نفعل ذلك، يا سيرغي، لكي لا تظنّ أن والديك تخليّا عنك.

صمتوا مرة أخرى. كان مرعباً نطقُ كلمة، وكأن كل كلمة في اللغة فقدت معناها و لم تعد تعني إلا شيئاً واحداً هو الموت. نظر سيرغي إلى المعطف النظيف الذي يرتديه والده وتفوح منه رائحة البنزين، وخطر له: "ليس عنده الآن عسكري يخدمه، فهو مَن نظّفه إذاً. كيف لم أنتبه إلى ذلك من قبل، عندما كان ينظّف معطفه؟ لعلّه نظّفه في الصباح؟". وفجأة سأل:

- وكيف حال أختي؟ هل هي في صحة جيدة؟

- نينَتشكا لا تعرف شيئاً، - أجابت أمّه على عجَل.

إلا أن العقيد أوقفها بحزم:

- لماذا الكذب؟ البنت قرأت الخبر في الجرائد. دَعي سيرغي يعرف أن جميع... أقربائه... في هذا الوقت... كانوا يفكِّرون و...

و لم يستطِع أن يواصل فتوقّف. وفجأة تجعّد وجه أمِّه في الحال،

Twitter: @ketab_n

وتهدَّل، وارتعش، وصار مبللاً وهمجياً. وبجنـون حملقت عيناها الحائلتان، وأخذت أنفاسُها تعلو، وتزداد عدداً، وقِصَراً.

ـ سـ... سير... سيـ... ـ طفِقت تكرّر دون أن تحرّك شفتيها. ـ سيـ...

ـ ماما !

مشـى العقيد إلى الأمام وهو يهتزّ كلّه، بـكلِّ ثنية في معطفه الرسمي، بـكلِّ تجعيـدة في وجهه، غير مـدرك كم هو نفسه مرعـبٌ في بياض الموتى الذي يعلوه، وفي صلابته القانطة المضنية، وقال لزوجته:

ـ اصمتي ! لا تعذِّبيه! بلا عذاب! بلا عذاب! إنه أمام الموت! لا تعذِّبيه!

كانـت قد صمتت خائفة، فيما استمرّ هو يهزُّ قبضتيه المشدودتَين أمام صدره مهدِّئاً ويؤكِّد:

ـ لا تعذِّبيه !

ثـم تراجع إلى الخلـف واضعاً يده المرتجفة في صـدر معطفه الرسمي، وبشفتيه المبيضَّتين سأل بصوتٍ عالٍ، فيه تعبير عن قلق متعاظم:

ـ متى؟

ـ غداً صباحاً. ـ بشفتين مبيضّتين أيضاً أجاب سيرغي.

كانـت الأم خافضة بصرها، تلوك شفتيها وكأنهـا لا تسمع أي شيء. وفيمـا هـي مستمرة في لـوك شفتيهـا، قالت كمن سقطـت منه هذه الكلمات البسيطة والغريبة:

ـ نينَتشكا طلبت مني أن أقبِّلك، يا سيريوجِنْكا.

Twitter: @ketab_n

ـ قبِّليها عنّي، ـ قال سيرغي.

ـ حسناً. وعائلة خفوستوف أيضاً تبلّغِك السلام.

ـ أي خفوستوف؟ آ ـ ا، نعم!

فقاطعه العقيد:

ـ حان وقت الذهاب. انهضي، أيّتها الأمّ، حان الوقت.

وساعد الاثنان الأمَّ الواهنة على النهوض.

ـ ودِّعيه ! ـ أمرها العقيد. ـ ارسمي عليه إشارة الصليب.

ففعلت كل ما قيل لها. ولكنها، وهي ترسم إشارة الصليب وتقبِّل ابنها قبلة قصيرة، هزّت رأسها وأكّدت بلا وعي:

ـ كلا، ليس هكذا. كلا، كلا. وكيف لي فيما بعد؟ كيف سأقول؟ كلا، ليس هكذا.

ـ وداعاً، يا سيرغي ! ـ قال الأب.

ثم تصافحا، وتبادلا قبلة قويّة، ولكنها قصيرة.

ـ أنت... ـ بدأ سيرغي.

ـ ماذا؟ ـ سأل الأب متلعثماً.

ـ كلا، ليس هكذا. كلا، ليس هكذا. وكيف سأقول؟ ـ كررت الأم وهي تهز رأسها. وتسنّى لها أن تعود إلى الجلوس متمايلة بكل جسمها.

ـ أنت... ـ بدأ سيرغي مرة أخرى.

Twitter: @ketab_n

وفجــأة تغضّن وجهه مشفقــاً، كالأولاد، وفي الحال ترقرقت الدموع في عينيــه. وعِبر الشق المشعِّ فيهما شاهد عن كثــبٍ وجه أبيه الأبيض وفيه عينان دامعتان كعينيه.

ـ أنت، يا أبي، إنسانٌ نبيل.

ـ ماذا تقول! ماذا تقول! ـ خاف العقيد.

وفجــأة سقــط رأسه على كتف ابنه، كأنه انهــدّ. لقد كان في ما مضى أطول قامــة من سيرغي، أمّا الآن فقد بات قصير القامة، يستلقي رأسه الجــاف المكلــل بالشعر كتلــةً بيضاء علــى كتف ابنــه. وكان كلاهما صامتَــين وهما يتبــادلان القبــل بنهم: سيرغــي يقبِّل الشعــر الأبيض المنفوش، والأب يقبِّل ثوب السجن.

ـ وأنا؟ ـ فجأة نطق صوتٌ عالٍ.

التفتا، وإذا بالأم واقفة، مائلة برأسها إلى الخلف، تنظر بغضبٍ، وبحقدٍ تقريبا.

ـ ما لكِ، أيّتها الأمّ ؟ ـ صاح العقيد.

ـ وأنــا ؟ ـ قالــت وهي، تهــزّ رأسها، بتعبــيرٍ جنوني. ـ أنتمــا تتبادلان القبلات، وأنا؟ أنتم رجال، أليس كذلك؟ وأنا؟ وأنا؟

ـ ماما ! ـ اندفع إليها سيرغي.

وعندها وقع ما لا يمكن، ولا يجوز أن يُحكى.

وكانت آخر كلمات العقيد:

Twitter: @ketab_n

- أباركك قبل الموت، يا سيريوجا. فلتمُت بشجاعة، مثل ضابط.

وخرجا. على نحوٍ ما خرجا. لقد كانا هنا، ووقفا، وتكلّما - وفجأة خرجا. هنا كانت الأم جالسة، وهنا كان الأب واقفاً - وفجأة خرجا على نحوٍ ما. وحين عاد سيرغي إلى زنزانته استلقى على سريره، ووجهُه إلى الجدار، لكي لا يراه الجنود، وبكى طويلاً. ثم تعب من الدموع وغطّ في نوم عميق.

لم يأت لوداع فاسيلي كاشيرِن إلا أمّه. أمّا أبوه، وهو تاجر غنيّ، فلم يرغب بالمجيء. استقبل فاسيلي أمّه العجوز وهو يتمشّى في الغرفة ويرتعد من البرد، رغم أن الجوّ كان دافئاً بل وحارّاً. وكان الحديث قصيراً، وثقيلاً.

- ما كان الأمر يستأهل منك أن تأتي، يا ماما. إنك لن تفعلي إلا أن تعذّبي نفسك وتعذبيني.

- لِمَ هذا، يا فاسيا؟ لماذا فعلتَ هذا! يا إلهي!

وانخرطت العجوز بالبكاء، وراحت تمسح دموعها بأطراف منديلها الصوفِ الأسوَد. وعلى جَريِ العادة التي كانت عنده وعند إخوته في الصراخ على الأم التي لا تفهم شيئاً توقّف وقال بغضب وهو يرتعد من البرد:

- انظر! لقد كنت أعرف! فأنتِ لا تفهمين أيَّ شيء، يا ماما! أيَّ شيء!

- طيِّب، طيِّب، حسناً. هل أنت بردان؟

- بردان... - قاطعها فاسيلي وعاد إلى المشي وهو يرمق أمَّه بطرف عينه حانقاً.

Twitter: @ketab_n

ـ ربَّما تكون قد أُصبت بالزكام؟

ـ أُفّ، يا ماما، وأيُّ زكام هنا، ما دام...

وأشاح بيده يائساً. أرادت العجوز أن تقول: «لقد طلب أبوك منذ يوم الإثنين أن أُعِدَّ زلابية»، ـ ولكنها خافت وصاحت:

ـ لقد قلتُ له، هذا ابنٌ هذا، اذهبْ وسامحْه. كلا، عاند التيس العجوز...

ـ فليأخذْه الشيطان! أيُّ أبٍ لي هذا! مثلما كان طول حياته سافلاً، ظلَّ سافلاً.

ـ فاسِنْكا، تقول هذا عن أبيك! ـ واشرأبَّت العجوز بقامتها كلِّها إعراباً عن اللوم.

ـ عن أبي.

ـ عن أبيك الذي ولدك!

ـ أيُّ أب ولدني هو.

كان الموقف همجياً وسخيفاً. وبينما الموت على مقربة منه، إذا بشيء صغير، فارغ، لا حاجة إليه، شرع يكبر، وطقطقت الكلمات مثل قشر جوزة فارغة تحت القدم. وبسبب الحزن، بسبب انعدام الفهم أبداً، ذلك الانعدام الذي كان مدى الحياة جداراً يحول بينه وبين ذويه، انعدام الفهم الذي كان، حتى في هذا الوقت، في الساعة الأخيرة قبل الموت، يحملق على نحوٍ همجي بعينيه الصغيرتين الغبيتين، صرخ فاسيا باكياً تقريباً:

Twitter: @ketab_n

ـ فلتفهمـي أنتِ أنهـم سيشنقونني! سيشنقونني! هـل تفهمين أم لا؟ سيشنقونني!

ـ لو أنك لم تؤذِ الناس، لَما كانوا... ـ صاحت العجوز.

ـ يـا إلهي! ما هذا! إن هذا لا يحدث حتى عند الوحوش. هل أنا ابنك أم لا؟

وانخـرط بالبكاء وجلس في الزاوية. وانخرطت العجوز أيضاً بالبكاء في زاويتهـا. كانـا عاجزين عن الذوبان معاً ولـو لرفّة جفن في شعور من الحب يواجهان به رعـب الموت المرتقب. يبكيان بدموعٍ لا تدفِئ القلب. إنها دموع الوحدة.

قالت الأم:

ـ هـا أنت تقول هل أنا أمّك أم لا، وتلومني. ولكنني خلال هذه الأيام شبتُ تماماً، وصرت عجوزاً. وأنت تقول وتلومني.

ـ طيِّـب حسناً، حسناً، يا مامـا! سامحيني. لقد آن لك أن تذهبي. قبِّلي عنّي إخوتي هناك.

ـ ألستُ أمّاً؟ ألستُ متحسِّرة؟

وأخـيراً خرجت. كانت تبكي بمـرارة وهي تمسـح دموعها بأطراف منديلها، لا ترى الطريق. وكلّما ابتعدت عن السجن ازدادت سخونةُ مـا تذرفه من دموع. فمضت عائدة إلى السجن. ولكنها ضاعت تماماً في هـذه المدينة التي ولدت وترعرعت وشاخت فيها. وقادتها قدماها إلى بستـان صغير قاحل، فيـه بضعة أشجار هرِمـة مكسَّرة، وجلست

Twitter: @ketab_n

على مقعد مبلّلٍ ذاب ثلجه. وفجأة أدركت: غداً سيشنقونه.

هبّت العجوز واقفة، وأرادت أن تركض، وفجأة أصاب رأسها دَوارٌ قويٌّ فسقطت. كان جليد الدرب قد ذاب قليلا، وكان زلقاً، فلم تستطع العجوز النهوض، فراحت تدور حول نفسها، تحاول النهوض على مرفقيها وركبتيها فتنقلب على جنبها كل مرة. وانزلق المنديل الأسوَد عن رأسها كاشفاً على قفا رأسها صلَعاً وسط شعرها الأشيب الوسخ. ولسبب ما خُيِّل لها أنها على مائدة عرس، إنه زواج ابنها، وقد شربت نبيذاً وثملت ثملاً شديداً.

- لا أستطيع. أُقسم بالله، لا أستطيع! - راحت ترفض وهي تهزّ برأسها، وتحبو على السطح الجليدي البليل، وظلوا يصبّون لها النبيذ، وظلّت تشرب.

وبات يؤلمها قلبُها من ضحك السُّكْر، ومن الضيافات، ومن الرقص الهمجي، - وظلّوا يصبّون لها النبيذ. ظلّوا يصبّون.

٦. الساعة تركض

—في القلعة، حيث كان الإرهابيون المحكومون محبوسين، كان يوجد برجُ أجراسٍ فيه ساعة قديمة. كلَّ ساعة، كلَّ نصف ساعة، كل ربع ساعة كانتَ تُصدر رنيناً مديداً، رنيناً كئيباً يذوب في الأعالي ببطء مثلَ نداء بعيد، شاكٍ تطلقه الطيور المهاجرة. في النهار كانت هذه الموسيقى الغريبة والكئيبة تضيع في ضجيج المدينة والشارع الكبير المليء بالناس الذي يمتدُّ بمحاذاة القلعة. صخبُ عربات تُرام، وقعُ حوافر خيل، صراخ سيارات تتمايل بعيداً إلى الأمام. جاء إلى أسبوع المرفع من ضواحي المدينة عدد كبير من الحوذيّين الفلاحين في

Twitter: @ketab_n

ثيـاب العيد المزركشة، وكانت الأجراس الصغيرة في أعناق خيولهم الصغـيرة الحجم تملأ الجـوَّ بالرنين. والحديث الـذي كان يدور بينهم حديـث سُكْرٍ، حديثٌ عيدٍ مرِح. وكان هنـاك انسجام كبير بين هذه الفوضى الكبـيرة من الأصوات وبدايات ذوبان ثلـوج الربيع، وبُرَك المـاء الصغيرة عند حوافّ البيوت، والأشجـار التي اسودّت فجأة في الحدائـق الصغيرة. وكانت تهبّ من البحـر دفقات عريضة، رطبة من الهـواء الدافئ، ويُخيَّل أنه كان في مقـدور المرء أن يشاهد بعينيه كيف كانت جزيئـات الهواء الغضّة تتطاير محلِّقة متحابّـة نحو آفاق حرّةٍ لا حدود لها، وتضحك وهي تطير.

في الليل كان الشارع يستسلم للهدوء في الضوء الوحداني المنبعث من شموس كهربائية كبيرة. والقلعة الضخمـة، التي لم يكن في جدرانها الملساء ضوء واحد، كانت في ذلك الوقت تغرق في الظلام والسكينة، مطوِّقة نفسها بحزام من الصمت والثبات والظلمة، يفصلها عن المدينة الحيّـة، المتحركة أبداً. وعندئذ كانت تـكّات الساعة تغدو مسموعة. كان لحنٌ غريب لا تعرفه الأرض يولَد وينطفئ ببطء وكآبة في الأعالي. ثـم يعـود ليولد من جديد، يخـدع السمع، ويرنّ شاكيـاً، ثم بهدوء-يتقطّـع-ويرنّ من جديد. ومثل قطـرات بلّورية، شفّافة، كبيرة كانت الساعات والدقائق تتساقط من علوّ مجهول في كأس معدنية تبعث رنيناً خفيضاً. أو كأن طيوراً مهاجرة تطير.

وحْـدَه هـذا الرنين في الليل والنهار كان يترامـى إلى الزنزانة التي كان المحكومـون محبوسين فيهـا كلٌّ بمفرده. وعبر السطـح، وعبر سماكة الجـدران الحجرية كان الرنين يتسرّب على نحوٍ غـير ملحوظ ليعود فيأتـي ثانيـة وعلى نحوٍ غير ملحـوظ أيضاً. كانوا ينسونـه أحياناً ولا

Twitter: @ketab_n

يسمعونه؛ وفي بعض الأحيان كانوا ينتظرونه بيأس، وهم يعيشون بين رنّة ورنّة غير مصدِّقين السكون. كان السجن مخصصاً لعتاة المجرمين فقط، وكانت تُطبَّق فيه قواعد من نوع خاص، قواعد صارمةٌ، شديدة وقاسية مثلَ زاوية جدار القلعة. وإذا ما كان في الظلم نُبْلٌ، كان نبيلاً ذلك السكون الأصمّ، الميت، الأخرس بمهابة، ذلك السكون الذي يُسمَع فيه الحفيف وأرقّ الأنفاس.

وفي هذا السكون المهيب الذي يهدهده رنين الدقائق الهاربة الحزين كان المعزولون عن كل ما هو حيٌّ، أولئك الأشخاص الخمسة، المرأتان والرجال الثلاثة، ينتظرون قدوم الليل، والفجر والإعدام، وكان كلٌّ منهم يستعدُّ لاستقباله على طريقته.

٧. لا وجود للموت

كانت تانيا كوفالتشوك، مثلما هي في حياتها كلّها، لا تفكر إلا بالآخرين وليس بنفسها أبداً. كذلك كانت الآن أيضاً منذورة للآخرين فقط، وتشتاق إليهم بقوّة. كانت تتصوَّر الموت بقدْر ما هو شيء معذِّب، ينتظر سيريوجا غولوفين وموسيا والآخرين، وكأنما لا علاقة له بها هي نفسها إطلاقاً.

ومكافأةً لنفسها على ما أرغمت نفسها عليه من حزم في المحكمة، كانت تبكي ساعات طويلة مثلما تُحسِن البكاءَ النساءُ المسنّات اللواتي عرفن كثيراً من المصائب، أو مثلما تُحسِن البكاءَ مَن هنَّ شابّات ولكنهنّ في غاية الشفقة وغاية الطيبة. واحتمال ألا يكون عند سيريوجا تبغٌ، وأن يكون فيرنر محروماً من شايه الثقيل المألوف، وهذا بالإضافة إلى أنهما يجب أن يموتا، كان يعذِّبها ربّما ليس بأقلَّ ممّا تعذبها فكرة

Twitter: @ketab_n

الإعدام نفسها. فالإعدام شيء حتمي، بل وغريب عنها ولا يستحق التفكير به، أمّا ألا يكون لدى الإنسان تبغ، بل وقبل الإعدام أيضاً، فإن ذلك شيء لا يطاق إطلاقاً. وتذكّرت واسترجعت تفاصيل غالية عليها من العيش المشترك، فتجمّدت من الخوف وهي تتخيَّل لقاء سيرغي مع والديه.

لقد خالجها إشفاق خاص على موسيا. فقد بات يخيَّل لها منذ مدة طويلة أن موسيا تحب فيرنر. وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن صحيحاً البتّة، فإنها مع ذلك كانت تحلم لهما كليهما بشيء طيِّب ومشرق. يوم كانت موسيا طليقة كانت تلبس خاتماً من الفضة عليه رسمُ جمجمة وعظم محاطَين بإكليل من شوك القتاد. وكثيراً ما كانت تانيا كوفالتشوك تنظر بألم إلى هذا الخاتم بوصفه رمزاً لهلاكٍ محتوم، وكانت بين المزاح والجد تتوسَّل إلى موسيا كي تخلعه.

ـ إهديني إيّاه، ـ توسّلتْ إليها.

ـ كلا، يا تانتشكا، لن أُهديك إيّاه. فقريباً سيكون في إصبعك خاتم آخر.

ولسببٍ ما كانوا هم، بدورهم، يفكِّرون أنها سوف تتزوّج حتماً وفي وقت قريب. وكان هذا يضايقها، فهي لم تكن راغبة بأيِّ زوج. وبينما كانت تتذكّر أحاديثها هذه الشبيهة بالمزاح مع موسيا، وأن موسيا مقضيٌّ عليها الآن بالموت حقّاً، كانت تغصّ بالدموع وحنان الأمومة. وكانت كلّما دقّت الساعة ترفع وجهها المشبع بكاء وتتنصّت لتعرف كيف هم هناك، في تلك الزنزانات، يتلقّون نداء الموت، هذا النداء المديد، الملحّ.

•

Twitter: @ketab_n

وكانت موسيا سعيدة.

كانـت تعقد يديها خلـف ظهرها وهـي في ثوب تلبسـه السجينات كبير عليهـا، يجعلها شبيهة شبهـاً غريباً برجل، بصبـي مراهق يلبس ثوبـاً ليس له، وتمشـي مشية متّزنة لا تتعـب. كان كُمّا الثوب طويلين عليها، فطوتهمـا، ومن فتحتيهما الواسعتين بـرزت يداها النحيلتان، الطفليتـان تقريبـاً، الهزيلتان، بروزَ ساق زهرة مـن فتحة إبريق قبيح، وسخ. وكان القماش الخشن يحكّ رقبتها البيضاء الدقيقة ويشوِّكها، فيمـا كانت موسيا في حالات نادرة تحـرِّر حنجرتها بحركة من يديها الاثنتـين، وبحـذر تتلمّس بإصبعها المـكان الذي احمـرَّ وازرقَّ فيه جلدُها الملتهب.

كانت موسيا تمشي وتعتذر أمام الناس وهي تضطرب وتتضرّج حمرة. كانـت تعتذر لأنهـا، وهي الشابـة، الضئيلة الشأن، التـي لم تقدّم إلا القليـل وليست بطلة البتة، سوف يذيقونها ذلك الموت الجليل والرائع الـذي لقيَه قبلها أبطال وشهداء حقيقيـون. كانت تتصوَّر، وهي التي تؤمـن إيماناً راسخـاً بطيبة الناس وبالشفقة والحـب، كم الناس قلقون عليها الآن، كم هم يتألّمون عليها، وكم يشفقون. وكان ذلك يُخجلها حتـى الاحمرار. لكأنها، وهي تموت علـى حبل المشنقة، كانت تقوم بفعل مربك عظيم.

لقـد طلبت من محاميها في لقائها الأخـير معه أن يحصل لها على سُمّ، ولكنها سرعان ما استدركت: ولكن ماذا إذا ما ظنَّ هو والآخرون أنها تفعل ذلك تصنّعاً أو بدافع الجبن، وبدلاً من أن تموت بتواضع وبطريقة لا تلفت الانتباه فإنها ستثير ضجة أكثر قوّة؟ لذلك أردفت على عجَل:

Twitter: @ketab_n

ـ كلا، لا حاجة إلى ذلك.

فهـي لم تكن الآن راغبـة إلا بشيء واحد هو أن تشـرح للناس وتقدّم لهم برهاناً دقيقاً على أنها ليست بطلة، وأن الموت ليس رهيباً إطلاقاً، ولا داعيَ لأن يشفقـوا عليها، ويهتمّوا بها. أن تشرح لهم أنها ليست مذنبة على الإطلاق في كونهم سوف يذيقونها، وهي الشابة، الضئيلة الشأن، هذا النوع من الموت، ويثيرون بسببها كلَّ هذا الضجيج.

وبوصفهـا إنساناً يتهمونها حقاً، كانت موسيا تبحث عن مسوِّغات، وتحـاول أن تجد أيَّ شـيء يرفع من شأن تضحيتهـا ويضفي على هذه التضحية قيمة حقيقية، فتقول في سرِّها:

ـ بالطبع أنا فتيَّة، وكان يمكن لي أن أعيش طويلاً بعدُ، ولكنْ...

ومـا إن يخفت ضوء الشمعة تحت أشعـة الشمس المشرقة حتى يتراءى لهـا كلٌّ مـن صباها وحياتهـا باهتاً وقاتمـاً أمام ذلك الشـيء العظيم، الوضّاء الذي سوف يكلِّل رأسها المتواضع بهالة من نور. لا عذر.

ولكـنْ، لعل ذلـك الشيء الخاص الـذي تحمله في نفسهـا هو الحب اللامحدود، الاستعداد اللامحدود لاجـتراح المأثرة، الازدراء اللامحدود للذات؟ فهي حقّاً ليست مذنبة في أنهم لم يسمحوا لها بأن تقوم بكل مـا كانت تستطيع وتريـد القيام به. لقد قتلوها علـى عتبة المعبد، عند قاعدة المذبح.

ولكـنْ إذا كان الأمـر كذلك، إذا كانت قيمة الإنسـان لا تتأتّى ممّا قام بـه فقـط، بل وممّا كان يريـد أن يقوم به أيضاً، فإنهـا عندئذ... عندئذ تستحقّ إكليل الشهادة.

Twitter: @ketab_n

«أحقّـاً. ـ فكّرت موسيا بخجـل، ـ أحقاً جديرة أنا؟ جديرة بأن يبكي عليَّ الناس، وأن يقلقوا، عليَّ أنا، هذه الصغيرة الضئيلة الشأن؟»

وتأخذهـا فرحة لا توصف. ما من شكوك، ولا تردُّد، لقد قُبِلَت. إنها تنضـمّ شرعاً إلى صفوف أولئك الصُّفـوة الذين يمضون منذ الأزل عبر المحرقـة، والتعذيب، والإعدام إلى أعالي السمـاء. إلى النور والسكينة وإلى سعـادة بلا ضفـاف، مشعشعة بهدوء. كأنهـا كانت قد ابتعدت عـن الأرض واقتربت من الشمس التي لا تُرى، شمسِ الحقيقة والحياة وهي تحلِّق في نورها دون جسد.

«وهذا هو الموت. فأيُّ موت هذا؟» ـ تفكِّر موسيا بهناء.

ولو اجتمـع إليها العلمـاء، والفلاسفة، والجلادون مـن جميع أرجاء الدنيا وصفّوا أمامها الكتب، والمشـارط، والبلطات، وحبال المشانق وراحـوا يُثبِتون لها أن الموت موجود، وأن الإنسان يموت ويُقتَل، وأنه لا وجود للخلـود، لَما أقنعوها. إذ كيف لا يكـون الخلود موجوداً إذا كانـت هي خالدةً منذ الآن؟ فعـن أيِّ خلودٍ بعدُ، عـن أيِّ موتٍ بعدُ يمكن الكلام ما دامت هي منذ الآن ميتة وخالدة، حيّة في الموت مثلما كانت حيّة في الحياة؟

ولو أنهـم جاؤوا إليها في زنزانتها حامليـن نعشها وفيه جسدها وهو يتفسَّخ، فملؤوا الزنزانة برائحته النتنة، وقالوا:

ـ انظري ! هذه أنت !

لنظرت وأجابت:

ـ كلا، هذه ليست أنا.

Twitter: @ketab_n

وإذا ما راحوا يحاولون إقناعها، وهم يخوِّفونها بمنظر التفسّخ الشنيع، بأن هذه هي، أجل هي! ـ لأجابت موسيا مبتسمة:

ـ كلا. بـل أنتـم من تظنون أن هذا أنـا، إلا أن هذا ليس أنا. بل أنا هذه التي تتكلَّمون معها، فكيف أستطيع أن أكون هذا؟

ـ ولكنك سوف تموتين وتصبحين هذا.

ـ كلا، إنني لن أموت.

ـ سوف يشنقونك. ها هي الأنشوطة.

ـ سوف يعدمونني، ولكنّي لن أموت. كيف أستطيع أن أموت ما دمت خالدة منذ الآن؟

ولكان تراجع العلماء والفلاسفة والجلادون وهم يقولون مرتعدين:

ـ لا تلمسوا هذا المكان. إنه مكان مقدَّس.

بمَ كانـت موسيا تفكِر أيضاً؟ إنها كانت تفكِّـر بأشياء كثيرة لأن خيط الحياة ما كان في نظرها ينقطع بالموت، بل يستمر ينجدل بهدوء وأناة. كانت تفكِّر بالرفاق، وبأولئك البعيدين الذين يعيشون إعدامهم بكآبة وألم، وبالقريبـين الذيـن سيصعدون معهم إلى منصّـة الإعدام. كانت تتعجَّب من فاسيلي: مـا الذي أخافه كل هذا الخوف، وقد كان دائماً شجاعـاً جداً، بل وكان قـادراً على أن يمزح مع المـوت. فمنذ صباح يـوم الثلاثاء، عندمـا كانوا، هـم وفاسيلـي، يركِّبون علـى أحزمتهم الأجهـزةَ الناسفـة التي كان يجب بعـد بضع ساعـات أن تنفجِر بهم بالذات، ارتجفت يدا تانيا كوفالتشوك من الاضطراب فكان لا بدَّ من

Twitter: @ketab_n

استبعادها. أمّا فاسيلي فكان يمزح، ويتبسّط، ويُكثر من الحركة، بل وكان بعيداً عن الحذر، فقال له فيرنر:

- لا لزوم للاستهتار بالموت.

فما الذي أخافَه الآن؟ غير أن هذا الخوف غير المفهوم كان شديد الغرابة عن نفس موسيا، فكفّت سريعاً عن التفكير فيه والتفتيش عن سببه، إذ فجأة اشتدّت بها رغبة اليائسين في أن ترى سيريوجا غولوفين وتشاركه الضحك من شيء ما. ثم فكّرت، وبمزيد من اليأس تمنّت أن ترى فيرنر وأن تقنعه بشيء ما. وفيما هي تتصوّر أن فيرنر يمشي إلى جانبها مشيته الدقيقة، الموزونة التي تغرس كعبيه في الأرض، قالت له موسيا:

- كلا، أيّها الغالي فيرنر، كلُّ هذا أشياء تافهة، لا أهمية لها البتّة، سواءُ أقتلتَ ن ن أم لا. إنك ذكيّ، ولكنك تتصرّف وكأنك تلعب لعبتك بالشطرنج: كأنك تربح بيدقاً تلو بيدق، ثم تحرز النصر. المهم هنا، يا فيرنر، أننا نحن بالذات مستعدّون للموت. هل تفهم؟ إذ ماذا يظن هؤلاء السادة؟ هم يظنون أنه ما من شيء أرهب من الموت. هم أنفسهم من اختلقوا الموت، وهم أنفسهم يخافونه ويخوّفوننا به. حتى إنني كنت أتمنّى أن أخرج بمفردي لأقف في مواجهة لواء كامل من الجنود وأبدأ بإطلاق النار عليهم من مسدّس براوننغ. فلأكنْ بمفردي، وليكونوا آلافاً، ولا أقتل أحداً منهم. هذا هو الشيء الهام، أن يكونوا آلافاً. إذ عندما يقتل آلالافُ شخصاً واحداً، يكون معنى ذلك أن الواحد هو الذي انتصر. هذه هي الحقيقة، يا فيرنر، أيُّها الغالي.

غير أن هذا أيضاً كان واضحاً وضوحاً جعلها لا ترغب في أن تواصل

Twitter: @ketab_n

إثباتـه، ولعلّ فيرنر نفسه قد فهمه الآن. وربّما لم يرُق لفكرها أصلاً أن يتوقّف على شيء واحد، فكان مثل طائر خفيف في تحليقه، يرى آفاقاً بـلا ضفاف، ويحيط بناظره الفضاءَ كلّـه، وكلَّ بهجة الزرقة الحنون، الرؤوم. كانت الساعة لا تتوقف عن الرنين، تهدهد السكون الأصم؛ وكانت الأفكار تصبّ في هذا الصـوت المتناغم، الرائع البعيد، وتبدأ بالرنـين أيضـاً. فكانت الصـور المنزلقة بيسـر تغدو موسيقـى أيضاً. وكأن موسيـا كانـت مسافـرة إلى مكان ما ذاتَ ليلـة هادئة، مظلمة، عبر طريـق عريضة مستويـة، في عربةٍ تخفـق نوابضُهـا اللينة، وترنّ أجراسها الصغيرة. وقد تراجعـت المخَاطر والمخاوف جميعاً، وذاب الجسد التعـب في الظلام، وكان الفكر الفرِح في تعبه يبدع على مهلٍ صـوراً ساَطعة، ويتمتع بألوانهـا وطمأنينتها الهادئة. وتذكرت موسيا أصدقاءهـا الثلاثـة الذين شُنقـوا قبل مدة قصـيرة، وكانت وجوههم صافيـة ومنشرحـة وقريبة، أقـرب من وجـوه أولئك الذين مـا زالوا أحياء. في غمرة هذا الفرح يفكر الإنسان في الصباح ببيت أصدقاء له سيذهب إليه في المساء والتحيُة تعلو شفتيه الضاحكتين.

لقـد تعبت موسيا من المشي تعباً شديـداً. فاستلقت على السرير بحذر واستمـرت تحلم بعينين مغمضتين قليـلاً. كانت الساعة لا تتوقف عن إطـلاق رنين مبهَـم، تهدهد السكـون الأخرس، تغنّـي في شواطئها الرنانة صورٌ بهيجةٌ طافية بهدوء. وفكرت موسيا:

«أحقـاً هـذا هو الموت؟ يا إلهي، ما أروعَه! أم تُرى هي الحياة؟ لا أعرف، لا أعرف. سأرى وأسمع».

منـذ مدة طويلة، منـذ أيام الاعتقـال، بـدأ سمْعُها يتخيَّل. إنـه سمْعٌ موسيقـي جداً، تشحذه السكينة التي يبدع في ظلها لوحات موسيقية

Twitter: @ketab_n

كاملـة من ومضـات الواقع الشحيحة، وفي ظـل خطوات الحرس في الممر، ورنين الساعة، وحفيف الهواء على السطح الحديدي، وصريف مصبـاح الشـارع. في البداية كانـت موسيا تخاف تلـك اللوحات، وتبعدها عن نفسها مثل هلوَسات مرَضية، ثم أدركت أنها هي نفسها سليمة، وليست مصابة بأي مرض، فراحت تستسلم لها باطمئنان.

وإذا بهـا الآن فجـأة تسمع بصفاء ووضوح كاملـين أصوات موسيقا عسكرية. فتحَتْ عينيها بذهول، ورفعت رأسها قليلاً فرأت الليل وراء النافذة، والساعة ترنّ. «مرّة أخرى، إذاً!» ـ فكّرت بهدوء وأغمضت عينيها. ومـا إن أغمضتهما حتى عـادت الموسيقى تعزف من جديد. كانـت تسمع بوضوح خروجَ جنود مـن وراء زاوية المبنى، من الجهة اليمنـى، خروج لواء كامـل، والجنود يمرّون بمحـاذاة النافذة. كانت أقدامهـم تدقّ الأرضـ المتجمّدة بإيقاع رتيـب: واحد ـ اثنان! واحد ـ اثنـان! ـ بـل وكان مسموعـاً صريف جلد جزماتهـم أحياناً، وفجأة تنزلق قدم أحدهم قليلاً ثم لا تلبث أن تعتدل. ويزداد اقتراب موسيقى احتفالية عسكرية لا تعرفهـا إطلاقاً، ولكنها عالية جداً ومرحة. يبدو أن في القلعة عيداً ما.

ها هـي الفرقة الموسيقيـة تصبح قبالـة نافذتها، وتمتلـئ زنزانتها كلّها بأصـوات مرحـة، موقّعة متعددة بانسجام. كان أحـد الأبواق كبيراً، نحاسياً، شديد النشاز، تارة يتأخّر، وتارة يتعجّل على نحو مضحك. وتشاهـد موسيا الجنـدي الصغير الذي ينفخ في هـذا البوق، وسحنته الدؤوبة، فتضحك.

يبتعد كل شـيء. تتجمّد الخطوات: واحد ـ اثنان! واحد ـ اثنان! ومن بعيـد تزداد الموسيقى جمالاً، ومرحاً. ومرّة بعد مرّة يرفع البوق صوتاً

Twitter: @ketab_n

نحاسياً بفرح نشاز، وينطفئ كل شيء. ومرة أخرى تعود ساعة البرج إلى الرنين، ببطء، وكآبة، تهدهد السكون بالكاد.

«لقد رحلوا!»، تفكر موسيا بأسىً خفيف. إنها تتحسّر على الأصوات التي مرّت، والتي كانت مرحة ومضحكة جداً. إنها تتحسّر حتى على الجنود الصغار الذين مروا، لأن هؤلاء الدؤوبين، بأبواقهم النحاسية، وجزماتهم التي تصرِف، مختلفون تماماً عن أولئك الذين تتمنّى أن تطلق عليهم النار من البراونغ.

- هيّا، مزيداً من الموسيقى! - ترجوهم بلطف. فيأتون مرة أخرى. ينحنون عليها، يحيطون بها مثلَ غيمة شفّافة ويرفعونها إلى الأعلى، إلى حيث تحلّق طيور مهاجرة وتزعق مثل المنادين. إلى اليمين، إلى اليسار، إلى فوق، إلى تحت، هكذا تزعق مثل المنادين. طيور تنادي، تبشِّر، تعلن عن طيرانها إلى بعيد. وتخفق بأجنحتها بحركة واسعة، ويحملها الظلام مثلما يحملها النور أيضاً، ومن الأسفل تتلألأ المدينة المشعشعة وتنعكس زرقاء على صدورها البارزة التي تشقّ الهواء. وتزداد دقّات قلب موسيا انتظاماً، وتزداد أنفاسها هدوءاً وانخفاضاً. إنها تستسلم للنوم. وجهها تعِبٌ، شاحب؛ تحت عينيها دائرتان، ويداها البضّتان شديدتا الأنوثة والنحول كأنهما يدا طفلة صغيرة، ولكنّ على شفتيها ابتسامة. غداً، عندما تشرق الشمس سيكون هذا الوجه البشري قد تشوّه بتجعُّدات غير بشرية، وسيكون دماغها قد احتقن بدم كثيف، وستخرج عيناها المزجّجتان من محجريهما ، - أمّا اليوم فهي نائمة بهدوء، تبتسم في خلودها العظيم.

لقد غفت موسيا.

Twitter: @ketab_n

السجن تـدور فيه عجلة حياته الخاصة، تـدور صمّاء ومرهفة، عمياء وثاقبـة النظر، مثل القلق الأبدي نفسه. هناك من يمشون في مكان ما، هناك من يتهامسون عن مكان ما. ثمة صليل بندقية في مكان ما. يبدو أن هنـاك من صرخ. وربما لم يصـرخ أحد، وما ذلـك إلا تخيُّل تسبِّبه السكينة.

ها هو بـاب الكوّة في الباب يسقط منفتحـاً دون ضجيج، فيظهر في فراغها القاتم وجهٌ قاتم، له شاربان. تحملق عيناه وتحدِّقان بموسيا طويلاً وباستغراب، ثم يختفي الوجه من دون ضجيج، مثلما ظهر.

ساعـة البرج تـرنّ وتغنّي طويلاً، وبعـذاب. كأن هـذه الساعة المتعَبة تحبـو صاعدة جبلاً عالياً نحو منتصـف الليل، والصعود يزداد صعوبة وعسـراً. ثم تسقط الساعة، تنزلق، تطـير بأنين إلى تحت، ومرّة أخرى تعود تحبو بعذاب نحو ذروتها السوداء.

ثمّـةَ من يمشون في مكان ما. هناك مـن يتهامسون في مكان ما. إنهم يجهّزون الخيول بعربات سوداء ليس فيها مصابيح.

٨. هناك موت، وهناك حياة

لم يفكـر سيرغي غولوفين بالمـوت يوماً، وكأنه شـيء غريب عنه ولا يخصّـه إطلاقا. لقد كان فتى مرحاً، متين البنيـة، وافر الصحة، يتمتّع بهـدوءٍ وصفـاءِ إقبال على الحيـاة يجعل كلّ ما هـو رديء وضارٍّ من أفـكارٍ أو مشاعر تراوده يختفـي غير مخلِّف أيَّ أثر فيـه. ومثلما كان يلتئـم عنده كل أنواع الندوب والجـروح والإبر، كذلك كان لا يلبث أن يطرح في الحال كل ما هو ثقيل يجرح الروح، فيزول. وكان يضفي علـى أيِّ قضية أو حتّى تسلية، سواء أكان ذلك صورة فوتوغرافية، أو

Twitter: @ketab_n

درّاجـة هوائية أو إعداداً لعمليـة إرهابية نفس القدْر من الجدية الهادئة والمتفائلـة. عنده كلٌ شيء في الحياة مرِح، كل شيء في الحياة هامّ، كل شيء يجب أن يُعمَل بإتقان.

وكان يعمل كلَّ شيء بإتقان. فكان يُحسِن التحكُّم بالشراع على نحوٍ رائـع، ويرمي من المسدَّس بشـكل بديع. وكان ثابتاً في الصداقة، كما في الحب، ويؤمن بـ «كلمة الشرف» إيمان المتعصّبين الغلاة. كان رفاقه يضحكـون منه لأنه لـو أن رجلاً في المباحث، أو مخـبراً، أو جاسوساً مكشوفـاً أقسـم له بشرفه على أنه ليس رجـل مباحث لصدّقه سيرغي وشدَّ على يده كرفيق. عيبه واحد هو أنه كان واثقاً من أنه يغنِّي جيّداً، بينمـا لم يكن له أدنى نصيب من الأذن الموسيقيـة، وكان صوته منفِّراً ونشـازاً حتى في إنشاد الأغاني الثورية؛ وكان يزعل عندما يضحكون من غنائه.

ـ إمّا أنتم حمير كلُّكم، وإمّا أنا حمار، ـ كان يقول بجدية وانزعاج.

وبهذه الجدية نفسها كان الجميع يفكرون قليلاً ثم يقررون:

ـ أنت الحمار، هذا مسموع في صوتك.

–إلا أنهـم كانوا يحبّونه على هذا النقص الـذي يصادَف أحياناً عند الناس الطيِّبين، بل وربّما أكثر من حبِّهم إيّاه على خصاله الحميدة.

لم يكـن يخاف المـوت ولا يفكِّر به. وهذا ما جعلـه في ذلك الصباح المشؤوم، قبل خروجه من شقة تانيا كوفالتشوك، يأتي وحده على طعام الإفطار بشهيّـة، كما ينبغي، فيشرب كأسين مـن الشاي مخلوطين إلى

Twitter: @ketab_n

النصف بالحليب، ويأكل قطعة كاملة من خبز الخمسة كوبيكات[١٣].
ثم ينظر بأسى إلى قطعة الخبز التي لفيرنر ويقول:

ـ وأنت، ما لك لا تأكل؟ كُلْ، يجب عليك أن تأكل.

ـ لستُ راغباً.

ـ إذا فإني سآكلها أنا. حسناً؟

ـ يا للشهية التي عندك، يا سيريوجا.

وبدلاً من الجواب ملأ سيرغي فمه، وغنّى بصوتٍ نشاز أصمّ:

يرفرف فوقنا شرُّ الزوابع

بعد الاعتقال كان سيريوجا على وشْك أن يصاب بالاكتئاب بسبب سوء تنفيذهم، ولأنهم أخفقوا، غير أنه قال في سرِّه: «هناك الآن شيء آخر يجب أن نُحسِن عمْلَه، هو الموت»، ـ فابتهج. والغريب أنه منذ صباحه الثاني في القَلعة بدأ يمارس الرياضة وَفق برنامج كان مولعاً به، عقلانيّ إلى أبعد حدّ، وضعه ألماني اسمه ميوللر. فكان يخلع ثيابه، ويجعلَ الحارس يتعجَّب متوجِّساً وهو يراه يطبِّق التمارين الثمانية عشرة التي ينصّ عليها البرنامج. غير أنه كان يطيب له، كداعية لبرنامج ميوللر، أن يرى الحارس يراقبه، وربّما يتعجَّب من فعله. ومع أن سيريوجا كان يعرف أنه لن يتلقّى جواباً فقد قال للعين التي تحملق في الكوّة:

ـ هذا، يا أخي، يقوِّي البدن. ليتكم تطبِّقون هذه التمارين في لوائكم

١٣ــ قطعة خبز (صمّون) مخروطية منفوخة تكفي عدة أشخاص. ـ م.

Twitter: @ketab_n

،ـ صـرخ ناصحاً إيّاه بإيجاز لكي لا يخيفـه، و لم يكن يخطر بباله أن الجندي يَعدُّه مجرَّد مجنون.

بدأ الخوف من الموت يظهر عنده تدريجياً، وعلى شكل دفعات، وكأن هناك من يأتي ويضربه بكل ما أوتيَت قبضتُه من قوّة على قلبه من تحت. والأرجـح أن الضربة تكون مؤلمة أكثر مما هي مخيفة. ثم يطوي النسيان هـذا الإحساس، ولكنه بعد بضع ساعـات يعود من جديد، وكلَّ مرة يغدو هـذا الإحساس أطول مدى وأكثر قوّة. وبوضوح يشرع باتّخاذ ملامحَ عكِرةٍ هي ملامح خوف كبير لا يطاق.

«أحقّاً أنا أخاف؟ ـ فكّر سيرغي متعجباً. ـ يا لها من سخافات أيضاً!».

إن مـن كان خائفـاً ليـس هو، بل مـن كان خائفاً هو جسمـه الفتيّ، المتـين، القويّ الـذي لم يتمكن من خداعه لا برياضـة الألماني ميوللر، ولا بالتدليك البارد. فكلما بـات الجسم أشدَّ متانة، وأكثر طراوة بعد المـاء البارد باتت الأحاسيس بلحظة الخـوف أكثر حدَّة وألماً لا يطاق. فعندمـا كان طليقاً، كان في تلك الدقائق بالضبـط ، في الصباح، بعد النوم العميق والتمارين الرياضية، يشعر بأن درجة تفاؤله وقوَّته ترتفع على نحوٍ خاص، ويتبدّى لـه هذا الخوف الحادُّ وكأنه خوفُ شخص آخر. وقد انتبه إلى ذلك وقال في نفسه:

«يـا للغباء، أيها الأخ سيرغي. إن من يريد أن يهوِّن الموت على جسمه يكون عليه أن يعمل على إضعافه، وليس على زيادة قوّته. يا للغباء!».

وهكذا تخلّى عن ممارسة الرياضة وعن التدليك. ولتفسير ذلك وتبريره أمام الجندي صاح به قائلاً:

Twitter: @ketab_n

ـ لا تُلـقِ بـالاً إلى أنني تركـت التمارين. فهـذا التدريب جيّـد، أيها الأخ. صحيـح أنه لا يصلح لمقبل على الشنق، ولكنه جيد جداً لجميع الآخرين.

حقـاً، كأن الأمر بات أهون عليـه الآن. فحاول أن يقلل من أكله أيضاً من أجـل بلوغ مزيد من الضعـف، إلا أن شهيَّته، رغـم انعدام الهواء النقـي والتخلـي عن التماريـن الرياضيـة، ظلّت قوية جـداً ويصعب عليـه التحكّم بها، إذ كان يأكل كلَّ ما يأتونه بـه. وقتها أخذ يتصرَّف علـى النحو لتالي: فقبْل أن يبدأ بتنـاول الطعام كان يُلقي بنصف طبقه الساخـن في السطل/المرحاض؛ وبدا له أن ذلك كان يساعده، إذ كان يداهمه بعد ذلك خَدَرٌ ونعاس ثقيل.

ـ سأُريـك! ـ يقول مهدِّداً جسمه، فيما هو نفسه يمرِّر يده بحزنٍ ممريرة رقيقة على عضلاته الذابلة المتهدّلة.

ولكـن جسمه سرعان مـا ألِف هذا النظام وعـاد إليه رعب الموت من جديد. ولكنه في الحقيقة لم يعد بتلك الحدّة، ولا بتلك الحرارة النارية، وإنما عـاد أكثر إملالاً، شبيهاً بالغثيان. «هـذا لأنهم يماطلون طويلاً، ـ خطر لسيرغي، ـ حبّذا لو أنام طول هذا الوقت، حتى لحظة الإعدام»، ـ وحاول أن ينام أطول مدة ممكنة. وقد نجح في البداية في ذلك، ولكنه في ما بعد أُصيب بالأرق ، ربّما لأنه شبع نوماً، وربَّما لسبب آخر. ومع الأرق جاءته أفكار حادّة ونفّاذة، وكانت مصحوبة بالشوق إلى الحياة أيضاً.

«وهـل أنا أخافه، ذلك الشيطـان؟ ـ قال مفكِّراً بالموت. ـ إنني أتأسف على الحيـاة. فهي شيء رائع، مهمـا كان ما يقوله عنهـا المتشائمون.

Twitter: @ketab_n

ومـاذا لو شنقنا المتشائـم؟ آه، أسفي على الحياة، شديـد أسفي عليها. ولـماذا لماذا نبتت لحيتي؟ لقد ظلَّت مدة طويلة لا تنبت، وإذا بها تنبُت الآن فجأة. فلماذا؟».

وهزَّ رأسه بحزن، وأطلق تنهُدات مديدة ثقيلة. تنهّدات تلاها صمتٌ، ثـم تنهيدة مديدة عميقة؛ ومرة أخرى خيّم صمتٌ قصير، ثم انطلقت تنهيدة جديدة أخرى أكثر امتداداً وثقلاً.

واستمر الحـال على هذا المنـوال حتى وقت المحاكمـة، وحتى اللقاء الرهيب الأخير مـع والديه العجوزين. عندما استيقظ في الزنزانة وهو يـدرك بجـلاء أن الحياة قـد قُضيَ عليهـا، وأنه لم يعد أمامـه إلا بضع ساعات من الانتظار في الفراغ، وإلا الموت، أحسَّ بشيء من الغرابة، وكأنه عُـرّيَ تماماً، عرِّيَ بطريقة غير عاديـة - إنهم لم يكتفوا بتجريده مـن ثيابه، بل وحجبوا عنـه الشمس، والهـواء، والضوضاء، والنور، والأفعـال والكلام. لم يأتِ الموت بعد، ولكـن الحياة لم تعُد موجودة أيضـاً، وإنمـا هناك شيء جديـد، مذهل في غموضـه، لا هو خالٍ من المعنـى تمامـاً، ولا هو ذو معنى. إنه عميـق، وغامض، وغير بشري إلى حد يستحيل كشفه.

- تفووو، يا للشيطان! - تعجب سيرغي متألِّماً. - ما هذا؟ وأين أنا؟ أنا... أيُّ أنا؟

ألقـى على نفسه نظـرة متفحّصـة بانتبـاه واهتمام، ابتـداء من حذاء السجون الكبير، وانتهاء ببطنه المنتفخ تحت الثوب. وتمشّى في الزنزانة فـارداً ذراعيه ومستمراً في النظـر إلى نفسه مثل امرأة في فستان جديد طويـل عليها. تلفَّت برأسه فوجده يتحرَّك. وهذا الرهيب قليلاً لسبب

Twitter: @ketab_n

ما، هو - سيرغي غولوفين - وسوف يموت.

وصار غريباً عليه كل شيء.

حاول أن يتمشّى في الزنزانة فوجد غريباً أنه يمشي. وحاول أن يجلس فوجد غريباً أنه يجلس. وحاول أن يشرب ماء فوجد غريباً أنه يشرب، ويبلـع، ويقبض علي الكأس. وأن لـه أصابعَ، وهذه الأصابع ترتجف. تنحنح، وسعل، وفكر وهو يسعل: «يا للغرابة، إنني أسعل».

«مـاذا أصابني، هل أنا أفقد عقلـي! - فكّر سيرغي والبرودة تسري في جسده. - هذا ما ينقصني، فليأخذْهم الشيطان!».

حـكّ جبينه بيده، ولكن هذا كان غريباً أيضاً. وعندئذ ظل مدة، ظنّها ساعات كاملة، متجمداً بلا حراك، لا يتنفّس، طارداً كل فكرة، ممتنعاً عن رفْع أنفاسه عالياً، متحاشياً القيام بأي حركة، لأن أيّ فكرة كانت جنوناً. لم يعُد الزمن موجوداً، وكأنه تحوَّل إلى مكان، الزمن الشفاف، الخـالي من الهواء، تحوَّل إلى ساحة هائلـة فيها كل شيء، فيها الأرض، والحيـاة والناس؛ ورأى كل هذا بنظـرة واحدة، كل شيء حتى النهاية تمامـاً، حتى الجرف المبهـم: حتى الموت. و لم يكن العـذاب متأتياً من رؤيتـه المـوتَ، وإنما مـن رؤيته الحيـاةَ والموت في وقـت واحد. ويد التجديـف هي ما أزاح الستارة التي تحجـب منذ الأزل سرَّ الحياة وسرَّ الموت، فكفّا عن أن يكونا سـرّاً، غير أنهما لم يصبحا واضحين أيضاً، بـل كانا كالحقيقة المكتوبة بلغة لا يفهمهـا أحد. لم تكن هذه الأفكار موجودة في دماغه البشري، و لم تكن موجودة في لغته البشرية كلمات تستطيـع أن تحيط بما رآه. وكانت كلمتـا «أشعر بالخوف» تتردّدان فيه لسبـبٍ واحد فقط هو أنه لم يكن هناك كلمة أخرى، لم يكن موجوداً

Twitter: @ketab_n

ولا أمكن أن يكون موجوداً مفهوم مناسب للتعبير عن هذه الحالة البشرية الجديدة. هذا ما يقع لإنسان لو أنه فجأة، وهو ما يزال بعدُ في حدود الفهم البشري والخبرة والمشاعر البشرية، رأى الله نفسه، رآه و لم يفهم، وإن كان يعرف، أن هذا يسمّى الله، فهزّه ما لا أذنٌ سمعت من عذابات ناتجة عن انعدام فهم لم يُسمع له من مثيل.

- هـذا هو ميوللر! - نطق فجأة بصوت عـال وهزّ رأسه بيقين. وبذات الانكسـار الفجائي في الشعور، الانكسار الذي تُحسِن النفس البشرية الإحساس به جيداً، قهقه بمرح وصدق. - آه منك، يا ميوللر! آه منك، أيّها الغالي ميوللر! آه منك، يا صديقي الألمانيّ الرائع! ومع ذلك فأنت على حق، يا ميوللر، أمّا أنا فحمار، أيها الأخ ميوللر.

وتمشّى مسرعاً في الزنزانة جيئة وذهاباً عدة مرات، وكم كانت عظيمة الدهشة الجديدة التي أصابت الجندي الذي كان يراقبه من عين الباب حين رآه يتعرّى من ثيابه كلّها، ثم بمرح وبأقصى قدْر من العناية يقوم بالتمارين الثمانية عشرة كلّها. فقد راح يثني جسمه الفتيَّ الذي نحل قليلاً، ويستقيم صعوداً وهبوطاً، مسموعَ الشهيق والزفير، ويهبط على رؤوس أصابع قدميه، ويقفز مباعداً ما بين يديه ورجليه. وبعد كل تمرين كان يقول بسرور:

- تلك هي القصة! هذا حقيقي، أيها الأخ ميوللر!

وتضرّج خدّاه بحمرة عميقة، وانبعثت من مسام جسمه قطرات عرق ساخن، زكيِّ الرائحة، ودقّ قلبه دقّاتٍ قويّةً ورتيبة.

- المشكلة، يا ميوللر، - فكّر سيرغي وهو يُبرز صدره إلى الأمام بطريقة جعلت أضلاعه ترتسم بوضوح تحت جلده الرقيق المشدود، - المشكلة

Twitter: @ketab_n

يـا ميوللر هي أنــه ما يزال هناك تمريــن هو التاسع عشـر: تمرين التعلّق مــن الرقبــة في وضعية الثبات. وهذا ما يسمّــى الإعدام. هل تفهـم، يا ميوللر؟ يأخـذون إنساناً حيّاً، وليكن سيرغي غولوفين، فيُلبسونه مثل دميــة ثم يعلِّقونــه إلى أن يموت. هذا غباءٌ، يا ميوللر، ولكنْ لا حول لنا ولا قوّة، إذ لا بدّ من فعلِ ذلك أحياناً.

ومال بجسمه إلى الجهة اليمنى وكرر:

- لا بدّ من ذلك أحياناً، أيّها الأخ ميوللر.

٩. عزلة فظيعة

تحـت رنين الساعة نفسه أمضى التعيس فاسيلي كاشيرِن الأيام الأخيرة مــن حياته في رعب وحزن، تفصله عن سيرغي وموسيا عدة زنزانات فارغــة، ولكنه كان وحيــداً وحدة قاسية، وكأنمــا لم يكن موجوداً في الكون كله أحدٌ غيره.

كان يتمشّــى في زنزانتــه جيئة وذهاباً وهــو يتصبّب عرقــاً، بقميصه الرطــب الملتصــق بجسمه، وبشعــره السابل الــذي كان أجعد في ما مضــى، مِشيةَ تشنج ويأس مثل من يعــاني من ألم في أضراسه لا يطاق. كان يجلس، ثم يركض من جديد، يضغط بجبينه على الجدار، يتوقّف ويبحــث بعينيه عن شيء ما، كأنه يبحث عن دواء. لقد تغيّر حتى صار كمن كان له وجهــان مختلفان: وجهٌ قديم، فتيٌّ، ما من أحد يعرف إلى أين رحل، ووجهٌ جديد، مخيف، حلّ محلّه، جاء من الظلام.

لقــد جاءه رعبُ الموت فوراً واستولى عليــه استيلاء كلّيّاً ومطبقاً. ففي الصباح كان يتبسّط مــع الموت وهو ذاهب إليه جَهاراً، وما إن اقترب

Twitter: @ketab_n

المساء، وهو محبوس في زنزانته الانفرادية، حتى طوقته وعصفت به موجة خوف مسعور. عندما كان ذاهباً إلى الخطر والموت من تلقاء نفسه، بمحض إرادته، عندما كان قابضاً بيديه على موته، وإن كان موتاً مخيفاً في مظهره، كانت الأمور هيّنة عليه، بل وكان مبتهجاً، إذ إن شعوره بحرية ليس لها ضفاف، وبإثباته الجريء والأكيد لإرادته الجسورة التي لا تعرف الخوف، كان يحجب عنه تماماً خوفاً صغيراً، مجعّداً كأنه خوفُ عجائز. ولمّا كان مزنّراً بالآلة الجهنمية كان هو نفسه كمن تحوَّل إلى آلة جهنمية وشغَّل في نفسه عقل الديناميت القاسي، وأضفى على نفسه قوّة نارية مميتة. وحين كان ماشياً في الشارع بين الناس المسرعين، العاديين، المنشغلين بهمومهم اليومية، المتعجّلين بتفادي خيول العربات وحافلة الترام كان يبدو في نظر نفسه قادماً من عالم آخرَ مجهولٍ، لا يعرف سكّانُه الموت ولا الخوف.

وفجأة في لحظةٍ باغتَته تحوُّلٌ حادٌّ، عاصف، مدوِّخ. إنه لم يعد يسير إلى حيث هو يريد، بل هو يُنقَل إلى حيث يراد له. وهو لم يختَرِ إلى أين، بل هو موضوعٌ في قفص حجري وأُقفِلَ عليه الباب بالمفتاح كأنه شيء. إنه لم يعد يستطيع الاختيار بحرّيّة بين الموت والحياة، شأنه شأن جميع الناس، بل باتت حياته تسلَب منه حتماً وبالتأكيد. إن من كان تجسيداً للإرادة والحياة والقوّة أصبح في رفّة جفنٍ صورةً تافهة للعجز الوحيد في العالم، تحوَّل إلى حيوان ينتظر الذبح، إلى شيء أصمَّ عديم الصوت يمكن نقله من مكانه وإحراقه وكسره. وأيّاً كان ما يقوله فإنه لن يسمَع كلامه أحد، وإذا ما بدأ يصرخ سدّوا بخرقةٍ فمَه، وسواءٌ أسارَ هو بنفسه على رجليه أم لا، فإنهم سيمضون به إلى الإعدام ويشنقونه. وسواءٌ أقاوم، أو حاول التملّص، أو استلقى على الأرض فإنهم سيتمكّنون

Twitter: @ketab_n

منه، ويرفعونه، ويقيّدونه، ويمضون به إلى المشنقة مقيَّداً. وما دام الناس الذين سوف ينفّذون هذا العملِ الآلي بحقّه ليسوا إلا بشراً مثلُهم مثلُه، فـإن ذلك يضفي عليهم مظهراً جديداً، شرّيـراً، غير عادي، يراوح ما بـين مظهر أشباح، شيءٍ متصنّع، لم يكن يظهر إلا قصداً، ومظهر دُمىً ميكانيكية تعمل بنابض: فهي تأخذ، تلقي القبض، تقود، تشنِق، تشدّ من الأرجل: ثم تقطع الحبل، تمدِّد، تنقل، تقبر.

منـذ يومه الأول في السجن تحوّل الناس والحياة في نظره إلى عالم من الأشبـاح والدُمى الميكانيكية مرعب رعباً لا يوصف. لقد حاول، بعد أن كاد يُجنُّ من الرعب، أن يتصوّر أن للناس لساناً وأنهم يتكلّمون و لم يستطِـع، فظنَّهم بُكماً. وحاول أن يتذكّـر كلامهم، ومعنى الكلمات التـي يستعملونها في ما بينهم و لم يستطـع. إن أفواههم تنفتح، يصدر منها صوتٌ ما، ثم يتفرّقون وهم ينقِلون أقدامهم، ثم لا شيء.

هكـذا يشعر من لـو كان وحدَه في البيت ليلاً وفوجـئ بالأشياء كلها تنبض بالحياة وتتحرّك، ويغدو لها عليه، هو الإنسان، سلطة بلا حدود. ثم فجـأة تروح تلـك الأشياء تحاكمـه: الخِزانة، والكرسـيّ، وطاولة الكتابـة، والأريكة. إنه سيصرخ، وينتفض، ويتضرّع، ويستغيث، فيما تتبـادل الأشياء الـكلام في ما بينها بلغتها. وبعد ذلـك تقوده الخَزانة، والكرسـيّ، وطاولة الكتابة، والأريكة إلى المشنقة. فيما تكون الأشياء الأخرى تشاهد ما يدور.

غـير أن كل شـيءٍ راح يبدو ألعابـاً في نظر فاسيلـي كاشيرِن المحكوم بالإعـدام شنقـاً: زنزانته، والبـاب وفُتحة المراقبة فيـه، ورنين الساعة الميكانيكيـة، والقلعة المطليّة بإتقـان، ولا سيَّما تلك الدمية الميكانيكية مـع سلاحها وهي تـدقّ بقدميها أرض الممر، وتلـك الدمى الأخرى

Twitter: @ketab_n

التـي تخيفه وهي تتلصَّص عليه بنظراتهـا عبر الكوَّة، وتقدِّم له الطعام بصمـت. علـى أن مـا كان قد عانـاه لم يكـن خوفاً أمـام الموت؛ بل الأرجح هـو أن كاشيرِن كان راغباً بالموت الذي كان، بكل ما فيه من لغز وغموض أبديين، أيسرَ فهماً على العقل من هذا العالم الذي انقلب بهذا القدْر من الهمجيـة والفانتازيا. وأكثر من ذلك: كأن الموت كان يتحطَّـم تماماً في هذا العالم المجنون مـن الأشباح والدمى، وكان يفقد معنـاه العظيم والغامض، ويغدو أيضاً شيئـاً ميكانيكياً، ولهذا السبب وحـده يغدو مخيفاً. دُمى تأخذ، تُلقي القبض، تقود، تشنق، تشدُّ من الأرجل. تقطع الحبل، تُمدِّد، تنقل، تقبر.

لقد اختفى الإنسان من العالم.

في المحكمة أعاد قربُ الرفاق كاشيرِن إلى رشده. ومن جديد، للحظة، رأى الناسَ وهم جالسون يحاكمونه ويتكلَّمون فيما بينهم بلغة بشرية، ينصتـون وكأنهم يفهمـون. أمّا في وقت المقابلة مـع أمِّه، عندما كان مرعوبـاً مثل مَن بدأ يفقد عقله وهو يفهـم ذلك، فإنه أحسَّ بجلاء أن هـذه المرأة بمنديلها الأسـوَد ما هي إلا دمية ميكانيكيـة مصنوعة، من قبيل الدمى التي تقول: «با ـ با»، «ما ـ ما»، ولكنها أحسَنُ صنعاً. لقد حاول أن يتكلَّم معها، فيما كان يفكِّر وهو يرتعد:

«يـا إلهي! إن هذه دميـة. دمية الأم. وتلك دميـة الجندي، وهناك في البيت دمية الأب، أمّا هذه فإنها دمية فاسيلي كاشيرِن».

ـ خُيِّـل له أنه ما هـي إلا ثوان حتى يَسمع في مـكان ما تصدُّع الآلة، وصريف العجلات غير المشحّمـة. وللحظة، عندما بكت أمُّه، وَمَضَ أمامه شيء إنساني ما، ولكنه ما لبث أن اختفى مع أوَّل كلمات قالتها،

Twitter: @ketab_n

وبـات مخيفـاً ويبعث على الفضـول أن يشاهد أن مـاءً راح ينهمر من عينَي هذه الدمية.

ثم حاول فاسيلي كاشيرِن في زنزانته أن يصلّي، عندما صار الخوف لا يطـاق. غير أنـه لم يكن باقياً في ذاكرته، من كل مـا كانت حياة صباه في بيت أبيـه التاجر محاطةً به تحت ستار الدين، إلا أثر واحدٌ كريه، مُرٌّ ومثـير للأعصـاب، و لم يكن عنده إيمان. ولكنـه في وقت مضى، ربما في طفولتـه الباكرة، سمع ثلاث كلمات أصابته بقلق مخيف، ثم ظلت مـدى الحياة مطعَّمة بشِعرٍ هادئ. هذه الكلمات هي: «بهجة الحَزانى أجمعين»[١٤].

وكان في بعض الأحيان، في الدقائق الصعبة، يتمتم في سريرته، ودون وعيٍ محدَّد: «بهجة الحَزانى أجمعين»، فلا يلبث أن تهون عليه الأمور، ويرغَب بالذهاب إلى أحد العزيزين عليه ليشكو له بهدوء:

ـ حياتنا... وهل هذه حياة! آهٍ، أيّتها الغالية، وهل هذه حياة!

ـ وقد يغدو الأمـر مضحكاً فيرغب في أن يجعّد شعره، أن يأتيَ بفعل غريب، أو أن يقدِّم صدره لأحد كي يضربه: هيّا، اضربْ!

لم يبُحْ لأحد، حتى لأقرب أصدقائه، بعبارة «بهجة الحَزانى أجمعين»، بل وكأنه هو نفسه لم يكن يعرف بها، فقد كانت دفينة في مكان عميق من روحه. و لم تكن تخطر على باله إلا في أوقات قليلة، وبحذر.

والآن، عندمـا غمره حتى رأسه رعبُ السـر الماثل أمام عينيه والعصيِّ

---

١٤ – اسم أيقونة للسيدة العذراء في إحدى كنائس موسكو، يقدِّسها الأرثوذكس الروس، ويعود تاريخها إلى عام ١٦٨٨. ـ م.

Twitter: @ketab_n

علـى الحـل، مثلما يغمر الفيضـان شجيرة على شاطئ النهـر، أراد أن يصلّـي. أراد أن يركع على ركبتيه، ولكنه أحسّ بالعار أمام الجنديّ، ولكنه عقد يديه على صدره، وهمس بهدوء:

- بهجة الحَزانى أجمعين!

وكرر بحزن وهو ينطق الكلمات بعذوبة:

- تعالي إليَّ، يا بهجة الحَزانى أجمعين، وكوني عوناً لفاسكا كاشيرِن.

منـذ زمن بعيد، منـذ كان في سنته الجامعية الأولى، يـوم كان ما يزال يتعاطـى الخمـر، قبل أن يتعـرّف إلى فيرنر وينضـمّ إلى مجموعته، كان يسمّي نفسه بتبجّح وسخف «فاسكا كاشيرِن». ولسبب ما فقد طاب لـه الآن أن يعود فيسمّـي نفسه بذلك الاسم أيضاً. إلا أن وقع كلماته: «بهجة الحَزانى أجمعين!»، كان ميتاً، عديم الصدى.

تمـاوج شيء ما. كأن صورة هادئة وكئيبـة لأحدهم مرت على مسافة قريبـة منـه وانطفأت بهدوء قبـل أن تنير ظلمة ما قبـل الموت. ورنّت الساعـة الميكانيكيـة على بـرج الأجراس. وقرقع جنـدي بسيفه أو ببندقيته في الممر، وأطلق تثاؤباً مديداً متموّجاً.

- يا بهجة الحَزانى أجمعين ! وأنت أيضاً ما تزالين صامتة ! ولا تريدين أن تقولي لفاسيا كاشيرِن أيَّ شيئ ؟

وابتسـم بعذوبة وانتظر. ولكن الفـراغ كان مخيِّماً في نفسه وحواليه. ولم تَرجـع الصورة الهادئـة والحزينة. وتذكّر شموعـاً تشتعل من غير مـا حاجة وبعذّاب، وخورياً في جبّتـه، وأيقونة مرسومة على الجدار، وكيف ينحني أَبوه ويستقيم وهو يصلِّي ويسلِّم فيما هو ينظر من تحت

Twitter: @ketab_n

حاجبيه إن كان فاسكا يصلّي أم لا، وهل انهمك باللعب. فأحسَّ برعبٍ أكثرَ ممّا قبل الصلاة.

واختفى كل شيء.

وهجم عليه الجنون يزحف ثقيلاً. وخمد وعيه مثلما تخمد نار مبعثرة. وبرد مثل جثّة إنسان مات للتوِّ وما زال في قلبه دفء، بينما تجمَّدت رجلاه ويداه من البرد. ومرّة أخرى شعَّت فكرة دامية وهي آخذٌ بالأفول وقالت إنه، فاسكا كاشيرِن، قد يصاب هنا بالجنون، وقد يتعذّب عذاباً ليس له اسم، ويبلغ حدّاً من الألم والمكابدات لم يصل إليه بعدُ أيُّ كائن حيّ؛ وأنه قد يضرب الجدار برأسه، وقد يقلع عينيه بإصبعه، وقد يتكلم ويصرخ بكل ما يطيب له، ويذرف الدموع مؤكِّداً أنه لم يعُد يطيق صبراً، ثم لا شيء. سيحلّ اللاشيء.

وجاء اللاشيء. واستمرَّت الرِّجْلان اللتان لهما وعيهما وحياتهما تمشيان وتحملان جسمه البليلَ المرتجف. وعبثاً حاولت يداه اللتان لهما وعيهما ضمَّ الثوب الذي انفتح على صدره وتدفئةَ جسمه البليل الذي يرتجف. فقد كان جسمه يرتجف ويتجمَّد من البرد. وكانت عيناه تنظران. وكانت تلك رقدةَ الموت تقريباً.

ولكنْ كان هناك لحظةُ رعب وحشي أخرى. حدث ذلك عندما دخل الناس. حتى إنه لم يفكر ما معنى ذلك، وهل حان وقت الذهاب إلى الإعدام، أم أنه شاهد أناساً وخاف كالأطفال تقريباً، لا غير.

ـ لن أذهب! لن أذهب! ـ همس همساً مسموعاً بشفتين دبَّ فيهما الموت، وتراجع بهدوء إلى آخر الزنزانة مثلما كان يفعل في طفولته عندما كان الوالد يرفع يده عليه.

Twitter: @ketab_n

ـ حان الذهاب.

إنهــم يتكلمون، يمشون حولــه، يناولونه شيئاً. أغمض عينيه، ترنّح، وشـرع بصعوبة يستعدّ. يبدو أن وعيه بدأ يعود إليه، إذ إنه فجأةً طلب مـن الموظّـف لُفافة تبـغ. وبلطف فتح لـه الموظّف علبة التبـغ الفضية وعليها رسمٌ حداثي.

١٠. الجدران تنهار

كان المجهول الملقّب باســم فيرنر إنساناً متعَباً من الحياة ومن النضال. لقــد كان في زمن مضى يحب الحياة بقــوة، يتمتع بالمسرح، والأدب، ومعاشرة الناس. إنه موهوبٌ ذاكرةً رائعة وإرادة صلبة. كان يتقن إتقانا كلياً عدة لغات أوروبية، ويستطيع أن يقدّم نفسه بطلاقة على أنه ألماني، أو فرنســي، أو إنكليزي. وقــد كان يتكلّم الألمانية عادة بلُكنة بافارية، ولكنــه كان قادراً، إذا شاء، أن يتكلّم مثل برليني حقيقي، أصيل. كان يحب التأنق في لباسه، ويجيد أساليب بديعة في اللباقة، وهو بين رفاقه الوحيد الذي كان يتجرّأ على الظهور في حفلات الرقص، التي يقيمها المجتمع الراقي، غير خائف من أن يُعرَف.

ولكنّه كان يكنّ للناس احتقاراً غامضاً يختمر في نفسه منذ مدّة طويلة، ومــن غير أن يلحظَه رفاقُــه. وكان وراء ذلك يأس، وتعب ثقيل، مميت تقريبــاً. لقد كان بطبيعتــه رياضياً[١٥] أكثر ممّا هــو شاعر، وحتى ذلك الحــين لم يكن يعرف الإلهام والنشــوة، وكان في بعض الدقائق يُحسّ بأنه مثل مجنون يبحث عن تربيع الدائرة في برك من دم البشر. ولم يكن العدو الذي كان يصارعه كل يوم قادراً على أن يفرض عليه احترامه.

١٥- ذو عقل تحليلي، عقل عالِم في مجال الرياضيات. ـ م

Twitter: @ketab_n

وكان ذلـك شبكة متكررة من الغباء، والخيانة، والكذب، والبصقات القذرة والخـداع المقزِّز. وآخرُ ما ظنَّ أنه قضى بسببه قضاء مبرماً على رغبتـه بالحياة هو عملية قتلِ مخبر قام بها بتكليف من منظمته. لقد قتله بهـدوء، ولكنه عندما رأى ذلك الوجه البشري الميت، الزائف، الوجه الـذي بات الآن هادئاً، ولكنه مع ذلك يبعث على الشفقة أيضاً، كفَّ فجأة عن احترام نفسه وقضيته. على أن ذلك لا يعني أنه أحسَّ بالندم، وإنمـا يعني أنه بكلِّ بساطة كـفَّ فجأة عن تقدير نفسه، وبات في نظر نفسـه مملاً، قليل الشـأن، وحيداً وحزيناً. ولكنه لمّـا كان إنساناً يتمتع بـإرادة صلبة، متماسكة، لم يخرج من صفوف منظمته، وظلَّ ظاهرياً كمـا كان، مع فارق واحد هو أن شيئاً بـارداً وفظيعاً استقرّ في عينيه. و لم يبح لأحد بأيِّ شيء.

وكان يتمتّـع أيضاً بصفة نادرة أخرى. فكمـا أن هناك أناساً لم يعرفوا الصُّـداع يومـاً، كذلك هـو لم يعرف ما هـو الخـوف. وعندما كان الآخرون يخافون لم يكن يقف منهـم موقف الاستنكار، ولكنه أيضاً لم يكـن يشفق عليهم ذلك الإشفاق، مثلما يقف المرء من مرضٍ واسعِ الانتشـار ولكنـه لم يُصَب بـه في يوم من الأيام. لقـد كان يشفق على رفاقـه، وخاصة على فاسيـا كاشيرِن، غير أن ذلـك كان تلك الشفقة البـاردة، الرسميـة تقريبـاً، التي ربّمـا لم تكن غريبة حتـى على بعض القضاة.

كان فيرنر يدرك أن الإعدام ليس مجرّد موت، بل هو شيء آخر، ولكنه في جميع الأحوال قرر أن يستقبله بهدوء، كشيء لا صلة له به، قرر أن يعيش حتى النهايـة وكأن شيئاً لم يحدث، ولن يحدث. بهذه الطريقة فقـط كان قـادراً على أن يعبِّر عن احتقاره للإعـدام، وأن يحافظ على

Twitter: @ketab_n

الحرية الأخيرة التي لا يمكــن تجريدُ روحه منها. وفي المحكمة، ولعلّ هذا ما كان يصعب أن يصدّقه حتى رفاقه الذين يعرفون جرأته الباردة وتعاليه، لم يكن يفكّر لا بالموتِ ولا بالحياة، لقد كان يلعب بتركيز وباهتمام شديد العمــق والهدوء شوطاً صعباً بالشطرنج. فقــد بدأ هذا اللاعب المتفوّق في الشطرنج يلعب منذ أوّل يوم من أيام اعتقاله هذا الشوط، واستمر يلعبه من غــير توقف. و لم يحرّك قرارُ الحكم القاضي بإعدامه شنقاً حتى الموت أيَّ بيدقٍ على رقعة الشطرنج التي في خياله.

بــل و لم يتوقفْ عن لعب الشوط الذي كان يبدو أنه لن يقدَّر له أن يُكمله. وفي صبــاح اليوم الأخير الذي بقي له علــى الأرض بدأ بتعديل نقلة لعبها بالأمس و لم تكن ناجحة تمام النجاح. وشدّ على يديه المسبلتين بين ركبتيه وجلــس دون حراك؛ ثم قام وبــدأ يتمشّى وهو يفكــر. كانت مشيته من نــوع خاص ينحني فيها بالجزء الأعلى من جذعــه إلى الأمام قليلاً، وبعزم ووضوح يدقّ الأرض بكعبيه، فتخلّف خطواته حتى على الأرض الصلبة أثــراً عميقاً وملحوظاً. وبهدوء وعلى نَفَس واحــد كان يصفر لحناً إيطالياً بسيطاً، فقد كان ذلك يساعده على التفكير.

غير أن سير الأمور هذه المرة كان، لسبب ما، سيّئاً. فقد خالجه شعور كريه بأنــه ارتكب غلطة كبيرة، بل وفادحة، فعاد بأفكاره إلى الوراء عدّة مرّات كــي يتحقق مــن لعبه منذ البداية تقريباً. ورغم انه لم يكن يجد غلطة، فإن الشعــور بارتكاب غلطة لم يفارقــه، بل وبات يزداد قــوّة وحزناً. وفجأة خطرت له فكرة مزعجة وغير متوقَّعة: تُرى، ألا تكمن غلطته في أنه يريد بلعب الشطرنج أن ينأى بذهنه عن الإعدام ويحمي نفسه من خوف الموت الذي يبدو وكأنه لا مناص منه لمحكوم؟

ـ كلا، ولمــاذا؟ ـ أجاب نفسه ببرود، ثم بهدوء أغلق رقعة الشطرنج التي في

Twitter: @ketab_n

الخيـال. وبذلك الانتبـاه المركَّز نفسه الذي لازمه في أثنـاء اللعب، وكأنه يجيـب على أسئلة في امتحان عسير، حاول جاهـداً أن يتبيّن ما في حالته مـن رعب وقنوط. فألقى نظرة فاحصـة على الزنزانة محاولاً ألا يفوته فيها شيء، وحسَب الساعاتِ الباقيةَ بينه وبين الإعدام، ورسم في ذهنه صورة تقريبية للإعدام نفسِه في غاية الدقة، وهزَّ كتفيه.

- ومـاذا؟ - ردَّ على شخص افتراضيٍّ بنصف سؤال. - ذلك كل شيء. فأين الخوف؟

حقـاً، لم يكن هناك خوف. بـل وفضلاً عن أنه لم يكن هناك خوف، كان ينمـو في داخله شيء كأنه النقيض للخـوف، شعور بفرحٍ غامض، ولكنه هائل وجريء. والغلطة التي كانت ما تزال غير مكشوفة بعد، لم تعُد تبعث فيه الأسى، ولا تثير أعصابه، بل وكانت تتكلم بصوتٍ عالٍ عن شيء جيِّد وغـير متوقَّع، وكأنـه كان يظنّ أن صديقاً قريباً، غاليـاً عليه كان في عِداد الموتى، ثم تبيَّن له فجأة أن هذا الصديق حيٌّ، يضحك، و لم يمسّه سوء.

هزَّ فيرنر كتفَيه مرّة أخرى وتحسَّس نبْضه، فوجد قلبه يدقّ بسرعة، ولكنها دقـات ثابتة ومنتظمة، تتميَّز بقوّة رنّانة من نوع خاص. ومرّة أخرى ركّز انتباهـه، مثـلَ غرٍّ يدخـل السجن أوّل مـرة، وألقى نظـرة متفحِّصة على الجدران، والأقفال، والطاولة المثبَّتة بالأرض وفكّر:

«مـا الذي يجعلني أشعر بكل هذه الخفّة والفرح والحرية؟ بالحرية تحديداً. إننـي أفكّر بالإعـدام غداً، فإذا به وكأنه غير موجـود. أنظرُ إلى الجدران، فكأنمـا لا وجود للجدران أيضاً. ثم يـا لهذا القدْر من الحرية وكأني لست في السجن، بل كأنني قد خرجت للتوِّ من سجنٍ أمضيت فيه حياتي كلها. فما هذا؟».

Twitter: @ketab_n

شرعـت يداه ترتعشـان، وهذه ظاهرة لم يعرفها فيرنـر من قبل. وكان فكـرُه يغلـي بمزيد من الغضـب، وكأن ألسنة نـيران كانت تلتهب في رأسه، والنار تريد أن تنبثق خارجة من رأسه تضيء الأفق الواسع الذي ما يـزال في الليل، وما يزال غارقاً في الظلام. وإذا بالنار تنبثق خارجة فيتألّق الأفْق بالضوء على مداه.

لقـد زال التعب العكِر الـذي أرهق فيرنر خـلال السنتين الأخيرتين، وسقطـت عن قلبه أفَعى ميتة، باردة، ثقيلة، ذاتُ عينين مغمضتين وفم مطبَـقٍ إطباقة الموت، وعاد الصبا الرائـع يلهو أمام وجه الموت. وكانَ ذلـك أكثر مـن الصبا الرائع. بذلـك الصفاء الروحـي البديع، الصفاء الـذي يلهم الإنسان في دقائق نادرة ويرتقي بـه إلى أعلى ذرى التأمّل شاهد فيرنر كلاً من الحيـاة والموت، فأذهلته روعة هذا المنظر الذي لم تـرَه عينٌ من قبل. كأنه كان يمشي على سلسلة جبلية سامقة الارتفاع، ضيقة، مثل نصل سكين، وشاهدَ على واحد من جانبيها الحياة، وعلى الجانب الآخر الموت، مثل بحرين أزرقين، مشعشعين، رائعين يتّحدان عند الأفق ويتدفّقان فضاء رحيباً ما له من حدود.

ـ مـا هذا! يـا له من منظر إلهـي! ـ قال ببطء، وهو ينهضِ رغماً عنه، وتنتصب قامتـه كما في حضرة كائنٍ سام. وفيمـا هو يحطِّم الجدران والمـكان والزمـان باندفاع نظرة تختَرقُ كل شـيء، ألقى نَظرة رحيبة على مكان ما في أعماق الحياة التي يرحل عنها.

وتبـدّت له الحياة جديدة. فلم يحاول، كما كان يفعل من قبلُ، أن يعبِّر بالكلمـات عمّـا رآه، ولم تكن تلك الكلمات موجـودة في لغة البشر التي ما تزال فقيرة، وما تزال شحيحة. أمّا ذلك الشيء الصغير، القذر، الشريـر الذي كان يوقظ فيه الاحتقـار للناس، وكان في بعض الأحيان

Twitter: @ketab_n

يبعث فيه حتى التقزز من منظر الوجه البشري، فقد اختفى تماماً، مثلما يختفي عن عينِ من يرتفع في منطاد هوائي كلُّ ما في الشوارع الضيقة بمدينة مهجورة من نفايات ووسخ، فيغدو قبحها جمالاً.

وبحركة لاواعية مشى فيرنر نحو الطاولة واستند إليها بيده اليمنى. واتخذ وضعية متكبِّرة، حرّة ومتسلِّطة لم يتَّخذ، وهو المتكبِّر، المتسلِّط بطبيعته، مثلها من قبل قطُّ، و لم يلتفت بهذه الطريقة، و لم ينظر بهذه الطريقة، لأنه لم يكن في يوم من الأيام حتى هذا الوقت حراً ومتسلِّطاً كما هو الآن هنا، في السجن، على مسافة بضع ساعات عن الإعدام والموت.

-وتبدّى له الناس جديدين، وبَدوا لنظرته الصافية لطيفين وبديعين. ورأى بوضوح وهو يحلِّق فوق الزمن كم فتيَّةٌ هي البشرية التي كانت ما تزال حتى الأمس وحشاً يزأر في الغابات، وما كان يبدو في الناس رهيباً، لا يُغتَفر، وخبيثاً، فجأة صار لطيفاً لطفَ كون الطفل لا يُحسن المشي كالكبيرِ، لطفَ تلعثمه بكلمات مفككة تشعّ منها شرارات العبقرية، ولطفَ تعثّراته المضحكة، وأخطائه وارتطاماته القاسية.

- يا أحبائي! - ابتسم فيرنر ابتسامة غير متوقّعة وفقدَ في الحال كل ما توحي به وقفته، وعاد فصار معتقلاً يشعر بالضيق والانزعاج في سجنه، وبشيء من الضجر من العين التي كانت تراقبه جيئة وذهاباً عند الباب. والشيء الغريب هو أنه نسيَ على نحوٍ فجائي تقريباً ما سبق أن رآه قبل قليل وكان شديد البروز والوضوح؛ والأكثر غرابة بعدُ هو أنه لم يحاول ولو مجرَّد محاولة أن يتذكَّر ذلك. فقد اكتفى بالجلوس بطريقة أكثر راحة، متحرراً من التصلُّب المعهود في وضعية جسمه، وببسمة ضعيفة ورقيقة ليست مألوفة منه ألقى فيرنر نظرة

Twitter: @ketab_n

علـى الجدران والقضبان. وحدث شيء جديـد أيضاً، شيء لم يحدث لفيرنر من قبل قَطُّ: لقد أجهش بالبكاء فجأة.

- يـا لَرفاقي الغالـين! - همس فيرنـر ونشج بصوتٍ عـال. - يا لَرفاقي الغالين!

ما هي الطرق السرّيّة التي سلكها للانتقال من الشعور بحرِّيّة متكبِّرة لا حـدود لها إلى هذا العطف الحنون المشبوب؟ لم يكن يعرف ولا يفكر بذلـك. وهل كان ينتظرهم، أولئك الرفاق الغالين، أم أن دموعه كنت تُخفـي شيئاً آخر أكـثر سموّاً وشبوباً؟ هذا أيضاً مـا لم يكن يعرفه قلبه الذي انتعش فجأة واخضرّ. كان يبكي ويهمس:

- يا لَرفاقي الغالين! أيها الغالون، يا رفاقي!

ما كان لأحد قَطُّ أن يعرف أن هذا الإنسان الذي يبكي بمرارة ويضحك عبر الدموع هو فيرنر البارد والمتغطرس، المرهَق والجسور: لا القضاة، ولا الرفاق، ولا هو نفسه.

١١ . في الطريق إلى الإعدام

قبل توزيع المحكومين علـى عربات الخيل جمعوهم الخمسةَ في غرفة كبيرة باردة مثل الجليد، سقفها بيضوي، شبيهة بمكتب مهجور لم يعد يعمل فيه أحد، أو بغرفة استقبال فارغة. وسمحوا لهم بتبادل الحديث فيما بينهم.

ولكـن تانيا كوفالتشوك وحدها مـن سارعت فانتهزت في الحال هذه الفرصـة للـكلام. بينما تبادل الآخـرون السلام بصمتٍ وقـوّة، بأيدٍ بـاردة مثل الجليـد، وحارّة مثل النـار. وبصمتٍ، وهـم يحاولون ألاّ

Twitter: @ketab_n

ينظر بعضهم إلى بعض، تجمّعوا مجموعة مرتبكة شاردة. كانوا الآن، وقد أصبحوا معاً، كأنهم خجلون مما عاناه كل واحد منهم في عزلته؛ وكانوا يخشون تبادل النظرات لكي لا يَروا ولا يُظهِروا ذلكِ الشيء الجديد، المختلف، المعيب قليلاً، الشيء الذي كان يشعر به كلٌّ منهم، أو يعتقد أنه قد يكون موجوداً فيه.

وما هي إلا التفاتة وأخرى حتى تبادلوا النظرات وابتسموا، فشعروا بالانفراج في الحال، وبانعدام الكلفة فيما بينهم، إذ عادوا إلى حالهم الأولى، لم يحدث فيهم أيّ تغيير. وإذا ما كان قد حدث شيء فإنهم يتقاسمونه جميعاً بالتساوي، و لم يعُد يلحظه كل منهم بمفرده. كان الجميع يتكلّمون ويتحرّكون بطريقة غريبة مندفعين، متزاحمين إمّا ببطء شديد، وإمّا بسرعة فائقة، يغصّون أحياناً بالكلمات ويكرّرونها مراراً، وأحياناً لا يكملون جملة شرعوا بنطقها أو يَعدّون أنها قيلت، ولا يلحظون ذلك. وكانوا جميعاً يكوّرون عيونهم ويتفحّصون الأشياء العادية بفضول فلا يعرفونها، مثل أناس كانوا يرتدون نظارات وفجأة خلعوها. وكثيراً ما كانوا كلّهم يلتفتون إلى الوراء وكأن هناك طول الوقت من يناديهم من خلف ظهورهم ويعرض عليهم شيئاً ما. ولكنهم لم يكونوا يلحظون ذلك. كانت عيون موسيا وتانيا كوفالتشوك وخدودهما تتكلم؛ وكان سيرغي في البداية شاحباً قليلاً، ولكنه سرعان ما تغلّب على ذلك وعاد مثلما كان دائماً.

و لم يلتفتوا إلا إلى فاسيلي. فقد كان حتّى بينهم متميِّزاً ومخيفاً. تحرَّك فيرنر وقال لموسيا بهدوء وقلق رقيق:

- ما هذا يا موسِتشْكا؟ أحقّاً أنه مختلّ، آ؟ ما رأيك؟ يجب أن نذهب إليه.

Twitter: @ketab_n

نظر فاسيلي إلى فيرنر من بعيد كأنه لم يعرفه وخفض ناظريه.

ـ فاسيا، ما لشَعرك هكذا، آ؟ ماذا تفعل؟ لا بأس، أيها الأخ، لا بأس، لا بأس، الآن سينتهي كل شيء. يجب أن نصمد، حتماً، حتماً.

ظلَّ فاسيلي صامتاً. ولمّا بات واضحاً أنه لن يقول أي شيء، صدر عنه جوابٌ أصمّ، متأخِر، بعيد جداً، مثل الجواب الذي تستطيع القبور أن تردَّ به على كثير من النداءات:

ـ أنا لا بأس. إنني صامد.

وكرَّر:

ـ إنني صامد.

ففرح فيرنر.

ـ نعم، نعم. أحسنت. هكذا، هكذا.

ولكنه شاهد أمامه نظرةً باحثة، غامضة، مثقلة، قادمة من أعمق الآفاق، وخطر له بحزنٍ عابر: «من أين هو ينظر؟ من أين يتكلَّم؟». وبلطفٍ عميق لا يكلِمون به إلا القبور، قال:

ـ فاسيا، هل تسمعني؟ إنني أحبُّك جداً.

ـ وأنا أحبُّك جداً، ـ أجاب وهو يحرِّك لسانه بصعوبة.

وفجأة أخذت موسيا يد فيرنر، وتعبيراً عن دهشتها قالت بتشديدِ مثل ممثلة على الخشبة:

ـ فيرنر، ماذا أصابك؟ أأنتَ قلت: أحبّك؟ إنك لم تقل يوماً لأحد: أحبُّك. ولماذا أنت كلُّك ... مشرق وليِّن؟ آ، ماذا؟

Twitter: @ketab_n

ـ آ، ماذا؟

وأيضـاً مثل ممثل، وبتشديد كذلـك، وتعبيراً عمّا كان يجيش في نفسه شدَّ فيرنر على يد موسيا قائلاً:

ـ أجـل، إننـي الآن مفعَمٌ بالحب. لا تقولي للآخريـن، لا لزوم لذلك، إنني أشعر بالخجل، ولكنني مفعَمٌ بالحب.

التقـت نظراتهمـا فتوهّجا بقـوّة، وانطفـأ كل شيء حولهمـا، مثلما تنطفئ في لحظة انبثاق البرق الأضواءُ الأخرى جميعها، ويُلقي اللهبُ الأصفر، الثقيل نفسَه بظلِّه على الأرض.

ـ نعم، ـ قالت موسيا. ـ نعم، يا فيرنر.

ـ نعم، ـ أجاب فيرنر. ـ نعم، يا موسيا، نعم.

ثمة شيء فهِماه وأكّداه تأكيداً لا يتزعزع. وتحرك فيرنر منوّراً بنظراته، ومشى مرة أخرى بخطوات سريعة نحو سيرغي.

ـ سيريوجا!

ولكـن تانيا كوفالتشوك هي من أجابـت. فبذهول، وهي على وشْك البكاء من فرط إباء الأمومة، شدَّت سيرغي من كُمِّه بجنون.

ـ اسمـعْ، يـا فيرنر! أنـا هنا أبكـي عليه، وأتـألّم، وهو يقـوم بتمارينه الرياضية!

ـ على طريقة ميوللر؟ ـ ابتسم فيرنر.

قطّب سيرغي متذمِّراً.

Twitter: @ketab_n

ـ عبثاً تضحك، يا فيرنر. إنني اقتنعتُ نهائياً...

أغـرقَ الجميع بالضحـك. وبينما كانوا يستمـدون العزيمة والقوة من تبـادل الحديث فيما بينهـم، كانوا يستعيـدون حالتهـم السابقة شيئاً فشيئاً، غير أنهم لم يلحظوا ذلك أيضاً، وظنّوا أنهم ما زالوا كما كانوا. وفجأة، إذا بفيرنر يقطع الضحك، وبجدية كاملة يقول لسيرغي:

ـ أنت على حقٍ، يا سيريوجا. أنت على حقٍ تماماً.

ـ كلا، افهَموني، ـ ابتهج غولوفين. ـ طبعاً، نحن...

ولكـنْ في هذه اللحظة طلبوا إليهم الرحيل. وكانوا في غاية اللطف إذ سمحـوا لهم بأن يركب كل اثنين منهم عربة كما يروق لهم. وعموماً كانـوا لطيفـين معهم جداً، بل وفوق الحـدِّ، ذلك إمّا أنهـم أرادوا أن يعبِّروا لهم عن موقفهم الإنساني، وإمّا أن يبيِّنوا لهم أنهم غير موجودين إطلاقاً، وكلُّ شيء يجري من تلقاء نفسه. ولكنهم كانوا شاحبين.

ـ أنـت، يا موسيا، اجلسي معه، ـ وأشار فيرنر إلى فاسيلي الواقف دون حراك.

ـ فهمت، ـ أومأت موسيا برأسها. ـ وأنت؟

ـ أنـا؟ تانيا مع سيرغي، وأنت مع فاسيا... أنا وحدي. هكذا لا بأس، فأنا لا أستطيع، أنت تعرفين.

ولـمّـا خرجوا إلى الساحـة صفعت الظلمةُ الرطبـة وجوهَهم وعيونَهم بنعومـة، ولكنْ بدفء وقـوّة، وأذهلتهم، وفجـأة اخترقت الأجساد الراعشـة كلّها بلطـفٍ وطهّرتها. كان من الصعـب التصديق بأن هذا

Twitter: @ketab_n

الشـــيء المدهش ما هو إلا هواء الربيع، هـــواء دافئ ورطيب. وفاحت رائحــة الثلج الآخذ بالذوبان في الليــل الربيعي الحقيقي البديع منتشرة في المــدى اللامحدود، وكانــت قطرات المطر تتساقــط سريعة وكثيفة، تتعاقــب واحدة إثر أخرى لتعزف معاً أغنيــة متناغمة رنانة. ولكنْ إذا بقطرة في هذه الأثناء تشذّ فجأة عن الصوت المتناغم فيختلط كل شيء في دفقة مرح، في فوضى عجولة. ثم تسقط بقوّةٍ قطرةٌ كبيرة، صارمة فتعــود الأغنيــة الربيعية العجولة تعــزف برهافة ورنــين. وكان يخيم على المدينــة، وعلى أسطح القلعــة وهْجٌ شاحب ينبعــث من الأضواء الكهربائية.

ـ أ ـ واخ! ـ أطلــق سيرغي غولوفين تنهيدة عريضة وحبس أنفاسه كمن كان ضنيناً بأن يُخرِج من رئتيه هذا الهواء العليل البديع.

ـ هل هذا الطقس منذ وقت طويل؟ ـ استفسر فيرنر. ـ إنه الربيع تماماً.

ـ هذا يومه الثاني فقط ، ـ جاءه جواب تحذيري ومهذّب. ـ أمّا قبل ذلك فكانت أكثر الأيام قارسة البرد.

وتقاطــرت عربــات مظلمة تتهــادى واحدة تلــو أخــرى، فأخذتهم أزواجــاً ومضت في الظلام، باتجاه مصبــاح كان يتمايل تحت البوّابة. وأحاط جنــود الحراسة كلَّ عربة بظلالهم الرمادية، وراحت حدوات خيولهم تدق الأرض متناغمة أو تخفق في الثلج البليل.

عندمــا انحنى فيرنر وهــو يهمّ بدخول العربة قــال شرطيٌّ بطريقة غير محددة:

ـ هناك شخص آخر مسافر معك.

Twitter: @ketab_n

تعجّب فيرنر:

- إلى أين؟ إلى أين هو مسافر؟ آخ، نعم! شخص آخر؟ ومن هو؟

فصمت الشرطي. حقـاً، كان في زاوية العربة، في العتمة، شيء صغير لا يتحـرّك ولكنه حـيٌّ. وتحت الشعاع المائل مـن المصباح لمعت عينٌ مفتوحة. وبينما كان فيرنر يجلس صدم برجله ركبتَه.

- عفواً، يا رفيق.

لم يـردّ الآخـر. فقط عندما انطلقــت العربة، سأل فجـأة متلعثماً بلغة روسية مكسّرة:

- من أنت؟

- أنا فيرنر، محكوم بالإعدام شنقاً بسبب محاولة اغتيال ن.ن. وأنت؟

- أنا يانسُن. لا أريد أن يشنقوني.

كانا مسافريـن للمثول بعد ساعتين أمام حضرة السر العظيم المجهول، للرحيـل من الحيـاة إلى الموت، فتـمّ التعـارف بينهما. كانــت الحياة والمـوت يسيران على طريقـين في وقت واحد. وحتـى النهاية، حتى أدقِّ التفاصيل المضحكة والسخيفة ظلّت الحياة حياةً.

- وماذا فعلت، يا يانسُن؟

- ذبحتُ بالسكين من كنت أشتغل عنده. لأسرق ماله.

بدا من صـوت يانسُن أنه يغفو. وفي الظلام عثر فيرنر على يده الذابلة فشدَّ عليها. وبالذبول نفسه سحب يانسُن يده.

Twitter: @ketab_n

- هل أنت خائف؟ - سأله فيرنر.

- لا أريد.

صمَتا. ومرة أخرى عثر فيرنر على يد الإستوني وضغط عليها بقوة بين كفَّيه الجافَّتين الساخنتين. كانت مستلقية دون حراك، مثل خشبة، غير أن يانسُن لم يحاول أن يسحبها بعد ذلك. كانت العربة ضيِّقة وجوُّها خانق، تفوح فيها رائحة معطف عسكري، وشيء متعفِّن، وزبلٍ وجلدِ جزمةٍ رطبة. وكانت أنفاس الشرطي الفتيِّ الجالس قُبالة فيرنر تنبعث نحوه حارّة، خليطاً من بصل وتبغ رخيص. غير أن هواء حاداً ونقيّاً كان يتسرّب عبر شقوق ما، ولذلك كان الإحساس بالربيع في هذا الصندوق الصغير، الخانق، المتحرِّك أقوى ممّا هو في الخارج. كانت العربة تنعطف تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار، وتارة كأنها تتراجع إلى الوراء. وخُيِّل لهم أحياناً أنهم لسببٍ ما يدورون في مكانٍ واحد منذ ساعات. في البداية كان يتسرّب عبر الستائر السميكة المسدلة على النوافذ ضوءُ كهرباء مشوبٌ بشيء من الزرقة؛ ثم أظلمت فجأة بعد أحد المنعطفات، وبذلك فقط أمكنهم أن يكتشفوا أنهم دخلوا شوارع الأطراف المقفرة وباتوا يقتربون من محطة «س» للقطارات. وأحياناً عند المنعطفات الحادّة كانت ركبة فيرنر الحيّة المنثنية تصطدم بمودّة بركبة الشرطي الحية المنثنية أيضاً، وكان من الصعب التصديق بالإعدام.

- إلى أين نحن مسافرون؟ - سأل يانسُن فجأة.

كان رأسه يعاني من دَوَار خفيف بسبب الالتفافات المستمرة وقتاً طويلاً وهو في صندوق مظلم، فأحسَّ بشيء من الغثيان.

Twitter: @ketab_n

ردَّ فيرنـر على السـؤال وزاد الضغط على يد الإستـوني. كان يريد أن يقـول شيئاً ودّياً ولطيفاً للغاية لهذا الإنسان الصغير الناعس، وكان قد أحبَّه كما لم يسبق له في حياته أن أحبّ أحداً من قبلُ.

- أيّها الغالي، يبدو أنك لست مستريحاً في جلوسك. تزحزحْ إلى هنا، نحوي.

صمت يانسُن قليلاً وأجاب:

- شكراً. أنا مستريح. وأنت أيضاً سيشنقونك؟

- أيضـاً! - بمـرح غير متوقَّـع، بضحـك تقريباً، أجـاب فيرنر ونفض يـده بطريقة فيهاً بساطة واستهتـار. وكأن الحديث يدور حول مقلب سخيـف وتافه يريد أن يلعبه معهما أناس لطفاء، ولكنهم مضحكون جدّاً.

- عندك زوجة؟ - سأله يانسُن.

- كلا. أيُّ زوجة! إنني وحيد.

- وأنا أيضاً وحيد. وحيدة، - صحح يانسُن بعد أن فكّر قليلاً.

وبدأ فيرنر يشعر بدَوار في رأسه. وكان يخيَّل له في بعض الدقائق أنهم مسافرون إلى أحد الأعياد. شـيء غريب، ولكنّ الذاهبين إلى الإعدام كلّهـم تقريباً كانوا يشعـرون بهذا الشعور نفسـه، وكانوا، فضلاً عن الحزن والخوف، مسروريـن على نحوٍ غامض لهذا الشيء غير العادي الذي سوف يحدث الآن. كان الواقعُ يتلذّذ بالجنون، والموتُ المقرون بالحياة يولّد الأشباح. وهنـاك احتمال كبير أن تكون الرايات ترفرف على البيوت.

Twitter: @ketab_n

ـ لقــد وصلنا! ـ قال فيرنــر بفضول ومرح عندما توقفت العربة، وقفز منهــا بخفّة. إلا أن المسألة طالت مع يانسُن. فقد عاند بصمت وذبول شديد غير راغب بالخــروج. ما إن يقبض على ذراع المقعد حتى يفتح الشرطــي أصابعه الضعيفــة ويسحب يده. ثم يعــود يتشبّث بالزاوية، بالبــاب، بالعجلــة العالية، ولكنه لا يلبــث أن يُرخي يده حــالاً ما إن يبــذل الشرطي قليلاً من الجهد. حتى إنه لم يكن يتشبّث، بل إن يانسُن الصامــت كان على الأرجح يمــدّ يده إلى كل شــيء، وكانت تُسحَب بسهولة وبغير عناء. وأخيراً قام.

لم يكــن هنــاك رايات. كانت محطــة القطارات كما تكــون في الليالي معتمــة، خاوية وليس فيها حيــاة. لقد توقفت قطــارات الركاب عن الحركــة، أمّا ذلك القطار الذي يقف صامتاً على السكة بانتظار هؤلاء الركاب فلم يكــن بحاجة لأضواء ساطعة، ولا لحركــة زائدة. وفجأة أحســ فيرنر بالضجر. لم يشعر بالخوف ولا بالحزن، وإنما شعر بضجرٍ هائــل، مديد، بضجرٍ منهِكٍ يدفــع إلى الرغبة بالذهاب إلى مكان بعيد للاستلقاء وإغماض عينيه بقــوّة. وتمطّى فيرنر وتثاءب طويلاً، فتمطّى يانسُن ثم تثاءب بسرعة وعدّة مرّات.

ـ ليتهم يُسرعون! ـ قال فيرنر بتعب.

عندما كان المحكومون على رصيف السكة الخالي من الناس، المطوّق بالجنود، يســيرون إلى المقطورات الباهتة الأضــواء، وجد فيرنر نفسه بمحــاذاة سيرغي غولوفين، فأشار هذا بيده جانباً وبدأ يتكلَم، و لم يكن مسموعاً من كلامه بوضــوح إلا كلمة «الفانوس»، فيما غرقت نهاية الكلام في تثاؤبٍ متعَبٍ مديد.

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا تقول؟ ـ سأله فيرنر وهو يجيب متثائباً أيضاً.

ـ الفانوس. في الفانوس، ـ قال سيرغي.

التفت فيرنر فوجد أن مصباح الغاز يبعث دخاناً قويّاً في الفانوس حقّاً، وقد اسودّت أعالي الزجاج.

ـ نعم، إنه يدخِّن.

وفكّر فجأة: «وماذا يهمّني إن كان مصباح الغاز يبعث دخاناً، ما دام...». ولعلّ ذلك هو ما كان يفكّر فيه سيرغي أيضاً. فقد ألقى نظرة سريعة على فيرنر واستدار بوجهه عنه. إلا أن كليهما توقّفا عن التثاؤب.

مشى الجميع حتى المقطورات كلٌّ بمفرده، ووحده يانسُن من اقتادوه شابكين أيديهم تحت إبطيه. فقد حاول في البداية أن يتشبّث بالأرض بقدميه كمن التصق نعلاه بخشب الرصيف، ثم ثنى ركبتيه وتعلّق محمولاً بأيدي رجال الشرطة، يجرّ رجليه مثل رجل شديد السُّكْر ورأسا حذائه يخدشان الخشب. وقد أمضوا وقتاً طويلاً في حشره عبر الباب، ولكنْ بصمت.

مشى فاسيلي كاشيرِن بمفرده أيضاً، مقلِّداً حركات رفاقه بغموض، فقد كان يفعل كل شيء على نحو ما يفعلون. ولكنه تعثّر وهو يصعد إلى المقطورة فأخذه الشرطيُّ من يده ليسنده. ولكنّ فاسيلي ارتعد بقوّة وصرخ بصوت ثاقب وهو ينتر يده:

ـ آي!

Twitter: @ketab_n

ـ فاسيا، ماذا أصابك؟ ـ اندفع فيرنر نحوه.

صمت فاسيلي وارتعد بقوّة. فأوضح الشرطي المرتبك، بل والمنزعج:

ـ أردت أن أسنده، وإذا به...

ـ هيّا، يا فاسيا، سوف أسندك، ـ قال فيرنر وأراد أن يأخذه من يده. غير أن فاسيلي نتر يده مرة أخرى، وصرخ بصوتٍ أعلى:

ـ آي!

ـ فاسيا، هذا أنا، فيرنر.

ـ أعرف. لا تلمسْني. سأصعد وحدي.

ودخل إلى المقطورة وحده وهو يرتعد، فجلس في الزاوية. وانحنى فيرنر على موسيا وسألها بصوتٍ خفيض، مشيراً بعينيه إلى فاسيلي:

ـ وكيف؟

ـ حالته سيِّئة، ـ أجابت موسيا بصوت خفيض أيضاً. ـ لقد مات. قل لي، يا فيرنر، هل الموت موجود؟

ـ لا أعرف، يا موسيا، ولكني أظنّ أنه غير موجود، ـ أجاب فيرنر بجدّيّة وتفكّر.

ـ هذا ما كنت أظنه. وهو؟ لقد شبعتُ عذاباً معه في العربة، كأني كنت مسافرة مع ميت.

Twitter: @ketab_n

ـ لا أعـرف، يا موسيا. لعـلّ الموت موجود في نظـر البعض. موجود مؤقّتـاً، ثم لا يعود موجوداً إطلاقاً. فقـد كان في نظري موجوداً، أمّا الآن فلا وجود له.

وتضرّجـت وجنتـا موسيـا بالحمـرة بعـد أن كان قد شابهمـا بعض الشحوب:

ـ كان موجوداً، يا فيرنر؟ كان موجوداً ؟

ـ كان موجوداً، أمّا الآن فلا. مثلما هو في نظرك.

تعالى ضجيـج في باب المقطورة. ودخل ميشكا الغجري، تدقّ كعباه الأرضَ بصوتٍ عالٍ، وهو يبصق. فجال بعينيه وتوقّف معانداً.

ـ لا توجـد أماكـين[١٦] هنا، يا شرطي! ـ صرخ مخاطبـاً الشرطيَّ المنهَك الـذي كان ينظـر إليه بغضب. ـ هاتِ لي مكاناً مريحـاً، وإلا فإنني لن أسافـر، اشنقني هنـا، على عمود الفانوس. وهذه العربـة أيضاً، أولادَ الكلب، هل هذه عربة؟ إنها جَوف شيطان، وليست عربة!

ثـم أحنى رأسه فجأة، ومطّ رقبته ودخل بهـذه الهيئة ماشياً إلى الأمام نحـو الآخرين. وأطلّت مـن إطار شعره الأشعـث على وجهه ولحيته عينان ترسلان نظرة وحشية، حادّة، وتعبيراً مشوباً بالجنون.

ـ آ ـ ا ! السـادة ! ـ مَـطّ صوته. ـ هكذا إذاً. سلامـاً، يا بيك ! ومدَّ يده بقوّة إلى فيرنر وجلس قُبالته. ثم انحنى مقترباً منه وغمز بإحدى عينيه ومرَّر يده على رقبته بسرعة.

---

١٦ – بدلاً من أماكن، حفاظاً على تكسير اللغة، كما يتكلّم الغجري. ـ م.

Twitter: @ketab_n

ـ أنتم أيضاً ؟ آ ؟

ـ أيضاً ! ـ ابتسم فيرنر.

ـ أحقاً سيشنقونكم كلُّكم؟

ـ كلُّنا.

ـ أ ـ و ـ و ـ و! ـ كشّر الغجري وهو يتفحّص الجميع بعينيه، وتوقّف بنظره لحظة أطول على موسيا ويانسُن. وعاد فغمز فيرنر:

ـ اغتيال الوزير؟

ـ اغتيال الوزير. وأنت ؟

ـ أنا، يا بيك، لسبب آخر. أين أنا من الوزير! أنا، يا بيك، مجرم، هذا أنا. قاتل. لا بأس، يا بيك، تزحزحْ، أنا لم أدخل حِماكم بإرادتي. في العالم الآخر ستكون الأماكن كافية للجميع.

وبطريقة وحشية تفحّص الجميع بنظرةٍ باحثة، مرتابة، من تحت شعره المتشابك. ولكن الجميع كانوا ينظرون إليه بجدّية، بل وبشفقةٍ واضحة صامتين. ثم كشَّر، وبسرعة رَبَتَ على ركبة فيرنرَ عدّة مرّات.

ـ ها ـ كذا، يا بيك! كما تقول الأغنية:

فلا تضجِّي، أمَّنا، غابتَنا الخضراء.

ـ لماذا تناديني بـ البيك، ما دمنا كلّنا...

ـ صحيح، ـ وافق الغجري بسرور. ـ وأيّ بيك أنت ما دمتَ سوف تُشنَق إلى جانبي! هذا هو البيك، ـ وأشار بإصبعه إلى الشرطي

Twitter: @ketab_n

الصَّموت. ـ هه، وهذا الـ. . كذا ليس أسوأ من صاحبنا، ـ وأشار بعينه إلى فاسيلي. ـ يا بيك، آ يا بيك، هل أنت خائف؟

ـ بسيطة، ـ أجاب لسانه الذي يتحرَّك بصعوبة.

ـ أيّ بسيطـة هذه. ولكنْ لا تخجل، فـلا حاجة هنا للخجل. الكلب وحـده يلوِّح بذيله ويكشّـر عن أنيابه عندما يقودونـه إلى المشنقة، أمّا أنت فإنسان. ومَن هذا الأهبل؟ أليس من جماعتكم ؟

وبسرعـة تقافزت عيناه، وراح يبصق لُعابه الحلو السيّال بفحيح ودون توقُّف. أمّا يانسُن، الملتصق بالزاوية كومةً بلا حراك، فقد هزّت حركة خفيفـة منه جناحَـي طاقيّته الفـرو المتسلِّخة، إلا أنـه لم يُجِب بشيء. فأجاب عنه فيرنر:

ـ هذا ذبح الرجلَ الذي كان يعمل عنده.

ـ يا إلهي ! ـ تعجَّب الغجري. وكيف يُسمح لأمثاله بأن يذبحوا الناس!

كان الغجري ينظر وزْباً إلى موسيا منذ وقتٍ طويل، وإذا به الآن يلتفت بسرعة ويثبِّت نظره عليها بحدّة واستقامة.

ـ آنسـة، يـا آنسة ! مـاذا أصابك ؟ خدّاها أحمـران وتضحك. انظرْ، حقاً إنها تضحك، ـ وقبـض على ركبة فيرنر بأصابعه القوية كأنها من حديد. ـ انظرْ، انظرْ !

تضرّجـت موسيا حمرة، وبابتسامـة يشوبها الارتباك نظرت إلى عينيه الحادَّتين، المجنونتين قليلاً، المتوسِّلتين بثقل ووحشية.

صمت الجميع.

كانت تصدر عن العجلات طقطقة متقطِّعة دائمة، والمقطورات تتقافز

Twitter: @ketab_n

علـى السكة الضيقة وتجـري باجتهاد. وإذا بالقطـار، عند منحنى أو تقاطع، يرسل صفيراً ضعيفاً مديداً، كأن السائق كان خائفاً أن يدهس أحـداً. وكان غريباً أن يخطر على البال أن إعـدام الناس ينطوي على قدْر كبـير من اللباقة البشريـة العادية، ومن الاهتمـام، والجدية يجعل هـذا الشيء الأكثر جنونـاً على الأرض يجري بهـذه الطريقة العاقلة، البسيطـة. كانت المقطـورات تسير مسرعة، يجلس فيهـا الناس مثلما يجلسون دائمـاً، مسافرون مثلما يسافرون عـادة؛ وستأتي بعد ذلك محطة، وكما هو الأمر دائماً «سيتوقف القطار فيها خمس دقائق».

وعندئذ يأتي الموت ـ الأبدية ـ السرُّ العظيم.

١٢. الوصول

كانت المقطورات جادّة في المسير.

لقـد عاش سيرغي غولوفين عدة سنوات مـع أهله في بيت صيفي يقع بالقرب من هذا الطريق الذي كثيراً ما سافر فيه في الليل والنهار وكان يعرفـه جيِّداً. وإذا ما أغمض عينيه يستطيع أن يظـنَّ أنه الآن عائد إلى بيته، لقد تأخر قليلاً عند معارفه، وها هو عائد في القطار الأخير.

ـ لقـد اقتربنـا الآن، ـ قال بعد أن فتـح عينيه ونظـر إلى النافذة العاتمة، المشبّكة بالحديد، والتي لا تشير إلى شيء.

لم يـأتِ أحـد بأي حركـة، و لم يُجِب، ووحدَه الغجـري بصق لعابه الحلـو مرة إثر مـرّة. وراح يجيل عينيه في المقطـورة يتفحّص النوافذ، والأبواب، والجنود.

ـ بَرْد، ـ قال فاسيلي كاشيرِن بشفتين مطبَقتين كأنهما متجمّدتان حقّاً؛ وخرجت هذه الكَلمة من فمه هكذا: باد.

Twitter: @ketab_n

تململت تانيا كوفالتشوك.

ـ إليك منديلي، اعقدْه حول رقبتك. إنه منديل دافئ جداً.

ـ رقبتي؟ ـ سأل سيرغي بطريقة غير متوقَّعة وخاف من سؤاله.

ولكنْ لمّا كان الجميع يفكّرون بالشيء نفسه فإنه لم يسمعه أحد، وكأنه ما من أحد قـال أيَّ شيء، أو كأن الجميع ردّوا في الحال بتلك الكلمة نفسها.

ـ لا بأس، يا فاسيا، اعقدْه، إنه سيدفِئك، ـ نصحه فيرنر، ثم التفت إلى يانسُن، وسأله بلطف:

ـ وأنت، أيها الغالي، ألا تشعر بالبرد، آ ؟

ـ قد يكون يريد أن يدخِّن، يا فيرنر. أيُّها الرفيق، لعلَّك تريد أن تدخِّن؟ ـ سألته موسيا. ـ معَنا دخّان.

ـ أريد.

ـ إعطِه سيجارة، يا سيريوجا، ـ ابتهج فيرنر.

وبينمـا كان سيريوجـا يُخرج سيجارة، نظر الجميع بحـبٍّ إلى أصابع يانسُـن وهي تتناول السيجارة، وكيف يشتعـل عود الثُّقاب، ومن فم يانسُن يخرج دُخانٌ أزرق.

ـ شكراً، ـ قال يانسُن. ـ تمام.

ـ يا للغرابة ! ـ قال سيرغي.

ـ ما وجه الغرابة ؟ ـ التفت إليه فيرنر. ـ ما وجه الغرابة؟

Twitter: @ketab_n

ـ هذه: السيجارة.

وأمسك بسيجارة، بسيجارة عاديّة، بين أصابعه العاديّة الحيّة، وهو شاحب ينظر إليها متعجباً، بل وكأنما مرعوباً. وحدّق الجميع بعيونهم في السيجارة الرفيعة التي كان يتصاعد من نهايتها شريطُ دُخان متعرّج أزرق يُبعِده النَّفَس جانباً، وإلى الرماد وهو يتشكّل قائماً. كانت آخذة بالانطفاء.

ـ لقد انطفأت، ـ قالت تانيا.

ـ أجل، انطفأت.

ـ فليأخذْها الشيطان، ـ قال فيرنر، وقطّب وهو ينظر إلى يانسُن والسيجارةُ في يده العالقةِ في الهواء كأنها ميّتة. وفجأة التفت الغجري بسرعة وانحنى مقترباً بوجهه من وجه فيرنر، وقلَب عينيه مثل حصان، وهمس له:

ـ يا بيك، ما رأيك في أن... أقتل الحرّاس، آ؟ هل أجرِّب؟

ـ لا لزوم، ـ أجابه فيرنر بهمس أيضاً. ـ اشربْ حتى النهاية.

ـ وليش؟ في أثناء العراك يكون كل شيء أكثر مرحاً، آ؟ أضربه ويضربني، وإذا به لا ينتبه إلا وقد قُضيَ عليه. كأنه لم يمت.

ـ كلا، لا لزوم، ـ قال فيرنر والتفت إلى يانسُن: ـ أيها الغالي، لماذا لا تدخّن؟

وفجأة تغضّن وجه يانسُن المترهّل بائساً، وكأن أحداً شدَّ في الحال خيطاً يحرِّك تجاعيده فتقلّصت كلّها.

Twitter: @ketab_n

وكما في المنام شهق يانسُن باكياً دون دموع، بصوتٍ جافٍّ، كريه تقريباً:

- لا أريد أن أدخن. آ- هـ - ها! آ- هـ- ها! لا أريد أن يشنقوني! آ- هـ - ها! آ- هـ - ها! آ- هـ- ها!

فتململوا بالقرب منه. وراحت تانيا كوفالتشوك، وهي تبكي بدموع غزيرة، تمسّد كمّه، وعدّلت له جناحي طاقيّته الفرو المتهدّلة، المتسلّخة:

- أيها الغالي، يا عزيزي، لا تبكِ، أيها الغالي! أيها التعيس الصغير!

كانت موسيا تشيح بنظرها جانباً. والتقط الغجري نظرتها وكشّر.

- حضْرَتُـه غريب الأطوار! يشرب الشاي وبطنه بارد، - قال بضحكة ساخرة قصيرة. غير أنه هـو بالذات ازرقّ وجهُه حتى بات أسود مثل آنية من حديد، واصطكّت أسنانه الكبيرة الصفراء.

وفجأة ارتعدت المقطورات وأبطأت سيرها بوضوح. ونهض الجميع قليلاً، ما عدا يانسُن وكاشيرِن، ثم عادوا بالطريقة نفسها إلى الجلوس من جديد.

- المحطة! - قال سيرغي.

بات التنفّس عسيراً جداً، وكأن المقطورة أُفرغت تماماً من الهواء في الحال. كان القلب المتضخم يمزّق الصدر، ويقف في الحنجرة بالعرض، والجنون يتراكض مرعوباً صارخاً بكامل صوته الدامي. وكانت العيون تنظر إلى تحت، إلى الأرض التي ترتجف، فيما الآذان تسمع كيف يتزايد بطء دوران العجلات، وكيف تنزلق ثم تعود إلى الدوران من جديد، وفجأة همدَت.

Twitter: @ketab_n

توقّف القطار.

عندها خيّم عليهم حلُمٌ. لم يكونوا يشعرون بخوف شديد، وإنما بشيء شبحـي، بغيبوبة وبشـيء غريب عليهم بعض الشـيء. فقد ظل الحالم نفسُـه حيادياً، ووحـدَه شبحُه كان يتحرك من غير مـا هدف، يتكلّم مـن غير ما صوت، يتعذّب مـن غير ما عذاب. وخرجوا من المقطورة وهم في الحلُم، وتفرّقوا أزواجاً، واستنشقوا هواء عليلاً للغاية، ربيعياً، يهبُّ من الغابـات. وفي الحلُم عاند يانسُن ببلادة وضعف فجَرّوه من المقطورة صامتين.

هبطوا الدّرَجات.

- هل سنذهب مشياً؟ - سأل أحدهم بمرح تقريباً.

- المكان قريب، - أجاب آخر بمرحٍ مماثل أيضاً.

ثـم ساروا جماعة كبيرة، سوداء، صامتـة وسط الغابة على طريق سيئة الرصف، لينة وربيعية. وكان يهبّ من الثلج في الغابة هواء عليل قويّ، وتنزلـق القدم أحيانـاً وتغطس في الثلج، وتتعلّـق الأيدي برفيق رغماً عنها؛ وكان الحرّاس يتنفّسون بصوتٍ عالٍ، ويمشون بصعوبة في الثلج البكر على جانبي الطريق. وقال أحدهم بصوت غاضب:

- لم يستطيعوا أن ينظِّفوا الطريق. فلْنَتَدَعْكَلْ في هذا الثلج.

- لقـد نظّفوهـا، جنابَكم. ولكنـه وقتُ ذوبان الثلـوج، ولا حيلة في ذلك.

استعـادوا وعيهم، ولكنْ ليس كامـلاً، وإنما أجزاء منـه، قِطعاً غريبة.

Twitter: @ketab_n

وهذا ما أكّده الذهن فجأة بطريقةٍ عملية:

«حقّاً، لم يستطيعوا إصلاح الطريق».

تـارة كان يهمـد كل شيء، ولا يبقى إلا حاسّة الشـمّ. فرائحة الهواء، والغابـة، والثلج الذائب تفوح بجلاء لا يطـاق. وتارة يغدو كل شيء فائق الوضوح: الغابة، والليـل، والطريق، وأنهم الآن في هذه الدقيقة سوف يُشنَقون. وومضت أجزاء من حديث موجز مهموس:

ـ الرابعة قريباً.

ـ قال إننا سنسافر باكراً.

ـ يبزغ الضوء في الخامسة.

ـ أجل، في الخامسة. فقد كان يجب...

توقّفوا في العتمـة، في المرج. على مقربة منهم، وراء أشجار متباعدة، شفّافـةٍ كمـا تكون الأشجـار في الشتـاء، كان يتمايـل فانوسان على عمودين، هناك حيث كانت المشانق منصوبة.

ـ لقد أضعتُ واقية حذائي، ـ قال سيرغي غولوفين.

ـ ماذا؟ ـ لم يفهم فيرنر.

ـ أضعت واقية الحذاء. إنّي أشعر بالبرد.

ـ وأين فاسيلي؟

ـ لا أعرف. إنه واقف هناك.

Twitter: @ketab_n

كان فاسيلي واقفاً في الظلام لا يتحرّك.

ـ وأين موسيا؟

ـ أنا هنا. أهذا أنت، يا فيرنر؟

شرعوا يتلفّتون متفادين النظر إلى الجهة التي استمر يتمايل فيها الفانوسان بصمت، وبطريقة مفهومة جداً. وإلى اليسار كانت الغابة العارية كأنها تصطبغ باللون الأحمر، وكان يلوح شيء كبير، أبيض، منبسط. وكان يهبُّ من هناك هواء رطيب.

ـ إنه البحر، ـ قال سيرغي غولوفين وهو يتنفّس بعمقٍ ويستنشق الهواء بفمه. ـ هناك البحر.

وردّت موسيا بصوتٍ رنّان:

ـ حبّي واسع كالبحر!

ـ ماذا تقولين، يا موسيا؟

ـ حبّي واسع كالبحر، لا تستطيع أن تتسع له ضفاف الحياة.

ـ حبّي واسع كالبحر، ـ ردّد سيرغي ساهماً، متأثّراً بالكلمات ورنين الصوت.

ـ حبّي واسع كالبحر... ـ ردّد فيرنر وتعجّب بسرورٍ فجأة: ـ موسكا! كم أنتِ فتيّةٌ بعدُ!

وفجأة سمع فيرنر بالقرب من أذنه تماماً همساً حارّاً لاهثاً من الغجري:

ـ بيك، يا بيك. الغابة، آ؟ يا إلهي، ما أروعَها! وما هذا الذي هناك،

Twitter: @ketab_n

عند الفانوسين، أليست المشانقَ، يا تُرى؟ ما هذا، آ؟

نظر فيرنز فرأى الغجريّ يترنّح من الخدَر الذي يسبق الموت.

ـ حان وقت الوداع، ـ قالت تانيا كوفالتشوك.

ـ انتظري، لم يُتلَ قرارُ الحكْم بعد، ـ أجاب فيرنر. ـ وأين يانسُن؟

كان يانسُن مستلقياً على الثلج منهمكاً بشيءٍ ما حوله. وفجأة فاحت رائحة نشادر حادّة.

ـ وماذا هناك، يا دكتور؟ ـ سأل أحدهم بنفاد صبر.

ـ لا شيء، إنه إغماء بسيط. افركوا أذنيه بالثلج. لقد بدأ يصحو، يمكنكم تلاوة قرار الحكْم.

سقط ضوء الفانوس الخفيّ على الورقة واليدين البيضاوين من دون قفّازين. وكانت ترتجف الورقة واليدان؛ كان يرتجف الصوت أيضاً:

ـ ربّما لا لزوم لتلاوة قرار الحكْم، أيها السادة، فأنتم تعرفونه؟ ماذا تقولون؟

ـ لا تتلوه، ـ أجاب فيرنر عن الجميع، فانطفأ الفانوس سريعاً. كذلك رفض الجميع حضور الخوري. فابتعد خيَالٌ عريض أسوَد صامتاً، واختفى. يبدو أن الفجر كان آخذاً بالبزوغ، فقد ابيضَّ الثلج، وارتسمت قامات الناس قاتمة، وظهرت الغابة أقلّ شجراً، وأكثر كآبة وبساطة.

ـ أيها السادة، ينبغي أن تمشوا وراء بعضكم اثنين اثنين. اصطفّوا أزواجاً كما تشاءون، ولكنْ أرجوكم أن تسرعوا.

Twitter: @ketab_n

أشار فيرنر إلى يانسُن الذي كان قد وقف على رجليه يسنده شرطيّان:

ـ أنا سأمشي معه، أمّا أنت، يا سيريوجا، فخذ فاسيلي. سِيرا أمامنا.

ـ حسناً.

ـ أنا وأنتِ، يا موسِتشكا؟ ـ سألتها كوفالتشوك. ـ هيّا، فلنتبادلْ قبلة.

تبادلوا القبلات بسرعة. كان الغجريّ يقبِّل بقوّة تجعل الآخر يشعر بأسنانه. أمّا يانسُن فكان يقبِّل بلطف وفتور، بفم نصفِ مفتوح، فلم يكن ظاهراً، على أية حال، أنه يدرك ما الذي يُفعله. وعندما كان سيرغي غولوفين وكاشيرِن قد ابتعدا بضعة خطوات، توقّف كاشيرِن فجأة وقال بصوتٍ عالٍ وواضح، ولكنه غريب عنه تماماً وغير مألوف:

ـ وداعاً، يا رفاق!

ـ وداعاً، يا رفيق! ـ صرخوا ردّاً عليه.

ذهبوا. خيّم الهدوء. وتوقّف الفانوسان وراء الأشجار عن الاهتزاز. كانوا ينتظرون صيحة، صوتاً، أيّ قدْر من الضجيج، غير أن الهدوء كان مخيِّماً هناك، كما هنا، وكان الفانوسان أصفرين لا يتحرّكان.

ـ آخ، يا إلهي! ـ قال أحدهم مستسلماً، بصوتٍ مبحوح. والتفتوا فرأوا الغجري يترنّح من الخدَر الذي يسبق الموت. ـ لقد بدأ الشنق!

أشاحوا بوجوههم، وعاد السكون فخيّم من جديد. كان الغجريّ يترنّح، ويقبض على الهواء بيديه:

ـ كيف هذا ! أيها السادة، آ ؟ هل أظلّ وحدي ؟ مع الجماعة أهون. أيها السادة! ما هذا؟

Twitter: @ketab_n

وقبض على يد فيرنر بأصابع تشدّ وترتخي كأنها تلعب:

ـ يا بيك، أيها الغالي، كن معي أنت، آ ؟ اعملْ معروفاً، لا ترفض !

أجاب فيرنر متألّماً:

ـ لا أستطيع، أيها الغالي. إنني معه.

ـ آخ، يا إلهي ! سأكون وحدي، إذاً. كيف ذلك ؟ أيها السادة!

خَطَت موسيا إلى الأمام وقالت بهدوء:

ـ امشِ معي.

تراجع الغجري مترنّحاً، وقلب عينيه المصوّبتين نحوها باستغراب كبير:

ـ معكِ؟

ـ نعم.

ـ أنتِ، هذه الصغيرة! ولا تخافين؟ خيرٌ لي ، إذاً، أن أذهب وحدي. ما المشكلة !

ـ كلا، لا أخاف.

ـ هاه! ولكنني سفّاح، ألا تشمئزّين منّي؟ وإلا فخير لك ألا تفعلي. أنا لن أغضب منك.

صمتت موسيا، وبدا وجهها في ضوء القمر الضعيف شاحباً وغامضاً. ثم فجأة وبسرعة اقتربت من الغجري، وطوّقت رقبته بيديها وقبّلته

Twitter: @ketab_n

بقوّةٍ على شفتيه. فأمسك كتفيها بأصابعه وأبعدها عنه قليلاً، وهزّها، وبتمطّقٍ قويٍّ قبّلها على شفتيها، وأنفها وعينيها.

ـ فلْنمشِ!

فجأة ترنّح أقرب الجنود، فارتخت يداه وسقطت بندقيّته منه. إلا أنه لم ينحنِ ليرفعها، بل وقف لحظة دون حراك، ثم استدار بقوّةٍ، وسار مثل أعمى نحو الغابة عبر الثلج البِكر.

ـ إلى أين أنت ذاهب؟ ـ همس آخرُ بذعرٍ. ـ قفْ!

ولكنه ظل على صمته ومضى بصعوبة يشقّ الثلج العميق. لعلّه تعثّر بشيء ما، فلوّح بيديه وسقط على وجهه. وظلّ منبطحاً على هذا النحو.

ـ ارفع البندقية، يا نتِن! وإلا رفعتُها أنا! ـ قال الغجري مهدِّداً. ـ إنك لا تعرف أصول الخدمة!

عاد الفانوسان يتمايلان بهِمّة من جديد. وجاء دور فيرنر ويانسُن.

ـ وداعاً، يا بيك! ـ قال الغجريّ بصوت عالٍ. ـ سنكون أصحاباً في العالم الآخر، فلا تُنكرْني عندما تراني. وجُدْ عليَّ أحياناً بشيء من الماء لأشرب، فأنا سأتضايق من الحرارة هناك.

ـ وداعاً.

ـ لا أريد، ـ قال يانسُن بفتور.

ولكنّ فيرنر أخذه من يده، فمشى الإستوني معه عدة خطوات من تلقاء نفسه، ثم شوهِد كيف توقّف وسقط على الثلج. فانحنوا فوقه،

Twitter: @ketab_n

وأنهضـوه وحملوه، فيما راح يتخبّط بضعفٍ بين الأيدي التي تحمله. لماذا لم يصرخ ؟ لعلّه نسيَ أن له صوتاً.

ومن جديد توقف الفانوسان المصفرّان بلا حراك.

- إذاً، فأنا وحدي، يـا موسِنْكا، - قالت تانيا كوفالتشوك بحزن. - لقد عشنا معاً، والآن...

- تانِتشكا، يا غاليتي...

ولكن الغجـريَّ تدخَّل بحرارة. فقال بسرعة وجدّيّة، وهو يمسكُ بيد موسيا، وكأنه يخاف من أنه ما زال في وسعهم أن يحرموه منها:

- آخ، يـا سيّدتـي ! أنـت تستطيعين وحدك، أنت نفْسٌ طاهرة، أنت تستطيعـين أن تذهبـي وحدك أينمـا شئتِ. هل فهمـتِ ؟ أمّا أنا فلا. لأننـي سفّـاح... هل تفهمـين؟ مستحيل علـيَّ أن أذهـب وحدي. سيقولـون لي: إلى أين تحشر نفسك، أيها القاتل؟ فأنا كنت أسرق الخيل أيضـاً، أي والله! أمّـا معها، فأنا كما... مع رضيـع، أنتِ تفهمين. ألمْ تفهمي؟

- فهمتُ. ليكنْ، اذهبا. تعالي أقبّلك مرّة أخرى، يا موسِتشكا.

- فلتتبـادلا القبلات، فلتتبادلا القبلات، - قال الغجري يشجّع المرأتين. - هذا شأنكما، يجب أن يكون الوداع جيداً.

مشت موسيـا والغجري. المرأة تمشي بحذر، تنزلق قدمها وهي، على جريِ عادتها، قابضة على تنورتهـا، والرجل يسندها متأبطاً ذراعها، يحميها ويتلمّس الطريق بقدمه، ويمضي معها إلى الموت.

Twitter: @ketab_n

توقّف الفانوسان. وأحاط السكون والفراغ بتانيا كوفالتشوك. والجنود صامتون، كلّهم رماديّون في النور العديم اللون الهادئ أوّل النهار.

- إنني وحدي، - نطقت تانيا فجأة وتنهّدت. - لقد مات سيريوجا، ومات فيرنر وفاسيا. وأنا وحدي. يا جنود، أيها الجنود. وحدي أنا. وحدي...

وأشرقت الشمس فوق البحر.

راحوا يضعون الجثث في صناديق. ثم نقلوها. جثثٌ ممطوطة الرقاب، عيونها محملقة بجنون، واللسان متورِّم أزرق مثل زهرة مجهولة مخيفة، يتدلّى بين الشفاه المندّاة برغوة الدم. عادت الجثث منقولة عبر نفس الطريق التي سلكتها وهي حيَّةٌ في المجيء إلى هنا. وكان الربيع على حالته في أثناء المجيء ليِّناً وعبِقاً، وكذلك كان طريّاً وقويّاً ثلجُ الربيع. وكانت واقية الحذاء التي أضاعها سيرغي مبلّلة، مدعوكة وقد اسودّت في الثلج.

هكذا راح الناس يحيُّون شروق الشمس.

١٩٠٨

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الضحك الأحمر

(مقاطع من مخطوطٍ عُثِرَ عليه)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

...جنون ورعب.

شعرت بذلك أوّل مرّة عندما كنا نسير في طريق "إن"، - كنّا قد سرنا عشر ساعات متصلة، من غير أن نتوقف أو نبطئ السير، ومن غير أن نلتقط من يسقطون، تاركين إياهم للعدوّ الذي كان يتحرك في أعقابنا بحشود كثيفة، ثم يمسح آثار أقدامنا بأقدامه بعد ثلاث ساعات أو أربع. كان الجو قائظاً. لا أعرف كم كانت درجة الحرارة: أأربعين، أم خمسين، أم أكثر؛ كل ما أعرفه هو أن القيظ كان متصلاً، ساكناً بقنوط وعميقاً. وكانت الشمس على قدْر من الضخامة، وعلى قدْر من الالتهاب والرعب، وكأن الأرض قد اقتربت منها وسرعان ما ستحترق في هذه النار التي لا ترحم. ولم تكن العينان تنظران. وعبثاً كان البؤبؤ الصغير المتضيِّق، الصغير بحجم حبة الخشخاش، يبحث عن الظلام تحت ظلِّ الجفون المغمضة: لأن الشمس كانت تخترق حجابه الرقيق وتدخل بضوئها الدامي إلى الدماغ المنهَك. ولكنْ، رغم ذلك كان الحال أفضل، وقد سرتُ مدة طويلة، ربما بضع ساعات، مغمض العينين، أسمع كيف يتحرك الحشد حولي. كنت أسمع وقْع أقدام الناس والخيل ثقيلاً ومضطرباً، وصريرَ العجلات الحديدية وهي تسحق الحصى الدقيقة، والأنفاسَ الثقيلة، المنهَكة، وصوتاً جافّاً يصدر عن شفاه ملتهبة. ولكنني لم أسمع كلاماً. كان الجميع صامتين، وكأن الماشين جيش من الخرْسان، وعندما يسقط أحد منهم كان يسقط صامتاً، ويتعثّر الآخرون بجسده فيسقطون، ثم ينهضون صامتين،

Twitter: @ketab_n

فيتابعـون سيرهم غير ملتفتـين، وكأن أولئك الخرسـان كانوا طرشانَ وعميـانَ أيضاً. وقد تعثرت أنا كذلـك، وسقطت عدة مرات، فكنت عندئذ أفتح عينيّ لاإرادياً، فيبدو لي ما أراه خيالاً غريباً، وهذياناً ثقيلاً ينبعـث مـن الأرض وقد فقدت عقلهـا. كان الهـواء الملتهب يخفق، والأحجـار ترتعشـ من غير صـوت وكأنها على وشْـك أن تذوب، ثم صفوف مـن الناس عند المنعطف، وأسلحـة وخيول انفصلت عن الأرضـ وراحت تتأرجح ببرود ومن غـير صوت، وكأن من يسيرون ليسـوا بشراً، بل هم جيش من أشباح ليس لها أجسام. وكانت شمس رهيبـة، هائلة الحجـم قريبـة تُشعِل علـى سبطانة كل بندقيـة، وعلى صفيحـة كل حزام آلافاً من الشموس الصغيرة الباهرة التي تتسرب إلى العيون مـن كل ناحية، من الجانبين ومن الأسفل، نارية البياض، حادّة مثل حِـراب في أقصى درجات السخونة. أمّـا الحرّ الشديد الجفاف، الحارق فكان يتغلغـل إلى أعمق أعماق الجسد، إلى العظام، والدماغ، فيخيَّـل أحياناً أن ما يهتز فوق الكتفـين ليس رأساً، بل هو كرة غريبة، غير مألوفة، ثقيلة وخفيفة، رهيبة وليست لك.

وعندئـذ، عندئذ تذكـرت بيتي فجأة. تذكّرت زاويـةَ غرفتي، وقطعة مـن ورق الجدران الأزرق، وإبريقاً مـاءٍ زجاجياً يعلوه الغبار و لم تمسّه يد. كان الإبريق على طاولتـي الصغيرة، طاولتي الصغيرة التي إحدى أرجلها الثلاث أقصر من رجليها الباقيتين، وقد وُضعتْ تحته قطعة ورق ملفوفة. ويخيل إليّ أن زوجتي وابني، اللذَين لا أراهما، موجودان في الغرفـة المجاورة. ولو كان في مقـدوري أن أصرخ لصرخت من شدة روعـة ما كانت عليه هذه الصورة الهادئة، البسيطة، وهذه القطعة من ورق الجدران الأزرق والإبريق المغبّر الذي لم تمسّه يد.

Twitter: @ketab_n

أعـرف أنني توقفت رافعاً يدي، غـير أن أحداً خلفي دفعني؛ فمشيت مسرعـاً إلى الأمـام، أشقّ الصفوف، متعجـلاً لا أدري إلى أين، وأنا لم أعـد اشعر بالحـر ولا بالتعب. ومشيـت على هذا النحـو مدة طويلة عـبر صفوف صامتة لا نهاية لها، بمحاذاة قَـذالات[١٧] رؤوسٍ حمراء حرقتها الشمس، تكاد تلامس الحـراب الساخنة المنكّسة من التعب، إلى أن أوقفني التفكير بما أفعل، وإلى أين أسير بهذا الاستعجال. وبهذا الاستعجال نفسـه انعطفتُ جانباً فأطلقت العنـان لنفسي، واجتزت واديـاً، ثم جلسـت على حجر غارقـاً بأفـكاري، وكأن ذلك الحجر الساخن الخشن غايةُ مطامحي كلّها.

وهنـا شعرت بهـذا أوّل مـرة. لقد رأيـت بوضوح أن هـؤلاء الناس الذيـن يمشون صامتين في وهج الشمس، كأنهم موتى من شدة التعب والقيظ، يتمايلـون ويسقطون، ما هم إلا مجانـين. إنهم لا يعرفون إلى أين هم سائرون، ولا يعرفون لماذا هذه الشمس، إنهم لا يعرفون شيئاً. ومـا هو على أكتافهم ليـس رؤوساً، بل هو كُرات غريبة ورهيبة. وإذا بواحـد مثلي يشقّ الصفـوف على عَجل ويسقط، ثـم آخر، وثالث. وإذا برأس فرَس يرتفع فوق الحشد بعينـين حمراوين مجنونتين، وفم مكشّـر مفتـوح على سعته، لا يوحـي إلا بصرخة رهيبـة وغير عاديّة. لقـد ارتفع وسقـط، فاحتشد الناس لدقيقة في هـذا المكان، وتوقفوا، تطـرق أسماعهم أصوات مبحوحة، صمّـاء، وطلقة قصيرة، ثم تدب مـن جديد حركة صامتـة لا نهاية لها. ها أنا جالـس على هذا الحجر منـذ ساعة، وأمامي يمـرّ الجميع، وما تزال ترتعش الأرض، والهواء، وصفـوف من الأشباح البعيدة. ومرة أخـرى يخترقني القيظ الجافّ،

١٧- جمع قَذال، وهو قفا الرأس. - م.

Twitter: @ketab_n

ولا أعود أذكر ما خُيِّل إليّ لثانية، فيما يتابع الناس السير بالقرب منّي، وأنا لا أفهم من هم هؤلاء. إنني قبل ساعة كنت جالساً على هذا الحجر وحدي، أمّا الآن فقد اجتمعت حولي زمرة من الناس الرماديين: بعضهم مستلقون، ولا يأتون بحركة، لعلّهم ماتوا؛ وآخرون جالسون وهم ينظرون متحجّرين مثلي إلى المارّة. بعضهم يحملون بنادق، وهم يشبهون الجنود، وآخرون عراة تماماً تقريباً، وجلد أجسامهم وردي شديد الحمرة، يصدُّ الرغبة بالنظر إليه. وغير بعيد عني يستلقي شخص كاشفاً عن ظهره العاري. ويظهر من الطريقة اللامبالية التي يتشبث بها وجهه بالحجر الحادّ الساخن، ومن بياض كفّه المقلوبة أنه ميت، غير أن ظهره أحمر كظهر إنسان حيّ، وما من شيء يدل على موته إلا ملمح اصفرار خفيف يشبه لون اللّحم المدخَّن. يخطر لي أن أبتعد قليلاً عنه، ولكنْ لا قدرة لي على ذلك، فأنظر مترنّحاً إلى ما لا نهاية له من صفوف الأشباح المتمايلة في سيرها. وأعرف من حالة رأسي أنني سأصاب الآن بضربة شمس، غير أنني أنتظر ذلك بهدوء، كأنني في حلمٍ لا يكون الموت فيه إلا مرحلة على طريق رؤىً بديعة ومتداخلة.

وإذا بي أرى كيف يخرج من هذا الحشد جندي ويتوجه نحونا بخطى ثابتة. إنه يختفي لدقيقة في خندق، وعندما يخرج منه ويتابع سيره تكون خطواته واهنة، وتشعر بأنه يبذل آخر قواه في وهو يحاول أن يستجمع جسده المتهالك. إنه يسير باتجاهي تماماً، حتى إني، عِبْر النعاس الثقيل الذي يسيطر على دماغي، أخاف وأساله:

- ماذا تريد؟

إنه يتوقّف وكأنه ما كان ينتظر إلا كلمة، وينتصب ضخماً، ملتحياً، ممزَّق القبّة، ليس معه بندقية، وبنطاله مثبّت على جسمه بزرٍ واحد،

Twitter: @ketab_n

وتكشف ثيابه الممزقة عن جسمه الأبيض. يداه ورجلاه مشتتة، ويبدو عليـه أنه يحاول جمعها، ولكنه لا يستطيع، ذلك أنه ما إن يجمع يديه حتى تعودا لتفترقا في الحال.

- ما لك؟ خير لك أن تجلس، ـ أقول له.

إلا أنه يظل واقفاً، عبثـاً يحاول التسلل، صامتاً وينظر إليّ. وأنا أنهض لاإرادياً عن الحجر، وأنظر في عينيه مترنحاً فأرى فيهما لجّة من الرعب والجنـون. إن الحدقتين متضيّقتان عند كل إنسان، أمّا الحدقة عنده فقد ساحت حتى ملأت العين كلّها، فَيا لَبحر النار الذي يجب أن يراه من خلال هاتين النافذتين الهائلتـي الحجم. ربّما يكون ذلك قد خُيِّل إليّ، وربّمـا لم يكن في نظرتـه إلا الموت، ولكنْ لا، فأنـا لست مخطئاً، فقد كان في هاتين المقلتين السوداوين اللتين لا قاع لهما، المحاطتين بدائرة صغـيرة ضيِّقة، كمُقَل العصافير، ما هو أكثر من الموت، ما هو أكثر من رعب الموت.

- انصرفْ ! - أصرخُ متراجعاً. - انصرفْ !

وكأنه لم يكن ينتظر إلا كلمة، فإذا به يقع عليَّ فيُسقطني على الأرض، كمـا هو بـكل ضخامتـه، وتشتته، وانعـدام صوته. وبجهـدٍ جهيد أسحـب رجليّ من تحتـه، ثم أثب وأريد الهـرب إلى أيّ مكانٍ مبتعداً عن الناس، إلى الأفق المشمِس، المرتعش، الخالي من الناس، حتى دوّت مـن الجهة اليسرى، على القمة، طلقة تلتها في الحال كالصدى طلقتان أخريان.

لقد سبقونا!

Twitter: @ketab_n

لم يعد هنــاك بعدُ ذلك الحَرُّ المميت، ولا ذلك الرعب، ولا التعب. ها هي أفكاري صافيــة، وتصوراتي جلية وحادّة؛ وعندما أدنو لاهثاً من الصفوف الآخذة بالانتظام أرى وجوهاً نوَّرت وكأنها فرِحة، وأسمع أصواتاً مبحوحــة ولكنها صاخبة، وأوامرَ، ونكاتاً. لكأن الشمس قد ارتفعت عالياً، فباتت شاحبة وهدأت لكي لا تضايق أحداً، وإذا بقنبلة من جديد تشقّ الهواء بزعيقٍ فرِح، كأنها جنّيّة.

فاقتربت.

المقطع الثاني

... جميــع الخيول والخدم تقريباً. في الكتيبة الثامنــة أيضاً. وفي سَرِيَّتنا الثانيــة عشــرة، لم يبق في آخر اليــوم الثالث إلا ثلاثة مدافــع، والباقي أصيــب، وستّةُ أنفار من الخدم وضابــطٌ واحد هو أنا. لقد مضى علينا عشــرون ساعة لم ننَمْ فيهــا، ولم نأكل شيئاً، وطول ثلاثــة أيام بلياليها يلفّنــا هدير شيطاني وقعقعة بسحابة من الجنون، ويفصلنا عن الأرض، وعــن السماء، وعن جماعتنا، فنتسكّع - نحــن الأحياءَ - كأننا نسير نياماً. أمّــا الموتى فقد استلقوا بهدوء، فيمــا مضينا نحن نسير، ونفعل مــا يجب علينا فعلُه، ونتحدث بل ونضحــك، وكنّا كالسائرين نياماً. كانــت حركاتنا واثقة وسريعة، والأوامــر واضحة، والتنفيذ دقيقاً. إلا أنــك إذا مــا سألتَ فجأة كلاً منّا عمّن يكون لــكان من الصعب عليه أنَ يجــد جواباً في ذهنــه العكِر. وكما في الحلم كانــت الوجوه كلها تبــدو معروفة منذ مدة طويلة، وبدا وكأن كلَّ ما كان معروفاً ومفهوماً منــذ زمن بعيد، إنما سبق له أن وقع ذات يوم مضى؛ وعندما كنت أبدأ

Twitter: @ketab_n

بتدقيق النظر في وجه أحد منهم أو في مدفع، أو أستمع إلى القعقعة، كان كل شيء يذهلني بجدته وغموضه اللانهائي. لم نكن نلحظ كيف يجيء الليل، ولم يكن يتسنّى لنا أن نراه ونتعجّب من أين جاء حتى تكون الشمس قد عادت لتسطع فوقنا من جديد. ولم نكن نعلم إلا ممن يأتون إلى السَّرِيَّة أن المعركة تدخل يومها الثالث، ثم لا نلبث أن ننسى ذلك في الحال. فقد كان يتهيّأ لنا أن ذلك ليس إلا يوماً واحداً لا نهاية له ولا بداية، تارة يكون مظلماً، وتارة ساطعاً، ولكنه غامض بقدْر واحد. ولم يكن أحد منا يخاف الموت، إذ لم يكن بيننا أحد يفهم ما هو الموت.

وفي الليلة الثالثة أو الرابعة، لا أذكر، استلقيت لدقيقة واحدة وراء المدفع، وما إن أغمضت عينيّ حتى طالعتْهما تلك الصورة المألوفة وغير العادية نفسها: تلك القطعة من ورق الجدران الأزرق والإبريق الزجاجي المغبّر على طاولتي لم تمسّه يد. وخُيِّل إليّ أن زوجتي وابني موجودان في الغرفة المجاورة، وأنا لا أراهما. غير أنه كان مشتعلاً على الطاولة الآن مصباح كهربائي تعلوه ظليلة خضراء، إذاً فقد كان الوقت مساء أو ليلاً. وتوقّفت الصورة دون حراك، ومضيت أتأمّل بنظري طويلاً، بهدوء كبير، واهتمام كبير كيف يتلألأ الضوء في كريستال الإبريق، وأدقق النظر في ورق الجدران، وأفكّر لماذا ابني ليس نائماً، فقد حلّ الليل، وآن له أن ينام. ثم رحت أدقق النظر مرة ثانية بورق الجدران، وبكل تلك الأشياء المجدولة، والأزهار الفضية اللون، وبحديد النوافذ، والمداخن، فلم أكن أظنّ في يوم من الأيام أنني أعرف غرفتي كل هذه المعرفة. كنت أحياناً أفتح عينيّ وأرى سماء سوداء فيها ألسنة نارية جميلة، فأغمضهما من جديد، وأعود

Twitter: @ketab_n

أدقـق النظر بورق الجدران، وبالإبريق المشعّ، وأفكّر لماذا لا ينام ابني، فقد حـلّ الليل، وقد آن له أن ينام. وذات مرة انفجرتْ قنبلة غيرَ بعيد عنّي وأصابت رِجليّ بشيء ما، فأطلق أحدهم صرخة عالية، أعلى من الانفجـار نفسـه، وعندها خطر لي: «لقد قُتل أحـد ما!»، ولكنني لم أنهض و لم أكفّ عن النظر إلى ورق الجدران الأزرق والإبريق.

ثـم نهضـت بعد ذلـك، فتمشيت، وأعطيـت الأوامـر، ونظرت إلى الوجـوه، وسـدّدت السلاح، فيما كنت مستمـراً في التفكير: لماذا لا ينـام ابني؟ وذات مـرة توجهت بهذا السؤال إلى خيّـال، فظلّ وقتاً طويـلاً يشرح لي شيئـاً ما وبالتفصيل، فيمـا كان كل منّا يهز رأسه. ثم أطلـق ضحكة، واختلـج حاجبه الأيسر، وغمـزت عينه بدهاء مشيرة إلى شخـص وراءنا، وكان يُرى وراءنا نعلُ قدمَي شخص ما، ولا شيء آخر.

في هـذا الوقت كان قد طلع الضـوء، وفجأة بـدأت تتساقط قطرات المطـر. كان مطـراً كالمطـر عندنا، قطرات مـاء عادية تمامـاً. لقد كان مفاجئـاً تماماً وفي غـير وقته، ومع ذلـك بلغ بنا الخوف مـن البلل أن تركنـا مدافعنا، وتوقفنا عـن القصف، وشرعنا نختبئ أينمـا اتُفق. أمّا الخيّـال الذي كنت أتحـدث معه قبل قليل فقد زحـف إلى تحت المدفع وسها هنـاك، رغم أنه كان مهـدداً بالسحق كل دقيقـة. ولسبب غير معروف راح جنديُّ الألعاب النارية يجرِّد قتيلاً من ثيابه، بينما طفقت أنـا أركض عشوائيـاً في السرية أبحث عن شيء ما، عن ممطر أو مظلة. وسرعان ما خيّم في الحال هدوء عجيب على المكان الهائل الذي هطل فيه المطر من غيمة هائمة. وبعد فوات الأوان أزّت قنبلة وانفجرت ثم حلَّ السكون، قدْرٌ من السكون كنت تسمع فيه أنفاس جندي الألعاب

Twitter: @ketab_n

النارية البدين، وقطرات المطر وهي تطرق الحجر والمدافع. وكأن هذا الطرْق الخفيض والمتقطع الذي كان يذكّر بالخريف، ورائحةُ الأرض البليلة، والسكينةُ قد مزّق لهنيهة ذلك الكابوس الدموي والهمجي، وعندما ألقيت نظرة على المدفع المبلَل الذي يلمع تحت الماء ذكّرني على حين غرّة وعلى نحوٍ غريب بشيء غالٍ، هادئ، قد يكون طفولتي، وقد يكون حبّي الأولَ. وإذا بأوّل طلقة تدوّي دوياً عالياً فوق الحد في مكان بعيد، فتبدّدت روعة السكون الذي لم يدُم إلا لحظة؛ وبالطريقة المباغتة نفسها التي اختفى بها البشر شرعوا يخرجون من مخابئهم، وصرخ جندي الألعاب النارية البدين بأحدٍ ما، ودوّت قذيفة مدفع، وتلتها قذيفة ثانية، ومرّة أخرى لفّ الضباب الدموي السميك الأدمغة المنهَكة. و لم ينتبه أحدٌ إلى لحظة انقطاع المطر؛ وكل ما أذكره هو أن الماء راح يقطر من جندي الألعاب النارية القتيل، من وجهه الأصفر، السمين المتهدِّل؛ فقد يكون المطر استمر بالهطول وقتاً طويلاً جدّاً...

...كان يقف أمامي جنديٌّ متطوِّع فتيٌّ يبلِّغني أمراً، وهو رافعٌ يده بالتحية، بأن الجنرال يطلب منّا الصمود مدة ساعتين فقط، ريثما تصل الإمدادات. كنت أفكر لماذا ليس ابني نائماً، وأجيب بأني قادر على الصمود قدْرَ ما يطلبون. إلا أن وجهه لفت انتباهي إليه في تلك اللحظة لسبب ما، ربما بشحوبه المذهل العجيب. ذلك أني لم أرَ وجهاً أكثر بياضاً منه، فحتّى الموتى يكون في وجوههم لونٌ أكثر مما في هذا الوجه الفتي الذي لم ينبت شارباه بعدُ. لعلّه خاف وهو في طريقه إلينا خوفاً قوياً، و لم يستطع التخلُّص منه، وقد رفع يده بالتحية من أجل أن يطرد بهذه الحركة البسيطة، المألوفة خوفَه المجنون.

- هل أنت خائف؟- سألته وأنا ألمس مِرفقه. غير أن مرفقه كان كأنه

Twitter: @ketab_n

من خشـب، أمّا هو فابتسم بهدوء وظلّ صامتاً. بالأحرى، لم ترتعش في بسمتـه إلا شفتـاه، بينما لم يكـن في عينيـه إلا الشباب والخوف، ولا أيٌّ شـيء آخـر. - هل أنت خائـف؟ - أعدت السـؤال بلطف. فارتعشـت شفتاه وهو يجاهد لنطق كلمـة، وفي اللحظة ذاتها حدث شـيء غامض، رهيـب، خارق. فقـد هبَّت على خـدّي الأيمن نسمة دافئة، فترنّحتُ بقوّة ولا شيء آخر، بينما ظهر أمام عينيّ مكانَ الوجه الشاحـب شيءٌ قصير، بليدٌ، أحمـرُ، ومنه يتدفّق الدمُ كما من زجاجة مفتوحـة كالتـي يرسمونها علـى اليافطات الرديئـة. وفي هذا الشيء القصير، الأحمر، النازف استمرَّت أيضاً بسمةٌ ما، ضحكٌ بلا أسنان، إنه الضحكٌ الأحمر.

لقـد عرفته، عرفت هذا الضحك الأحمر. كنت أبحث عنه ووجدته، هـذا الضحك الأحمر. وقـد فهمت الآن ما الذي كان في جميع هذه الأجسـاد المشوّهة، الممزّقة، الغريبة. لقد كان ذلك ضحكاً أحمر. إنه في السماء، إنه في الشمس، وسرعان ما سيتدفّق في الأرض كلِّها، هذا الضحك الأحمر!

أمّا هم، فبوضوحٍ وهدوء كالسائرين نياماً...

المقطع الثالث

...جنون ورعب.

يُحكـى أنه ظهر في جيشنا وجيش العـدوّ كثير من المرضى النفسيين. فقد افتُتح عندنا حتى الآن أربع حجرات للعلاج النفسي. عندما كنت في مركز القيادة أراني الضابط المعاون...

Twitter: @ketab_n

المقطع الرابع

...التفّوا كالأفاعي. لقد شاهد كيف شقَّ السلكُ الشائكK المقطوع من أحد طرفيه K الهواءَ ولفّ ثلاثة جنود. فمزّقت أشواكه معاطفهم العسكرية، وانغرست في أجسامهم، ودار الجنود دورة مسعورة صارخين، وجرّ اثنان منهما وراءهما الجندي الثالث الذي كان قد مات. ثم ظل واحد منهم على قيد الحياة، فراح يحاول التخلص من الجنديين الميتين، بينما كان هذان يتمرّغان، ويدوران، ويتقلّبان واحداً فوق الآخر وفوقه هو، وسرعان ما صار الجميع فجأة بلا حراك.

لقد قال لي إن عدد الذين استُشهِدوا بالقرب من الحاجز وحده لا يقلّ عن ألفَي إنسان. فبينما كانوا يقطعون هذا السلك الشائك، ويتعثرون بالتفافاته الأفعوانية أمطروهم بوابل مديد من الرصاص والشظايا المعدنية. وهو يؤكد أن الوضع كان مرعباً جداً، وأن هذا الهجوم كان يمكن أن ينتهي بالجنود إلى هروب اعتباطي لو كانوا يعرفون في أي اتجاه يهربون. إلا أن وجود عشرة خطوط أو اثني عشر خطّاً متواصلا من الأسلاك الشائكة، ومواجهتها، ومتاهة كاملة من حفرات الذئاب التي زُرِع قاعها بالحراب هو ما دوّخ رؤوسهم بطريقة جعلتهم حقّاً يفقدون القدرة على تحديد الاتجاه.

لقد سقط بعضهم كالعميان في حُفَرٍ تشبه القِمع فتمزّقت بطونهم وتدلّت على حِراب حادّة، وراحوا يرتعشون ويتراقصون مثل دُمى الأطفال، وكانت تسقط فوقهم أجسام جديدة، فلا تلبث أن تتحول الحفرة كلها حتى أعلاها إلى ركامٍ راعش من الأجساد الحيّة والميِّتة

Twitter: @ketab_n

الملطّخة بالدماء. ومن كل مكان تحت هذا الركام كانت ترتفع الأيدي، وتتقلص الأصابع فيها بتشنج وهي تحاول القبض على أي شيء، وكان كل من يقع في هذا الشرك يغدو عاجزاً عن النجاة. فقد كانت مئات من الأصابع القوية والعميـاء، كالكمّاشات، تُطبق على الأرجل، وتتشبّث بالثيـاب، فتُسقط المرء عليها، وتنغرس في عينيه وتخنقه. وكان كثيرون كالعميـان يركضـون مباشرة نحـو الأسـلاك الشائكة فيتدلّـون عليها ويبدؤون بالصراخ إلى أن تُجهِز عليهم رصاصة.

وعمومـاً، فقد تبدّى له الجميع شبيهـين بالسكارى: بعضهم كان يطلق شتائـم مرعبة، وآخرون يقهقهون عندما يلتـف السلك على أيديهم أو أرجلهـم ويموتون في الحـال. ورغم أنـه لم يأكل و لم يشـرب شيئاً منذ الصبـاح، فقد أحسَّ هـو نفسه بإحساس رهيب جـداً: لقد دار رأسه، وكان يحـل محل الخوف عنده في بعض الدقائق ذهولٌ همجي، ذهولُ رعـب. وعندما انطلـق أحدهـم بالغناء قريباً منه شـارك في الأغنية، وما لبثـت أن تشكّلت جوقة كاملة متآلفة جـداً. إنه لا يذكر ما الذي كانوا يغنّونـه، غير أن ذلـك كان شيئاً مرحاً، وباعثاً علـى الرقص. أجل، لقد كانـوا يغنّون، وكان كل ما يحيط بهم أحمـر اللون من الدم. وخُيِّل أن السمـاء نفسها كانت حمراء، وكان في الإمـكان الظن بأن الكون كلّه تعرَّض لحدوث كارثة مـا، لتغيُّرٍ غريب مـا ولزوال الألـوان فيه. فقد اختفـى الأزرق والأخضر والألـوان الأخرى الاعتياديـة والهادئة، أمّا الشمس فاتّقدت شعلة حمراء يتطاير منها الشرر.

ـ إنه الضحك الأحمر، – قلت.

غير أنه لم يفهم.

Twitter: @ketab_n

ـ أجل، وقهقهنا. لقد قلت لك. كالسكارى. بل ولعلّنا رقصنا، فقد كان ثمة شيء من ذلك. أقلّه أن حركات أولئك الثلاثة كانت تشبه الرقص.

فهو يذكر بجلاء أنه عندما أصيب برصاصة طائشة اخترقت صدره وسقط ، ظل بعض الوقت، قبل أن يفقد الوعي، يلوِّح برجليه، وكأنه يراقص شخصاً آخر. وهو يتذكّر الآن ذلك الهجوم بشعورٍ غريب، جزءٌ منه الخوف، وجزء آخر يشبه الرغبة بتجريب ذلك مرة ثانية.

ـ وبأن تصيبك في الصدر رصاصة من جديد؟ ـ سألتُه.

ـ انظروا! لا تصيبك في كل مرة رصاصة. ولكني أتمنّى، أيها الرفيق، أن أحصل على وسام الشجاعة.

كان مستلقياً على ظهره، أصفر اللون، حادَّ الأنف، ناتئ عظمتَي الوجه، غائر العينين، فكان وهو مستلقٍ يشبه الميت، ويحلم بوسام. لقد بدأ التقيُّحُ بالظهور على جرحه، وارتفعت حرارته بقوّة، وكانوا بعد ثلاثة أيام سيُلقون به في حفرة، مع الموتى، بينما كان مستلقياً، يضحك حالماً ويتحدّث عن الوسام.

ـ وهل أرسلت برقية لأمِّك؟ – سألته.

فنظر إليّ بخوف، ولكنها كانت نظرة صارمة وغاضبة، و لم يُجِب. ولذتُ بالصمت فسمعت أنين الجرحى وهذيانهم. غير أنه، عندما نهضت لأنصرف، شدَّ على يدي بيده الحارّة التي كانت ما تزال قوية، وبِحيرة وحزنٍ تشبّثت بي عيناه الغائرتان المتّقدتان.

ـ وما هذا، آ؟ ما هذا ؟ – سألني بخوف وإلحاح وهو يهزّ يدي.

ـ ماذا ؟

Twitter: @ketab_n

- عموماً... كلّ هذا. أليست تنتظرني ؟ ولكنّي لا أستطيع. إنه الوطن، وهل تستطيع أن تُفهمها ما هو الوطن؟

- الضحك الأحمر. - أجبته.

- آخ ! أنت لا تكفّ عن المزاح، فيما أنا جادّ. لا بد من الشرح، ولكنْ هل تستطيع أن تشرح لها؟ ليتَك تعرف ما الذي تكتبه لي! ما الذي تكتبه! وأنت لا تعرف أن كلماتها شيباء. وأنت... - ونظر بفضول إلى رأسي، وأشار إليه بإصبعه وقال بعد أن ضحك فجأة:

- ولكنك أُصبت بالصلع. هل لاحظت ذلك ؟

- لا يوجد مرايا هنا.

- إن من أصابهم الشيب والصلع هنا كثيرون. اسمعْ، هاتِ لي مرآة. هات! فأنا أشعر بأن شعرات بيضاء تخرج من رأسي. هاتِ لي مرآة!

لقد بدأ عنده الهذيان، وراح يبكي ويصرخ، فانصرفت من المشفى الميداني.

لقد أقمنا في هذا المساء عيداً، كان عيداً حزيناً وغريباً. كانت أشباح الموتى حاضرة بين الضيوف فيه. فقد قررنا أن نجتمع في المساء وأن نشرب الشاي، كما نفعل في البيت، وفي أوقات النزهة، وحصلنا على سماور[١٨]، بل وحصلنا أيضاً على ليمون وكؤوس، وجلسنا تحت شجرة، كما حين نكون في البيت، كما في أوقات النزهة. وتقاطر

١٨- السماور وعاء معدني روسي لتحضير الشاي، مخروطي الشكل، له قوائم قصيرة. كان في الماضي مزوّداً بأنبوب إسطواني داخله لإشعال الفحم الطبيعي فيه. واستُعيض عن الفحم بعد ذلك بالكيروسين، ثم بالكهرباء. - م.

Twitter: @ketab_n

الرفاق أفراداً وأزواجـاً وثُلاثَ، فكانوا يقتربون صاخبين، يتكلّمون، ويمزحـون، مفعَمين بالترقب المرح، غير أنهـم سرعان ما صمتوا وهم يتفـادون تبـادل النظرات فيما بينهـم، فقد كان ثمـة شيء رهيب في هذا الاجتماع الذي يعقده الناجـون. نحن، الرجال الممزَّقي الثياب، الوسخـين، الذيـن نحكّ جلودنـا كمن أصيـب بجرح بليـغ، نحن الذيـن طالت شعورنا، الناحلين والهزيلـين، الفاقدين المظهر المعروف والمألوف، كأنّنا لم يرَ بعضُنا بعضاً إلا الآن، حول سماور الشاي، رأينا ذلك وأصابنـا الخوف. عبثاً رحت أبحث بين هـذا الحشد من الناس المرتبكين الحائرين عن وجوه أعرفها، و لم أستطِع أن أجد أحداً. هؤلاء الناس القلقون، العجولون، بحركاتهم التـي تشبه التدافع، المرتجفون لكل طرْقة، الباحثون أبداً عن شيء ما وراءهم، الذين يحاولون بفيض مـن حركات اليدين أن يملؤوا ذلك الفـراغ المبهم الذي يرعبهم النظر إليه، كانوا أناساً جديدين، أناساً غرباء لا أعرفهم. وكان رنين أصواتهم جديـداً، متقطّعاً، على دفعات، ينطقون الـكلام بصعوبة، ويتحوّلون إلى الصراخ بخفّة ولسبب تافه، أو إلى الضحك المنفلت، العديم المعنى. وكان غريبـاً كل شيء. كانت الشجرة غريبـة، والغروب غريباً، والماء غريباً، له رائحةٌ وطعمٌ غريبان، وكأننا تُركنا مع الموتى والأرض وانتقلنا إلى عالم آخـر، عالم من الظواهر المحاطة بالأسـرار والظلال المكفهرّة الشريـرة. كان الغروب أصفر اللون، بـارداً؛ تتدلّى فوقه سحبٌ ثقيلة، سوداء، لا يضيئهـا شيء، ولا تتحرّك، وكانـت الأرض تحتها سوداء، وكانـت وجوهنا في هذا الضياء الشرير صفراء كوجوه الموتى. ونظرنا جميعاً إلى السماور، ولكنـه انطفأ، وعكست جوانبه صفرة الغروب وخطره، فأصبح أيضاً غريباً، وميتاً، وغير مفهوم.

Twitter: @ketab_n

ـ أين نحن؟ – سأل أحدهم، وكان في صوته قلق وخوف.

تنهّـد شخص. وفرقع شخص آخر أصابعـه بتشنّج، وثمّة مَن ضحك وقفز وراح يتمشّى حول الطاولة. وبات في الإمكَان الآن أن تصادف كثـيراً هـؤلاء الناسَ الذين كانـوا يسيرون مسرعـين، راكضين تقريباً، صامتين صمتاً غريباً أحياناً، يتمتمون تمتمة غريبة أحياناً أخرى.

ـ في الحـرب، – أجـاب ذلك الذي كان يضحك، وعـاد إلى القهقهة بضحكة صمّاء، طويلة، وكأنه غصّ بشيء ما.

ـ ما له يقهقه ؟ – استاء أحدهم. ـ اسمع، فلنتوقّف !

فغصّ ذلك الشخص مرة أخرى، واختصر ضحكه، ثم صمت طائعاً. حـلّ الظـلام، ودنت سحابة مـن الأرض، و لم نَعُدْ نميّـز وجوه بعضنا البعض الصفراء كوجوه الأشباح إلا بصعوبة. سأل أحدنا:

ـ وأين «بوتِك»[١٩] ؟

«بوتِك» اسم أطلقناه على رفيق هو ضابط صغير يلبس جزمة كبيرة لا يخترقها الماء.

ـ لقد كان هنا الآن. بوتِك، أين أنت ؟

ـ لا تختبئ، يا بوتِك ! إننا نشمّ رائحة جزمتك.

ضحك الجميع، ثم قطع الضحكَ صوتٌ غليظ مستاء جاء من الظلام:

ـ كفّوا، عيبٌ عليكم. لقد قُتل بوتِك صباح اليوم في عملية استطلاع.

ـ لقد كان هنا قبل قليل. هذا خطأ.

١٩–بوتِك (بوط) من الكلمات العامية الدخيلة، تعني جزمة قصيرة صغيرة. ـ م.

Twitter: @ketab_n

ـ هذا ما خُيِّل إليك. أنت، يا هذا الجالس بالقرب من السماور، أسرعْ واقطع لي شرحة ليمون.

ـ ولي أيضاً ! ولي !

ـ الليمونة كلّها.

ـ ما هذا، أيها السادة ؟ – بحزنٍ ردّ صوت أحدهم باكياً تقريباً، خفيضاً، ومتذمّراً. – فأنا ما جئت إلا من أجل الليمون.

عاد ذلك الشخص إلى القهقهة بصوت أصمّ وطويل، و لم يقم أحد بإسكاته. غير أنه ما لبث أن سكت. ثم أطلق ضحكة صغيرة مرة أخرى وصمت. قال أحدهم:

– الهجوم غداً.

وصرخ عدد من الأصوات بغضب:

ـ دعك من ذلك ! أيّ هجوم هذا !

– أنتم أنفسكم تعرفون...

– يكفي. ألا يمكن الحديث عن شيء آخر. ما هذا !

انطفأ الغروب. ارتفعت السحابة، وكأنما صار ثمة مزيد من الضوء، وباتت الوجوه معروفة، وهدأ ذلك الذي كان يدور حولنا وجلس.

– كيف هي الأحوال الآن في البيت ؟ – سأل سؤالاً غير محدد، وكان صوته ينم عن بسمة فيها شيء من الإحساس بالذنب.

ومن جديد عاد كل شيء مخيفاً، وغير مفهوم، وغريباً حتى الرعب، وحتى فقدان الوعي تقريباً. وما لبثنا أن انخرطنا في الحديث كلّنا،

Twitter: @ketab_n

وصرخنـا. وتململنا، ورحنا نحـرّك الكؤوس ويلمسـ بعضنا أكتاف بعض والأيدي والرُّكب، ثم صمتنا فوراً، متراجعين أمام الغامض.

ـ في البيـت؟ – صـرخ أحدهـم في الظلام. كان صوتـه مبحوحاً من الاضطـراب، ومن الغضب، وكان يرتجف. و لم يتمكن من نطق بعض الكلمـات وكأنه لم يعد يحسـن نطقها. ـ في البيـت؟ أيّ بيت، وهل مـن بيت في أيّ مـكان؟ لا تقاطعوني، وإلا بـدأت بإطلاق النار. في البيـت كنت أستحـمّ في البانيو كل يوم، هل تفهمـون، بانيو فيه ماء، فيـه ماء حتى حوافّه. أمّا الآن فأنا لا أغسل وجهي كل يوم، وثمة على رأسي ندوبٌ مفلطحة، وقشور فطريات، فأحكّ جسمي كلّه، وتدبّ علـى جسمي ، تـدبّ... إنني أفقـد عقلي من الوسخ، ثـم تقولون ـ البيـت! إنني كالبهيمة، وأنـا أحتقر نفسي، أنـا لا أعرف نفسي، و لم يعد الموت يخيفني إلى هذا الحدّ إطلاقاً. إنكم تمزّقون دماغي بالقنابل، دماغـي! أينمـا أطلقتم النار تصيبون دماغي، ثـم تقولون ـ البيت! أيُّ بيـت؟ الشارع، النوافذ، الناس! إننـي لا أخرج الآن إلى الشارع، فأنا أشعـر بالعار. لقد أحضرتم السماور وكنـت أخجل من النظر إليه. إلى السماور.

ضحك ذلك الشخص مرة أخرى. وصرخ أحدهـم:

ـ هذا كلام سخيف. إني سأذهب إلى البيت.

ـ إلى البيت؟

ـ أنت لا تعرف ما معنى البيت!

ـ إلى البيت؟ اسمعوا: إنه يريد أن يذهب إلى البيت!

جلجل ضحك جماعي وصراخ رهيب، ثم صمت الجميع من جديد،

Twitter: @ketab_n

متراجعين أمام الغامض. وعندها لم أكن وحدي، بل نحن جميعاً، أيّاً كان عددنا، شعرنا بـ هذا. لقد داهمنا قادماً من تلك البراري المظلمة، المبهمة، الغريبة؛ صعد إلينا من الوديان البعيدة السوداء التي ربّما لا يزال يموت فيها المنسيّون والضائعون بين الصخور، لقد تدفّق من هذه السماء الغريبة التي لا مثيل لها. كنّا نقف صامتين، فاقدين وعينا من الرعب، حول السماور المنطفئ، ومن السماء راح يحدّق فينا بنظره صامتاً، ملحّاً ظِلٌّ عديم الشكل، هائلٌ كان قد ارتفع عالياً فوق العالم. وفجأة، بالقرب منا تماماً، ربّما عند قائد اللواء، عزفت موسيقى، وكأن أصواتها العالية، المسعورة فرَحاً قد انبثقت وسط الليل والسكون. كانت الموسيقى العجولة، المتذبذبة، الشديدة الارتفاع، الشديدة البهجة تصدح بمرح مسعور واستهتارٍ، وكان واضحاً أن أولئك الذين يعزفون، وأولئك الذين يستمعون يرون أيضاً مثلنا هذا الظل الضخم، العديم الشكل، الذي ارتفع فوق العالم.

أمّا ذلك الذي كان يعزف في الأوركسترا على البوق فقد بات، على ما يبدو، يحمل في نفسه، وفي دماغه، وفي أذنيه هذا الظل الهائل، الصامت. وكان يصدر عن عزفه صوتٌ متقطّعٌ، متكسّر، يروح ويجيء ويتقافز، ويركض جانباً مبتعداً عن الأصوات الأخرى، وحيداً مرتجفاً من الرعب، ومجنوناً. وكأن أصوات العزف الأخرى كانت تحذو حذوه؛ وبكل ارتباك، وتعثُّرٍ كانت تسقط وتنهض، وهي تركض حشداً ممزّقاً من أصوات شديدة الارتفاع، شديدة المرح، شديدة القرب من الوديان السوداء التي ربّما كان ما يزال يموت فيها أناس منسيون، ضائعون بين الصخور.

وطال وقوفنا حول السماور المنطفئ ونحن صامتون.

Twitter: @ketab_n

المقطع الخامس

... كنت قد غفوت عندما أيقظني الطبيب بهزّات حذرة. صرخت وأنا أستيقظ وأقفز، مثلما صرخنا كلّنا عندما أيقظونا، واندفعت صوب باب الخروج من الخيمة.

غير أن الطبيب قبض على يدي بقوة وراح يعتذر:

- لقد أخفتُك، سامحني. فأنا أعرف أنك تريد أن تنام...

- خمسة أيام... - تمتمت وأنا أستسلم للنوم، فغفوت ونمت وقتاً طويلاً، كما خُيِّل إليّ، عندما عاد الطبيب إلى الكلام وهو يلكزني بحذر في خاصرتيّ ورجليّ.

- هذا ضروري جداً. يا حبّوب، من فضلك، ضروري للغاية. ما زال يبدو لي... لا أستطيع. ما زال يبدو لي أنه بقيَ هناك جرحى...

- أيّ جرحى؟ لقد ظللتم تنقلونهم طول النهار. لا تعكِّر هدوئي. هذا ليس عدلاً، فأنا لم أنم منذ خمسة أيام!

- لا تغضب، يا حبّوب، - تمتم الطبيب وهو يضع القبعة على رأسي بارتباك. - الجميع نائمون، لا يمكن إيقاظهم بسهولة. لقد حصلت على قطار يجرُّ سبع مقطورات، ولكننا بحاجة إلى الناس. إنني أفهمك... أتوسّل إليك، يا حبّوب. فالجميع نائمون، وكلّهم يرفضون. وأنا نفسي أخاف أن أغفو. إنني لا أذكر متى نمت. يبدو أني بدأت بالهلوسة. أنزِلْ رجليك، يا حبّوب، أنزل رجلاً واحدة، نعم، هكذا، هكذا...

Twitter: @ketab_n

كان الطبيـب شاحباً وكان يتمايـل، وكان بادياً أنه ما إنْ يستلقي حتّى يغطّ في نوم يستمر عدة أيام متواصلة. وانثنت ساقاي تحتي، وأنا واثق أننـي غفوت ونحن سائرون، إذ فجأة، وعلى حين غرة، لا أعرف من أين انتصب أمامَنا عدد من الأشباح السوداء هي القطار والمقطورات. وكان بالقـرب منهـا أشخاصٍ يروحون ويجيئون ببـطء وصمت لا يراهـم المرء إلا بالـكاد. و لم يكن على القطـار ولا في المقطورات أيّ مصبـاح، لم يكن ثمة إلا ضوء باهـت، ضارب إلى الحمرة يتسرّب إلى الرصيف من فتحة التهوية المغلقة.

ـ ما هذا ؟ ـ سألت متراجعاً.

ـ قلت لك إننا سنسافر. هل نسيت؟ نحن مسافرون، ـ تمتم الطبيب.

كانـت الليلة باردة، وكان يرتجف من البرد، وكنت وأنا أنظر إليه أشعر في جسمي كلِّه بتكرار دبيبِ تلك الرعشة المدغدِغة نفسِها.

ـ الشيطـان يعرفـك ! ـ صرخت بصوتٍ عالٍ. ـ أما كنـتَ تستطيع أن تأخذ شخصاً آخر غيري...

ـ اخفض صوتك، من فضلك، اخفضه ! ـ وأمسك الطبيب بيدي.

قال شخصٌ ما في الظلام:

ـ لـو أطلقـتَ الآن رشّـة من جميـع المدافع لَمَا تحـرّك أحد. هـم أيضاً نائمون. تستطيع أن تقترب منهـم وتربط جميع النائمين. لقد مررت الآن بمحاذاة الحارس نفسه، فنظر إليّ و لم يقل شيئاً، لم يتحرّك. إنه نائم أيضاً، على ما يبدو. غريب أنه لا يسقط.

Twitter: @ketab_n

تثـاءب الشخص الذي كان يتكلم، وخشخشت ثيابه، يبدو أنه تمطّى. استندتُ بصـدري على حافة القاطرة لكي أصعـد، فأخذني النوم في الحـال. رفعني أحدهم من الخلف ومـدّدني، ولكنني لسبب ما رحت أدفعه برجليّ، ثم غفوت من جديد، وترامت إلى سمعي كما في الحلم تماماً أجزاء من حديث:

ـ على الفرسخ[٢٠] السابع.

ـ وهل نسيتم المصابيح؟

ـ كلا، إنه لن يسافر.

ـ هاتِه إلى هنا. ساعدني قليلاً. هكذا.

اهتـزّت المقطورات في مكانها، وطقطـق شيء ما. وتدريجياً، بسبب هـذه الأصوات، وبسبب كوني قـد استلقيت بطريقة مريحة وبهدوء، شـرع النوم يفارقنـي. أمّا الطبيب فغفـا، وعندما تناولـت يده كانت مثـل يد الميت: ذابلة وثقيلة. كان القطار قـد بدأ يتحرّك ببطء وحذرٍ، ويهتزّ قليلاً وكأنـه يتلمّس الطريق. وأشعل الطالب المرض شمعة في المصباح، فأضاء الجدران والفراغ الأسود وراء الأبواب وقال بغضب:

ـ يـا للشيطان ! إنهم ليسوا بحاجـة إلينا الآن. أمّا هو فيجب عليك أن توقظه قبل أن يغطّ في سُبات عميق. وإلا وجدتَ نفسك عندئذ عاجزاً عن فعل أي شيء. إني أعرف ذلك من خبرتي.

هززنـا الطبيب بقوة حتى جلس، فراح يجول بعينيه محتاراً. ثم أراد أن

٢٠- الفرسخ وحدة قياس روسية تعادل ١٠٦٦ متراً ٧٨ سم. ـ م.

Twitter: @ketab_n

يضطجع مرة أخرى، ولكننا لم نمكّنه من ذلك.

- ليتنا نتجرّع شيئاً من الفودكا الآن، - قال الطالب.

وتنـاول كلٌّ منّا جرعة من الكونياك فاختفى النعاس تماماً. وراح مربّع الأبواب الكبير الأسوَد يتخذ لوناً زهريّاً، ثم احمرّ. فقد انبثق من وراء التلال لهيبٌ هائل صامت، وكأن الشمس تشرق في منتصف الليل.

- هذا الضوء بعيد. حوالي عشرين فرسخاً.

- أشعر بالبرد، - قال الطبيب وأسنانه تصطكّ.

أطلَّ الطالب من الباب ودعاني بإشارة من يده. فنظرت، وإذا بسلسلة صامتـة من هذه النيران التي لا تتحرّك تمتدُّ في أماكن مختلفة من الأفق، وكأن عشـرات من الشموس أشرقـت في وقت واحد. و لم يعد الظلام بتلـك القـوة. كانت التلال البعيـدة تكتسي بلونٍ كثيـف أسوَد وهي ترتسم بجلاءٍ خطاً متكسّراً ومتماوجاً، بينما كان كلُّ شيء بالقرب منّا مكتسيـاً بنورٍ أحمر هادئ، صامت وساكن. ألقيت نظرة إلى الطالب فرأيتُ وجهه متضرّجاً بلون دمٍ أحمرَ شفّافٍ تحوّل إلى هواء ونور.

- هل هناك كثير من الجرحى؟ - سألته.

فأشاح بيده.

- هناك كثير من المجانين. إنهم أكثر عدداً من الجرحى.

- مجانين حقيقيون؟

- وإلا فأيُّ مجانين هم ؟

Twitter: @ketab_n

نظر إليّ، فرأيت في عينيه ذلك الرعب نفسه الذي كان ساكناً، وحشياً وبارداً، كما في عينَي ذلك الجندي الذي مات بضربة شمس.

ـ دعْك من هذا، ـ قلت له مشيحاً بنظري عنه.

ـ الطبيب أيضاً مجنون. انظر إليه.

لم يسمعه الطبيب. كان جالساً، متربعاً، كما يجلس الأتراك، يتمايل، ودون صوت يحرِّك شفتيه ورؤوس أصابعه. وكان في نظرته أيضاً ذلك الذهول الساكن، المتجمِّد، المذهول بغباء.

ـ أشعر بالبرد، ـ قال وابتسم.

ـ فليأخذكم الشيطان جميعاً، ـ صرخت وأنا أبتعد إلى زاوية المقطورة.
ـ لماذا ناديتموني؟

لم يجب أحد. كان الطالب ينظر إلى اللهيب الصامت، المتعاظم، وكان قَذاله ذو الشعر المخوتم فتيّاً، وعندما نظرت إليه تصوّرت لسبب ما يدَ أنثى رقيقة تعبث بهذا الشعر. وكان هذا التصور كريهاً للغاية فجعلني أبدأ أكره الطالب، ولم أستطع النظر إليه من دون قرف.

ـ كم عمرك؟ ـ سألته، إلا أنه لم يلتفت إليّ، ولم يردّ.

كان الطبيب يترنّح.

ـ أشعر بالبرد.

ـ عندما أفكِّر، ـ قال الطالب من غير أن يلتفت، ـ عندما أفكّر بأن هناك في مكان ما شوارعَ، وبيوتاً، وجامعة...

Twitter: @ketab_n

وقطع كلامـه، كأنه قال كلَّ شيء، وصمت. توقّف القطار بغتة تقريباً فاصطدمتُ بالجدار، وترامت إلى أسماعنا أصوات. فقفزنا.

كان ممـدّداً أمـام القطار مباشرة، علـى السكة شيء مـا، كومةٌ ليست كبيرة، تظهر منها رِجل.

ـ جريح؟

ـ كلا، قتيـل. رأسه مقطوع. ولكنـي، أيّاً كان رأيك، سأشعل المصباح الأمامي. وإلا فقد تدهسه أيضاً.

ألقـوا جانباً بالكومة التي كانت تتـدلّى منها الرِّجل، وللحظة ارتفعت الرجل عالياً، وكأن الكومة أرادت أن تهرب في الهواء، ثم اختفى كل شيء في ترعة سوداء. ثم اشتعل الفانوس، فاسودَّ القطار في الحال.

ـ اسمعوا! ـ همس أحدهم برعب عظيم.

كيـف لم نسمع هذا قبـل الآن! وترامى من كل الجهات ـ وكان يتعذّر تحديـد المكان بدقـة ـ أنين مديـد، خادش، هـادئ هـدوءاً عجيباً في اتساعـه، بل وكأنه عديم المبالاة. لقد سمعنا كثيراً من الصراخ والأنين، غـير أن هـذا لم يكن يشبه شيئـاً ممّا سمعناه. لم يكـن في وسع أحد أن يلتقـط أيَّ شيء على السطح العكِر الضارب إلى الحمرة، ولذلك خُيِّل أن من يئنّ هو الأرض نفسها أو السماء المضاءة بشمس لا تشرق.

ـ الفرسخ الخامس، ـ قال سائق القطار.

ـ هذا من هناك، ـ أشار الطبيب بيده إلى الأمام.

ارتجف الطالب والتفت إلينا ببطء:

Twitter: @ketab_n

- وما هذا ؟ إنه شيء لا يمكن سماعه !

- فلنتحرّك !

سرنـا ماشين أمام القطار، وامتدّ منّا على السكة ظلٌّ طويل واحد، و لم يكـن أسود اللون، بل كان أحمر قاتماً بسبب ذلك الضوء الثابت الذي كان يمتـدّ صامتـاً في شتّى أطـراف السماء السـوداء. ومع كل خطوة مـن خطواتنا كان يتعاظم بطريقة فظيعـة هذا الأنين الوحشي الذي لم يُسمـع له مثيل، وليـس له من مصدرٍ مرئي، وكأن مَـن يئنّ هو الهواء الأحمـر، وكأن من يئنّ همـا الأرض والسمـاء. وكان هذا الأنين في تواصله ولامبالاتـه الغريبة يشبه في بعض الدقائـق صرير الجنادب في الحقل، صريـر الجنادب الرتيبَ والحارّ في حقل صيفـي. وشيئاً فشيئاً بتنا نصادف المزيد من الجثث. كنا نلقي عليها نظرة سريعة ثم نلقي بها بعيـداً عن السكة، تلك الجثث اللامبالية، المطمئنة، الذابلة التي تخلّف في مكان استلقائهـا بقعاً زيتية غامقة تمتصّ الدماء، وكنا في أوّل الأمر نَعُدَها، ثم اختلط علينـا العدد و لم نعد نفعل ذلك. كان عددها كبيراً، كبيراً جداً بالنسبة لهذه الليلة الشنيعة التي تتنفّس برداً وتئن بكل جزيئة من كيانها.

- ومـا هذا ؟ - صـرخ الطبيـب، وأشار بيده مهـدداً أحداً مـا. - أنتم، اسمعوا...

كنا نقترب من الفرسـخ السادس، فبات الأنين أكثر وضوحاً، وحدّة، وبتنا نشعر بالأفواه المعوجّة التي تطلق تلك الأصوات. كنا ندقِّق النظر بهلع في الظلمة الزهرية اللون، الخدّاعة بضوئها الشفّاف، عندما انطلق بجوارنا تقريباً، بجوار السكة، في الأسفل صوتُ أنين مستغيث، باكٍ.

Twitter: @ketab_n

وقـد وجدنا في الحال ذلـك الجريح الذي لم يكن في وجهه إلا العينان اللتـان بدتا كبيرتين جداً عندما سقط ضـوء المصباح على وجهه. وقد كفَّ عن الأنين، واكتفى بأن راح ينقِّل ناظريه بيننا بالتناوب ناظراً إلى كل واحد منـا وإلى مصابيحنا، وكان في نظرته فرح جنوني ناجم عن كونـه يرى أناساً وأضواء، ورعباً جنونياً من أن هذا كله سيختفي الآن وكأنـه حلم. لعله قد حلم غير مرة بأناس ينحنون عليه مع مصابيحهم ثم يختفون في كابوس دموي وغامض.

ومضينـا نغـزّ السير قُدُماً فعثرنـا في الحال تقريباً علـى جريحين، كان أحدهما مستلقياً على السكة، والآخر يئنّ في ترعة. وعندما أخذناهما قال الطبيب وهو يرتجف من الغيظ:

ـ وماذا ؟ ـ ثم أدار ظهره.

وبعد بضـع خطوات صادفنا مصاباً بجروح خفيفة، كان يسير وحده وهو يسند إحدى يده بيده الأخرى. كان يسير ملتفتاً برأسه إلى الوراء، باتجاهنـا تماماً وكأنه لم ينتبه إلينا عندما أفسحنا له الطريق كي يمرّ. يبدو أنـه لم يرَنـا. وتوقّف بالقرب من القطار برهة ثـم تعدّاه وسار بمحاذاة المقطورات.

ـ خيرٌ لك أن تجلس ! ـ صرخ الطبيب، ولكنه لم يردَّ عليه.

أولئـك كانـوا أول من أدخـل الرعـب إلى قلوبنا. وبعـد ذلك رحنا نصـادف منهم علـى السكـة وبالقرب منها أعـداداً تتزايـد باطّراد. وكان الحقل الذي يغطيـه ظل لهيب الحرائق الراكد الأحمر يعجّ كلّه، وكأنه حيّ، مشتعلاً بصرخات عالية، وعويل، ولعنات وأنين. وكانت هـذه الكتل القائمة تتململ وتزحف مثل سرطعانـات ناعسة أطلقت

Twitter: @ketab_n

مـن سلسلة متداخلة، غريبة، تكاد تشبه البشـر في حركاتها المتقطعة، الغامضة، وبـطءِ حركتها الثقيـل. بعضهم كانـوا معدومي الصوت، منصاعين، وبعضهم كانـوا يئنّون، ويعولون، ويشتمون، ويكرهوننا، نحـن الذيـن ننقذهم، كرهـاً عظيماً وكأننـا نحن من دبّر هـذه الليلة الدمويـة، اللامبالية، ودبّر عزلتهم وسط الليل والجثث، وهذه الجروح الرهيبـة. لم يعد هناك أماكن في المقطـورات، وثيابنا كلها باتت مبللة بالدمـاء، وكأننا وقفنا طويلاً تحت مطر مـن الدم، وكان نقل الجرحى مستمراً، وبالطريقة الهمجية نفسها استمر يتململ الحقل الذي عادت إليه الحياة.

بعضهـم كانوا يقتربـون من تلقـاء أنفسهـم زاحفين، وآخـرون كانوا يقتربـون وهم يترنحـون ويتساقطون. وقـد وصل أحد الجنـود إلينا راكضـاً. وكان وجهه محطّماً، ولم يبقَ فيـه إلا عينٌ واحدة كانت تتّقد بطريقـة همجية ومرعبة، وكان عاريـاً تقريباً، كأنه خارج من الحمّام. وبعـد أن دفعني تفحّص بعينه الطبيب، وبسرعة أخذه بيده اليسرى من صدره.

- سأحطِّـم وجهـك القبيح ! - صـرخ، وأضاف - وهو يهـزّ الطبيب - بشتيمة بذيئة، حادّة وطويلة. - سأحطِّم وجهك القبيح! يا للأوغاد!

تخلّص الطبيب من الجندي، وصرخ وهو يهجم عليه ويغصّ بالبكاء:

- سـوف أقدّمك للمحكمة، أيها النـذل ! هيّا إلى السجن. إنك تمنعني من العمل. أيّها النذل! أيّها الحيوان!

وفرّقوا بينهما، إلا أن الجنديّ ظلّ لبعض الوقت يصرخ بعد ذلك:

Twitter: @ketab_n

- أيّها الأوغاد ! سأحطِم وجوهكم القبيحة !

كنت قد بدأت أفقد قواي، فانتحيت جانباً كي أدخِن وأستريح. كان الدم اليابس قد غطّى يديّ بما يشبه قفّازين أسودين، وكانت أصابعي تنثني بصعوبة فتسقط منها السجائر وأعواد الثقاب. وحين أشعلت سيجارة بدا لي دُخان التبغ جديداً وغريباً للغاية، وله نكهة خاصة تماماً لم أشعر بمثلها من قبل ولا من بعد. وهنا تقدّم منّي الطالب الممرِض الذي كان مسافراً إلى هنا، ولكنْ خُيِّل إليّ أنني التقيتُه قبل بضع سنوات، ولم أستطع أن أتذكّر أين. كان يمشي واثق الخطوة، كأنه في مسيرة عسكرية، واخترقني بنظرة موجّهة إلى مكان ما، أبعد منّي وأعلى.

- إنهم نائمون، - قال كمن يتكلّم بهدوء كامل.

فثار غضبي وكأن هذا اللوم يخصني شخصياً.

- أنت تنسى أنهم قاتلوا مدة عشرة أيام كالأُسود.

- ولكنهم نائمون، - كرّر ونظرته تخترقني وتمرُّ فوقي. ثم انحنى نحوي، وأردف وهو يلوِّح بإصبعه مهدداً، بالطريقة الجافّة الهادئة نفسها:

- سأقول لك. إنني سأقول لك.

- ماذا ؟

راح يزداد انحناء نحوي، فلوَّح بإصبعه بتهديد متعدد المعاني وكرّر ما يشبه جملة مكتملة:

Twitter: @ketab_n

- سأقول لك. إنني سأقول لك. أخبرْهم.

وفيمـا كان ينظر إليّ بالطريقة الصارمة نفسهـا، وبعد أن أعاد التهديد مرة ثانيـة، أخرج مسدّسه وأطلق النار علـى صدغه. فلم يُثِر ذلك فيّ أيّ قـدْر من الدهشـة أو الخوف. وبعد أن نقلـت السيجارة إلى يدي اليسرى، تفحّصت الجرح بإصبعي وذهبت إلى المقطورات.

- لقد أطلق طالب التمريض النار على نفسه. ويبدو أنه ما يزال على قيد الحياة، - قلت للطبيب. فأطبق هذا يديه على رأسه وأطلق أنيناً:

- إلى الشيطـان !.. فليس عندنا مكان. ذاك أيضاً أطلق النار على نفسه الآن. ولك منّـي كلمة شرف، - صرخ الطبيب بغضب وتهديد. - إنني سأفعل ذلـك أيضاً! أجل! وأرجوك، اسمـح لي بالذهاب مشياً. ليس عندنا أماكن. تستطيع أن تشتكي، إذا شئت.

وأدار ظهـره، وهـو مستمر بالصـراخ، أمّا أنا فدنوت مـن ذاك الذي أطلـق النار على نفسه الآن. لقد كان ممرّضـاً، ويبدو أنه ما يزال طالباً أيضـاً. كان يقف مستنداً بجنبه إلى جدار المقطورة، وكتفه ترتعش من النشيج.

- كُفَّ عن ذلك، - قلت بعد أن لمست كتفه المرتعشة.

إلا أنه لم يلتفت، ولم يردّ وواصل البكاء. وكان قَذاله فتيّاً كقَذال ذلك الجنديّ، ومرعباً أيضاً، وكان واقفاً يتلوّى متوجِّعاً بطريقة سخيفة مثل سكران مصابٍ بالغثيان. وكانت رقبته ملطخة بالدم، لعلّه لوّثها بيديه.

- ماذا ؟ - قلت له بنفاد صبر.

فارتدّ عن المقطورة، ثم خفض رأسه، وانحنى كالعجائز، ومضى في الظـلام، مبتعداً عنّا جميعاً. لا أعرف لماذا مشيت وراءه، وظللنا نمشي

Twitter: @ketab_n

مدة طويلة في اتجاه جانبي، بعيداً عن المقطورات. يبدو أنه كان يبكي. فأحسست بالضجر، وأردت أن أبكي أنا أيضاً.

ـ قفْ، ـ قلت وقد توقّفت.

غـير أنه تابـع المشي، ومضى يجرجـر قدميه بصعوبـة، منحنياً، يشبه عجـوزاً بكتفيه الضيقتـين، ومشيته المتمايلة. وسرعـان ما اختفى في الظلمـة الضاربة إلى الحمرة التي خُيِّل أنهـا ضوء ولا تضيء أي شيء. فبقيت وحدي.

علـى يساري، وبعيداً عني، مرَّ عدد مـن الأضواء الباهتة، كان القطار قـد رحل. وكنت وحـدي بين موتى ومشرفين علـى الموت. كم كان باقيـاً منهم بعـدُ؟ كان كلّ شيء حولي راكداً، وميّتـاً. وأبعد من ذلك كان الحقـل يتململ كأنه حـيّ ـ أو أنّي تخيَّلت ذلك لأنني وحدي. إلا أن الأنـين لم يخمد. لقد انتشر في الأرض رفيعـاً، يائساً، شبيهاً ببكاء الأطفـال أو بزعيق ألفِ من الجِراء المهجـورة التي جمّدها البرد. كان الأنـين ينغرس في دماغي مثل إبرة جليدية حادّة لا نهاية لها، ويتحرّك إلى الأمام والخلف، إلى الأمام والخلف...

المقطع السادس

...أولئك كانوا جماعتنا. وسط تلك الفوضى الغريبة من التحركات، الفوضى التي كانت ملازمة خلال الشهر الأخير كلا الجيشين، جيشنا وجيشـ العدو، فتُفسدُ جميع الأوامـر والخطط . كنا نحن واثقين من أن العدو، وتحديداً فيلَقـه الرابع، يتعقّبنا. وكان كل شيء عندنا جاهزاً للهجـوم عليه عندما تبـيّن أحدُنا بوضوح من خـلال المنظار أن تلك

Twitter: @ketab_n

معاطـف عسكرنـا، وبعد عشر دقائـق تحوّل هذا الاكتشـاف إلى ثقة مطَمْئنـة وسعيـدة بأن أولئك هـم جماعتنا. وهم، على مـا يبدو، قد عرفونا أيضاً. فقد كانوا يتقدّمون نحونا، بطمأنينة كاملة. وكنت أشعر في تحركهـم المطْمئن هذا، مثل تحركنا نحن، بتلك البسمة نفسها التي يولِّدها اللقاء الفجائي.

وعندمـا بدؤوا بإطـلاق النار ظللنا بعض الوقـت لا نستطيع أن نفهم ما معنى ذلك، بـل وكنا نبتسم حين وجدنا أنفسنا بغتة تحت وابلٍ من قنابلهـم وطلقات رصاصهم التـي انهمرت علينا كالـبَرَد وحصدت مئـات الأشخاص على الفـور. وصرخ واحد منّا يعلـن الخطأ، ورأينا جميعاً، وأنا أذكر ذلك جيّداً، أن أولئك هم الأعداء، وأن الزيَّ زيُّهم، وليس زيَّنـا، فأسرعنا إلى الرد بإطلاق النـار بالمثل. وقد تكون ساقاي الاثنتـان تحطّمتـا بعد مرور خمس عشرة دقيقة مـن بداية هذه المعركة الغريبة و لم أثُب إلى رشدي إلا في المشفى الميداني بعد عملية البتر.

لقد سألت عمّا انتهت إليه المعركة، إلا أنهم ردّوا عليّ بجوابٍ مراوغ مطَمْئـن فهمت منه أننـا قد هُزمنا. وبعد ذلك سيطـر الفرح عليّ، أنا المبتـورَ الساقـين، بأنهم سيرسلونني إلى البيـت، وبأنني رغم كل شيء بقيـت حيّاً، بقيت حيّاً لمدة طويلة، إلى الأبد. و لم أعرف إلا بعد مرور أسبـوع ببعض التفاصيل التي دفعتني مرّة أخـرى إلى الشكوك، وإلى خوفٍ من نوع جديد لم أجرّبه من قبل.

أجـل، يبدو أن أولئك كانـوا جماعتنا، وقنبلتنا التـي أُطلقها بيده من مدفعنـا واحـد من جنودنا هـي التي قطعـت رجلـيّ. و لم يكن أحد يستطيـع أن يفسّر كيف وقع ذلك. لقد حدث شيء مـا، ثمّة شيء ما عكّـر الأبصـار، فقام لواءان من جيـش واحد، تفصـل بينهما مسافة

Twitter: @ketab_n

فرسخ واحد، بتبادل القصف فيما بينهما مدة ساعة كاملة، وهما على يقينٍ تامّ من أنهمـا يقاتلان العدو. وكانوا يتذكّرون تلك الواقعة من غير ما رغبة، بأنصاف كلمـات، وكنت تشعر - وهـذا أغرب شيء - بـأن كثيرين ممن تكلموا لا يعترفون بالخطـأ حتى الآن. بالأحرى، هم يعترفون به، ولكنهم يعتقـدون بأن الخطأ وقع فيما بعد، أمّا في البداية فقـد كانوا حقـاً يقاتلون العدوّ الذي اختبأ في مـكان ما، فجعلنا - في ظل اضطـرابٍ شامل - نقع تحـت قصف قذائفنا نحـن بالذات. كان بعضهم يتكلـم بهذه الطريقة علناً، ويقدم تفسـيرات دقيقة بدت لهم صادقـة وواضحة. وأنا نفسـي لا أستطيع حتى الآن أن أقول بثقة تامة كيف بدأ سوء التفاهم ذاك، لأنني رأيت بقدْرٍ واحد من الوضوح زيَّنا الأحمر أوّلاً، ثم زيَّهم الأصفر الغامق. ولسببٍ ما نسيَ الجميع بسرعة كبـيرة تلك الواقعـة، نسوها بقدْرٍ من السرعة جعلهـم يتحدّثون عنها كمـا يتحدثون عن معركـة حقيقية. وقد كُتبت بهـذا المعنى وأرسلت رسائـل كثيرة مخلصة للغايـة. لقد قرأتها بعد أن عـدتُ إلى البيت. في البدايـة كان الموقف منّا، نحن الذين أُصبنـا بجروح في هذه المعركة، غريبـاً بعض الشيء، إذ كانوا أقلَّ رحمة بنا ممّا بالجرحى الآخرين، غير أن ذلـك أيضاً تمّت معالجته. على أنه ما مـن شيء يمنحني حق التفكير بأن ما وقع كان خطأ إلا الوقائع الجديدة من قبيل ما وصفته، بل وكون فصيلتـين في جيش العدوّ تقاتلتا فيما بينهما حقّاً إلى أن فنيتا عن بكرة أبيهما تقريباً، عندما أفضى بهما الأمر في الليل إلى الاشتباك بالأيدي.

إن طبيبنـا، ذلك الذي أجـرى لي عملية البتر، ذلـك العجوز الناشف الأعجـف الذي تفوح منـه رائحة اليودوفورم، ودُخـان التبغ، ومادّة التعقيـم، ذلك الـذي ثمة ما يجعلـه يتسم أبداً عـبر الشعر القليل في شاربيه اللذين اصفرَّ شيبُهما تماماً، قال لي وهو يكوّر عينيه:

Twitter: @ketab_n

ـ من حسن حظك أنك ذاهب إلى البيت. ثمّة شيء خطأ.

ـ ماذا هناك ؟

ـ لا شيء. ليست الأمور على ما يُرام. في زماننا كانت الأمور أبسط.

كان قد شارك في الحرب الأوروبية الأخيرة التي وقعت قبل حوالي ربع قرن من الآن. وكان كثيراً ما يتذكّرها بسرور. بينما لم يكن يفهم هذه الحرب، بل وكما لاحظت: كان يخافها.

ـ أجل، ليست الأمور على ما يُرام، ـ تنهّد وقطّب حاجبيه غارقاً في سحابة من دُخان تبغه. ـ ولكنتُ أنا شخصيّاً رحلت من هنا لو كان ذلك ممكناً.

ثم انحنى نحوي، وقال هامساً عبر شاربيه الأصفرين المدخَّنَين:

ـ سرعان ما ستأتي تلك اللحظة التي لا يعود فيها أحد قادراً على الرحيل من هنا. أجل، لا أنا، ولا أحد.

ورأيت في عينيه العجوزين القريبتين ذلك الشيء الراكد، المهزوم بغباء. وومض في رأسي شيء رهيب، لا يطاق، شبيه بسقوط ألف بناية، فهمست متجمِّداً من الرعب:

ـ الضحك الأحمر.

وكان هو أوّلَ من فهمني. فأسرع يهزّ رأسه وأكّد:

ـ أجل. إنه الضحك الأحمر.

جلس قريباً منّي جدّاً، ثم تلفّت حوله وهمس لي بسرعة متزايدة وهو

Twitter: @ketab_n

يحرّك، على طريقة العجائز، لحيته الشائبة المدبّبة:

ـ أنت سترحل قريباً، ولذلك فأنا سأخبرك. هل شاهدت يوماً عراكاً في مشفى مجانين؟ كلا؟ أمّا أنا فقد رأيت. ولقد كانوا يتعاركون كالأصحّاء. أجل، كالأصحّاء!

وكرّر هذه الجملة عدّة مرّات مضمِّناً إياها كثيراً من المعاني.

ـ وماذا ؟ ـ سألتُه هامساً وخائفاً أيضاً.

ـ لا شيء. كالأصحّاء!

ـ الضحك الأحمر، ـ قلت.

ـ لقد سكبوا عليهم الماء ليفرِّقوهم.

تذكّرت المطر الذي أخافنا بقوّة، وغضبت.

ـ إنك جُننتَ، يا دكتور!

ـ ليس أكثر منك. في جميع الأحوال، ليس أكثر.

وطوَّقَ بيديه ركبتيه العجوزين الهزيلّتين، وبدأ يقهقه، فيما راح يرمقني عبر كتفه، وهو ما يزال يحتفظ على شفتيه الجافّتين بأصداء ذلك الضحك الفجائي والثقيل، وغمزني بمَكرٍ عدّة مرّات، وكأننا وحدنا نحن الاثنين نعرف شيئاً مضحكاً جداً لا يعرفه أحد غيرنا.

وبهيبة أستاذ في السحر يعرض عجائبه، رفع يده وأسبلها بانسيابٍ وحذر، ثم لمس باثنتين من أصابعه ذلك المكانَ من اللحاف الذي أمكن أن تكون تحته ساقاي لو لم تكونا قد بُترتا.

Twitter: @ketab_n

ـ وهل تفهم ذلك؟ ـ سألني بطريقة غامضة.

وبالطريقة المهيبة والمتعددة المعاني نفسها أشار بحركة من يده شملت صفوف الأسرَّة التي كان الجرحى مستلقين عليها، وكرَّر:

ـ وهذا هل تستطيع تفسيره ؟

ـ إنهم جرحى، ـ قلت، ـ جرحى !

ـ إنهم جرحى، ـ أعاد الطبيب كالصدى. ـ جرحى. مبتورو الأرجل، مقطوعو الأيدي، ممزَّقو البطون، محطَّمو الصدور، ومقلوعو العيون. هل تفهم هذا؟ يسعدني كثيراً. إذاً، فأنت سوف تفهم هذا أيضاً؟..

وبمرونةٍ غيرِ منتظَرة ممّن هم في عمره ألقى بيديه إلى الأرض ورفع جسمه واقفاً عليهما، متوازناً في الهواء برجليه. وارتدّت مريلته البيضاء هابطة إلى الأسفل، واحتقن وجهه بالدم، ثم نظر إليّ بثباتٍ نظرةً غريبة مقلوبة، وبصعوبة أطلق هذه الكلمات المتقطِّعة:

ـ وهذا... هل أنت تفهمه... أيضاً ؟

ـ كُفَّ عن ذلك، ـ همست خائفاً. ـ وإلا فإنني سأصرخ.

استقام على رجليه، واتّخذ وضعيّة طبيعية، وعاد إلى الجلوس قرب سريري، وقال ـ وهو يلهث ـ بنبرة وعظ:

ـ وما من أحد يفهم هذا.

ـ بالأمس كانوا يطلقون النار من جديد.

ـ وبالأمس كانوا يطلقون النار. ولليوم الثالث كانوا يطلقون النار، ـ

Twitter: @ketab_n

قال مؤكِداً وأومأ برأسه.

- أريد أن أذهب إلى البيت! - قلت بحزن. - يا دكتور، أيّها الغالي، أريد أن أذهب إلى البيت. لا أستطيع البقاء هنا. لقد أخذت أفقد الايمان بأن هناك بيتاً أجد فيه الراحة المرتجاة.

كان يفكّر بشيء ما، ولم يُجب، فبكيت:

- يا إلهي، إنني بلا رِجلين. كم أُحبّ ركوب الدرّاجة الهوائيّة، والمشيَ، والركض، وها أنا الآن بلا رِجلين. كنت ألاعب ابني على رجلي اليمنى فيضحك، أمّا الآن... عليكم اللعنة! لماذا سأذهب إلى البيت؟ ما زلت في الثلاثين من العمر... عليكم اللعنة!

وبكيت بقوّة، بكيت وأنا أتذكّر رِجليَّ الحبيبتين، رجليّ السريعتين، القويتين. من هو الذي سلبني إيّاهما، من هو الذي تجرّأ على سلبهما!

- اسمع، - قال الطبيب وهو يُشيح بنظره جانباً. لقد رأيت كيف جاءنا بالأمس جنديٌّ مجنون. جندي من جيش العدوّ. كان عارياً تماماً تقريباً، مشبَعاً ضرباً وتخديشاً، وجائعاً كحيوان. كان الشعر يغطّي وجهه، كما يغطّي وجوهنا جميعاً، وكان شبيهاً بمتوحِّش، بإنسان بدائي، بقرد. كان يلوِّح بيديه، يتلوّى، يغنّي ويصرخ، ويبحث عن عراك. فأطعموه وطردوه إلى البرّيّة. أين نذهب بهم؟ إنهم في الليل والنهار يتسكّعون جيئة وذهاباً في التلال أشباحاً في ثياب ممزَّقة، قذرين، ماضين في جميع الاتجاهات، ليس لهم طريق، ولا هدف، ولا مأوى. تراهم يلوِّحون بأيديهم، يقهقهون ويغنّون، وعندما يلتقون ينخرطون في العراك، وقد لا يرى بعضهم بعضاً فيمرّون لامبالين. ماذا يأكلون؟ ربّما لا شيء، وربّما يأكلون الجثث جنباً إلى جنب مع الوحوش، مع

Twitter: @ketab_n

هذه الكلاب السمينة، المتخَمـة، المتوحّشة التي تتعارك وتعوي طول الليالي فوق التلال. ففي الليالي تجتمع هذه الكلاب مثل طيور أيقظتها العاصفة، مثل فراشات قبيحة وهي تقترب من الضوء. يكفي أن تشعل نـاراً للاحتماء من الـبرد حتى يظهـر حولها بعد نصـف ساعة عشرة أشبـاح صاخبة، ممزَّقة، متوحّشـة، تشبه قروداً جمَّدهـا البرد. أحياناً يطلقـون عليها النار خطأً، وأحياناً عمـداً، عندما ينفد صبرهم بسبب صراخها المخيف العديم المعنى...

ـ أريد الذهاب إلى البيت ! ـ صرخت وأنا أسدّ أذنَي.

وراحت كلمـات جديدة مرعبة تطـرق دماغي المنهَك طرقـاً هلاميّاً أصـمَّ كأنما عبر قطعة من القطن:

ـ ...عددهم كبير. إنهم يموتون بالمئات في هاويات سحيقة، في أوكار للذئاب أُعدّت للناس الأصحّاء والأذكياء، وعلى بقايا الأسلاك الشائكة والأوتاد الحادّة، إنهم يتدخّلون في معارك صحيحة وعاقلة ويتقاتلون كالأبطال، دائماً في المقدّمـة، ودائماً لا يهابون الموت؛ ولكنهم كثيراً مـا يقاتلـون جماعتهم. إنهـم يعجبونني. إنني الآن مـا أزال في بداية جنـوني، ولذلك أجلس وأتحدّث معك. ولكـن عندما يفارقني العقل تماماً سأمضي إلى البرّية، سأمضي إلى البرّيّة وأرفع عقيرتي بالنداء، أرفع عقيرتي بالنـداء وأجمع حولي هؤلاء البواسل، هـؤلاء الفوارس الذين لا يخافـون، ثم أُعلـن الحرب على العالم كلّـه. سنمضي حشداً مرحاً مصحوبـين بالموسيقـى والأغاني نفتح المدن والقـرى. والأماكنُ التي نمرّ فيهـا سيغدو كل شيء فيها أحمر، وسينخـرط الجميع في الدوران والرقـص، كأنهم النار. وسينضم إلينا أولئك الذين لم يموتوا، وسيزداد

Twitter: @ketab_n

عدد أفراد جيشنا الباسل، مثل انهيار جبل من الثلج، فيغدو نظيفاً هذا العالَمُ كلّه. من قال إنه لا يجوز القتل، والحرق والنهب؟..

كان يصرخ، ذلك الطبيب المجنون، وكأنه بصراخه أيقظ الألم الراقد في من كانت صدورهم وبطونهم ممزّقة، وعيونهم مقلوعة، وأرجلهم مبتورة. وامتلأت غرفة المشفى بأنينٍ باكٍ، عريض، خادش، والتفتت إلينا من كل صوبٍ وجوهٌ شاحبة، صفراء، منهَكة، وأخرى بلا عيون، وأخرى أصابها تشوّهٌ فظيع كأنها راجعة من الجحيم. وكانوا يئنّون وينصتون، ويسترقون النظر بحذر إلى باب مفتوح ظلَّ أسود عديم الشكل يرتفع عالياً فوق العالم، وكان المجنون العجوز يصرخ باسطاً ذراعيه:

- من قال إنه لا يجوز القتل، والحرق والنهب؟ إننا سوف نقتل، ونحرق وننهب. سنكون عصابة من الشجعان مرحة، خالية البال، سوف نحطِّم كلّ شيء: بناياتهم، جامعاتهم ومتاحفهم، فنحن شبّان مرحون، مفعمون بضحك ناري، وسوف نرقص على الأنقاض. سأعلن دار المجانين وطناً لَنا؛ وسأعلن أن الأعداء والمجانين في نظرنا هم جميع من لم يفقد عقله بعد. ويا للضحك المرح الذي سيدوّي في الكون عندما أعتلي عرش العالم، أنا العظيم، المظفَّر، الفرِح، وأكون سيِّده وملكه الوحيد!

- الضحك الأحمر! - صرخت مقاطعاً إياه. - النجدة! إنني مرة أخرى أسمع الضحك الأحمر!

- أيّها الأصدقاء! - أردف الطبيب موجّهاً خطابه إلى الظلال المشوّهة التي تئنّ. - أيّها الأصدقاء! سيكون لنا قمر أحمر وشمس حمراء،

Twitter: @ketab_n

وسيكـون للوحوش صوفٌ بهيـجٌ أحمر، وسنسلـخ جلد من يكون شديـد البياض، شديد البياض... ألم تجرِّبوا شرب الدم؟ إنه دَبِقٌ قليلاً، إنه دافئ قليلاً، ولكنه أحمر، وله ضحك أحمر بهيجٌ جداً!..

المقطع السابع

...كان ذلـك كفرا، كان ذلك كفراً. الصليب الأحمر يحظى باحترام العـالم كلّه، كشـيء مقدَّس، وقـد رأوا أن ما يسير هو قطـار ليس فيه جنـود، بل جرحى لا يؤذون، وكان يجب عليهم أن ينبِّهوا إلى وجود لغم مزروع. لقد كان أولئك الناس التعساء يحلمون بالبيت...

المقطع الثامن

...حول السمـاور، حول السماور الحقيقي الـذي كان يتصاعد منه البخار كما من قطار، فحتّـى الزجاج كان قد تعكّر قليلاً، بهذه القوة كان البخـار يتصاعد. وكانت الفناجين هي نفسها، زرقاء من الخارج وبيضاء من الداخل، فناجين جميلة جداً، سبق أن قدّموها لنا هدية في العرس. لقد أهدتنا إيّاها أخت زوجتي، إنها امرأة طيِّبة ورائعة جداً.

ـ أحقـاً كلّها سالمـة؟ ـ سألت متشكِّكاً، وأنا أحـرِّك السكّر في الكأس بملعقة من الفضة نظيفة.

ـ لقـد كسروا فنجاناً واحـداً ـ قالت زوجتي بشـرود، فقد كانت في هـذا الوقت تمسك بالصنبور مفتوحـاً، وكان الماء الساخن يسيل منه، بانسياب وجمال.

Twitter: @ketab_n

ضحكتُ.

- ما لكَ؟ - سألني أخي.

- لا شـيء. انقلني مرة أخرى إلى مكتبي. تكرَّم بذلك من أجل البطل! لقـد لهوتم في غيابي، أمّا الآن فيكفي. إنـني سأساعدكم، - وانطلقت أغنّي، مازحاً بالطبع:

«يا أصدقائي، نحن مسرعونْ

لكي نخوضَ الحربْ

ونهزمَ الأعداءَ باستبسالْ...».

وقـد فهموا النكتة وابتسموا أيضاً. وحدهـا زوجتي لم ترفع وجهها، كانـت تنشّف الفناجين بمنشفة نظيفة مطـرّزة. ومرة أخرى رأيت في مكتبي ورق الجدران الأزرق، والمصباح ذا الظليلة الخضراء، والطاولة التي وُضِع عليها إبريق الماء. وكان مغبّراً قليلاً.

- صُبّوا لي ماء من هنا، - طلبت مبتهجاً.

- ولكنك الآن شربت شاياً.

- لا بأس، لا بأس، صبّوا. أمّا أنتِ، - قلـت لزوجتي، - فخذي الولد واجلسي قليلاً في تلك الغرفة. من فضلك.

ورحـت أتمتّع بشرب الماء جرعاتٍ صغيرةً، فيما كانت زوجتي والولد جالسَين في الغرفة المجاورة، وأنا لا أراهما.

- حسناً. تعالا الآن إلى هنا. ولكنْ لماذا لا يذهب في هذا الوقت المتأخِر إلى النوم؟

Twitter: @ketab_n

ـ إنه سعيد لأنك عدت. حبيبي، امشِ إلى أبيك.

ولكنّ الطفل بكى واختبأ متشبّثاً بساقَي أمّه.

ـ لماذا يبكي؟ ـ سألت محتاراً وتلفّتُّ حولي. ـ لماذا أنتم كلّكم بهذا الشحوب، وصامتون، وتتبعونني كالظلال؟

ضحك أخي بصوتٍ عالٍ وقال:

ـ نحن لسنا صامتين.

وكرّرت أختي:

ـ إننا نتكلّم طول الوقت.

ـ سأهتمّ بالعشاء، ـ قالت أمّي وخرجت مسرعة.

ـ أجل، إنكم صامتون، ـ كرّرتُ بثقة مفاجئة. ـ منذ أول الصباح لا أسمع منكم كلمة، وأنا وحدي أثرثر، وأضحك، وأفرح. ألستم سعيدين بي، يا تُرى؟ ولماذا أنتم جميعاً تتحاشون النظر إليّ، فهل أنا تغيّرت إلى هذا الحدّ؟ أجل، لقد تغيّرت جدّاً. وحتّى المرايا لا أراها. هل أخفيتموها؟ هاتوا لي مرآة.

ـ سأحضرها لك الآن، ـ ردّت زوجتي وطال غيابها قبل أن تعود، وكانت المربية هي من أحضر ليَ المرآة. نظرت فيها، وإذا بي أرى نفسي في المقطورة، في محطة القطارات، لقد كان وجهي هو نفسه وقد دبّ فيه شيء من الشيخوخة، ولكنه عاديّ تماماً. لعلّهم كانوا لسبب ما ينتظرون منّي أن أصرخ وأسقط مغمياً عليّ؛ فكم كانت فرحتهم حينما سألتهم بهدوء:

Twitter: @ketab_n

ـ وما الشيء غير العاديّ هنا ؟

وبينما كان ضحك الجميع يزداد علوّاً أسرعت أختي بالخروج، أمّا أخي فقال بثقة وهدوء:

ـ أجل، إنك لم تتغيّر إلا قليلاً. لقد صَلعتَ بعض الشيء.

ـ قل شكراً أيضاً على أن رأسي بقيَ سليماً، ـ أجبته بلامبالاة. ـ ولكنْ إلى أين يهربون كلّهم، تارة هذه، وأخرى تلك. انقلْني إلى الغرف الأخرى أيضاً. يا له من كرسي مريح، لا يصدر عنه أيّ صوت. كم دفعتم ثمنه؟ وأنا لن أبخل بالمال، سأشتري ساقين حديديتين، أفضل من... ها هي الدرّاجة الهوائية!

كانت الدراجة الهوائية معلّقة على الجدار، ما تزال جديدة تماماً، ولكن عجلتيها خاليتان من الهواء. وكانت قد يبست على عجلتها الخلفية قطعة طين تعود إلى آخر مرة ركبت فيها الدراجة. كان أخي صامتاً و لم يدفع الكرسي، وقد فهمت هذا الصمت، وهذا الارتباك.

ـ لم يبقَ في لوائنا على قيد الحياة إلا أربعة ضباط، ـ قلت متجهِّماً. ـ إنني سعيد جداً. .. خذ الدراجة لك، خذها غداً.

ـ حسناً، سآخذها، ـ وافق أخي طائعاً. ـ أجل إنك سعيد. نصف مدينتنا في حداد. أمّا الساقان، فهذا، حقاً...

ـ طبعاً. فأنا لست ساعي بريد.

توقّف أخي فجأة وسألني:

ـ ولماذا رأسك يهتزّ؟

Twitter: @ketab_n

- شيء سخيف. سينتهي ذلك، الطبيب قال لي.

- ويداك أيضاً؟

- نعم، نعم. ويداي أيضاً. سينتهي كل شيء. انقلني، من فضلك، فقد مللت الوقوف.

لقد أزعجوني، أزعجني هؤلاء الناس المتذمِّرون، إلا أن الفرحة عادت إليّ مرّة أخرى حين راحوا يهيِّئون لي الفراش، فراشاً حقيقياً، على سرير جميل، على السرير الذي اشتريته قبل العرس، قبل أربع سنوات مضت. لقد فرشوا لي ملاءة نظيفة، ثم نفشوا لي مخدَّة الريش، وطووا طرف اللحاف، بينما كنت أنظر إلى هذه التحضيرات المهيبة، وامتلأت عيناي بالدموع من الضحك:

- والآن اخلعي عنّي ملابسي ومدِّديني، - قلت لزوجتي. - شيء رائع!

- الآن، يا حبيبي.

- أسرعي.

- الآن، يا حبيبي.

- ما لكِ تتلكّئين؟

- الآن، يا حبيبي.

كانت واقفة وراء ظهري، بالقرب من خزانة الزينة، وعبثاً رحت أتلفّت برأسي كي أراها.

صرختْ صرخة لا يصرخ مثلها أحد إلا في الحرب:

Twitter: @ketab_n

ـ ما هــذا ! ـ واندفعتْ نحوي، فعانقتني، وسقطت بالقرب منّي وهي تخفـي رأسها عند ساقـيّ المبتورتين، وبرعب تبتعـد عنهما وتقع مرة أخرى فتقبِّل ما تبقّى منهما وتبكي.

ـ كـم كنتَ شاباًّ ! فأنت لم تتعدَّ الثلاثين من العمر. شابّاً جميلاً كنت. مـا هذا ! ما أظلم النـاس. لَم هذا؟ من كان بحاجة إلى هذا؟ أنت، أيها الغالي، يا مسكيني، يا حبيبيَ، حبيبي...

وحينها جاؤوا كلهم راكضين بسبب صرختها، أمّي، وأختي، والمربّية، وكان الجميع يبكون، يقولون كلمات ما، يتمرّغون عند قدميَّ ويمعنون بالبـكاء. وكان أخي واقفاً على العتبة، شاحباً، شديد البياض، يرتعش فكّه الأسفل، فصرخ زاعقاً:

ـ إنني هنا بوجودي معكم سأُجَنّ. سوف أفقد عقلي !

وشرعت أمّي تحبو عند كرسيّ، وقد كفّت عن العويل، واكتفت ببكاءٍ مبحـوح وهي تضرب رأسها بعجلات الكرسي. وظل السرير النظيفَ وعليه مخدّات الريشـ المنفوشة، واللحاف المطويُّ طرفُه، ذلك السرير الذي اشتريته قبل أربع سنوات مضت، قبلِ العرس.

المقطع التاسع

كنـت جالسـاً في بانيو من الماء الساخن، فيما أخـي يتمشّى في الغرفة الصغـيرة جيئـة وذهاباً، تارة يجلس وتارة يقوم، يتنـاول بيديه قطعة صابـون أو شرشفاً فيدنيه من عينيه الحسيرتـين ثم يعيده إلى مكانه. ثم استدار إلى الجدار وتابع بحرارة وهو يكشط الطلاء بإصبعه:

Twitter: @ketab_n

ـ احكمْ بنفسك، فلا يجوز أن يظل المرء في منأى عن العقاب عشرات ومئـات من السنين يعلّـم الناس الشفقة، والعقـل، والمنطق، أي وهو يشـكّلُ الوعي. بل والوعي قبل كل شـيء. إذ تستطيع أن تكون عديم الرحمة، وأن تفقد الإحساس، أن تألف منظر الدم، والدموع، والآلام علـى غرار القصّاب، مثـلاً، أو بعض الأطبّـاء، أو العسكريين، ولكنْ كيـف تستطيع أن تتخلّى عن الحقيقة بعد أن تعرفها؟ إن ذلك في رأيي لا يجـوز. لقد علّموني منذ الطفولة ألا أعـذّب الحيوانات، وأن أكون رحيمـاً؛ وهذا أيضاً ما علّمتني إيّـاه الكتب التي قرأتها، وإني لأتأسّف بـألم على أولئك الذيـن يتألمون في حربنا اللعينـة. ولكن ها هو الزمن يمـرّ، وإذا بي أبدأ التعوّد على جميع هـذه الأنواع من الموت، والآلام والدم؛ وأشعر بأنني حتى في الحياة العادية أقل حساسية، وأقلّ تعاطفاً، ولا أستجيـب إلا لأقوى الأشيـاء إثارة، ولكننـي لا أستطيع أن أعتاد حقيقة هذه الحرب، وعقلي يرفض أن يفهم وأن يفسّر ما هو في أساسه جنون. لقد تداعى مليون من البشر إلى مكان واحد، وفي محاولة منهم لإضفاء صفة الصواب على أفعالهـم يقتل بعضهم بعضاً، فيما الجميع يتألمـون بقدْرٍ واحد، والجميع تعساء على قـدم المساواة، فما هو هذا، أليس جنوناً؟

والتفت أخـي وسدّد إليّ نظرة متسائلة من عينيه الحاسرتين الساذجتين قليلاً.

ـ الضحك الأحمر، ـ قلت بمرح وأنا أعبث بالماء.

ـ وأنـا سأقول لك الحقيقة. ـ وبطيبـة قلب وضع أخي يده الباردة على كتفي، ولكنه سرعان ما أبعدها كأنه خاف من كون كتفي عارية ومبتلّة.

ـ سأقـول لك الحقيقـة: إنني شديد الخوف من أن أفقـد عقلي. فأنا لا

Twitter: @ketab_n

أستطيع أن أفهم ما يجري. لا أستطيع أن أفهم، وهذا شيء رهيب. ليت أحداً يستطيع أن يفسّر لي ذلك، ولكنْ ما من أحد يستطيع. ها أنت كنت في الحرب، ورأيت، فلتشرح لي هذه المسألة.

- انصرِفْ فليأخذك الشيطان! - أجبته بلهجةٍ مازحة، وأنا أعبث بالماء.

- وأنت أيضاً لا تستطيع، - قال أخي بحزن. - ما من أحد يستطيع أن يساعدني. هذا شيء رهيب. وها أنا عاجز عن أن أفهم ما هو المسموح وما هو الممنوع، ما هو العاقل وما هو المجنون. فإذا ما قبضت الآن على حنجرتك، دون ضغط في البداية، كما لو مداعبة، ثم زدت الضغط وخنقتك، ماذا يكون ذلك؟

- إنك تتلفّظ بهُراء. ما من أحد يفعل ذلك.

فرك أخي يديه الباردتين، وضحك بهدوء ثمّ أردف:

- عندما كنتَ ما تزال هناك، مرّت ليالٍ لم أنم فيها، لم أستطع أن أغفو، وكانت تراودني حينها أفكار من قبيل أن أتناول فأساً وأذهب فأقتل بها الجميع: أمّي، وأختي، والخدم، وكلبنا. طبعاً، لم يكن ذلك إلا أفكاراً، وأنا لن أفعل ذلك يوماً.

- ذلك ما أرجوه، - ابتسمت وأنا أعبث بالماء.

- وأنا أيضاً أخاف السكاكين، وكلّ ما هو حادٌّ، يلمع. إذ يبدو لي أنني إذا ما أخذت بيدي سكّيناً فلا بد أن أذبح به أحداً. وحقّاً، فلماذا لا أذبح ما دام السكين حادّاً؟

- حُجّة كافية. يا لكِ من غريب الأطوار، يا أخي! اسكبْ مزيداً من الماء الساخن.

Twitter: @ketab_n

فتح أخي الصنبور فنزل الماء، وتابع:

- وأنا كذلك أخاف الحشد، أخاف الناسَ عندما يجتمعون بأعداد كبيرة. فحين أسمع ضجّة وصراخاً عالياً وقت المساء في الشارع أرتعد، ويُخيَّل إليّ أن... أن مذبحة قد بدأت. وعندما يقف عدد من الأشخاص متقابلين وجهاً لوجه ولا أستطيع أن اسمع عمّا يتكلّمون، أبدأ أتصوّر أنهم سيصرخون الآن، ويثب بعضهم على بعض ويبدأ القتل. وأنت تعرف، - وانحنى على أذني هامساً متكتّماً، - أن الجرائد مليئة بالأخبار عن حوادث القتل، عن حوادث قتل رهيبة. ولا قيمة لوجود عدد كبير من البشر وعدد كبير من العقول، - ذلك أن للبشرية عقلاً واحداً، وقد بدأ يتعكّر. المسْ رأسي كم هو ساخن. إن فيه ناراً. وأحياناً يصبح بارداً، ويتجمّد كلّ شيء فيه، يتخشّب، يتحوّل إلى جليد رهيب ميت. إنني سأفقد عقلي، لا تضحك، يا أخي، فأنا سأفقد عقلي... لقد مرَّ ربع ساعة، وآن لك أن تخرج من البانيو.

- دعني قليلاً بعدُ. انتظر دقيقة.

كنت مرتاحاً جداً لجلوسي في البانيو، كما في ماضي الأيام، ولسماعي صوتاً أليفاً، دون أن أُمعن التفكير بالكلام، ولرؤية كلِّ ما هو معروف، بسيط، عاديّ: الصنبور المعدني الضارب إلى الخضرة قليلاً، والجدران والرسم الأليف عليها، ومواد التصوير المصفوفة على الرفوف بانتظام. إنني سأعود إلى ممارسة التصوير، إلى تصوير المناظر البسيطة اللطيفة، وتصوير ابني كيف يمشي، وكيف يضحك ويعبث. أستطيع أن أقوم بذلك من غير رجلين. وسأعود إلى الكتابة من جديد، سأكتب عن الكتب الذكية، وعن نجاحات الفكر البشري، وعن الجمال والعالم.

Twitter: @ketab_n

- هو- هو- هو ! - انفجرت بالضحك، وأنا أعبث بالماء.

- ماذا أصابك ؟ - خاف أخي وشحب لونه.

- لا شيء. فأنا مسرور لأنني في البيت.

ابتسم لي، كما لِطفلٍ، كما للأخ الأصغر، علماً بأنني كنت أكبره بثلاث سنوات، وأطرقَ مفكِّراً مثل رجل ناضج، مثل عجوز لديه أفكار كبيرة، ثقيلة وقديمة.

- أين المفرّ؟ - زمّ كتفيه وقال. - كلَّ يوم، في الساعة نفسها تقريباً، تقوم الجرائد بوصل التيار الكهربائي فترتعد البشرية كلّها. هذا التزامن بين الأحاسيس، والأفكار، والآلام، والرعب، يفقدني التوازن، فأغدو مثل قشّة على موجة، مثل ذرّة غبار في زوبعة. إنه يبعدني بقوة عمّا هو عاديّ، وكلَّ صباح تكون هناك لحظة رهيبة واحدة أجد نفسي خلالها متدلّياً في الهواء فوق هوّة الجنون السوداء. ثم أسقط فيها، يجب أن أسقط فيها. أنت ما زلت لا تعرف كلَّ شيء، يا أخي. أنت لا تقرأ الجرائد، إنهم يُخفون عنك أشياء كثيرة، وأنت ما زلت لا تعرف كلَّ شيء، يا أخي.

لقد نظرت إلى ما قاله على أنه نكتة قاتمة بعض الشيء، فقد كان ذلك قَدَرَ كل أولئك الذين يصبحون في جنونهم قريبين من جنون الحرب ويمضون يحذّروننا. لقد عددتُ ذلك نكتة، وكأنني نسيت في هذه اللحظة، وأنا أَعبث بالماء الساخن، كل ما شاهدته هناك.

- فليُخفوا ما طاب لهم، أريد أن أخرج من البانيو. - قلت بسذاجة، فضحك أخي ونادى الخادم، فأخرجني الاثنان معاً وألبساني. ثم

Twitter: @ketab_n

شربت شاياً معطّراً في فنجاني المضلّع، ودار في خَلَدي أن في وسعي أن أعيش من غير رِجلين، وبعد ذلك نقلاني إلى مكتبي بالقرب من طاولتي، فتهيَّأت للعمل.

قبل الحرب كنت أقدّم في إحدى المجلات عرضاً للآداب العالمية، والآن يوجد إلى جانبي، على بعد ذراع منّي، تلٌّ من هذه الكتب الحبيبة، الرائعة في جلودها الصفراء، والزرقاء، والبّنية. لقد منعني مقدار فرحتي العظيمة ومتعتي العميقة من أن أجرؤ على البدء بالقراءة، فاكتفيت بتقليب تلك الكتب ويداي تداعبانها بلطف. وشعرت بأن ابتسامة تنتشر في وجهي، قد تكون ابتسامة غبية جداً، ولكنّي لم أكن قادراً على منعها وأنا أمتِّع ناظريَّ بالخطوط ، وأحرف الاستهلال المزيّنة، وببساطة الرسم الصارمة البديعة. ما أكثر ما في ذلك كلّه من عقل وإحساس بالجمال! كم من الناس كان عليهم أن يعملوا ويبحثوا، وما أكثر ما كان عليهم أن يسخّروا من موهبة وذوق لكي يجعلوا هذا الحرف بسيطاً ورشيقاً إلى هذا الحد، ذكياً ومتناغماً وبليغاً إلى هذا الحد في امتداداته المتضافرة.

- والآن حان وقت العمل، - قلت بجدية واحترام للعمل.

وتناولت القلم لكي أضع عنواناً، وارتمت يدي على الورقة مثل ضفدع مربوط بخيط . وانغرست الريشة بالورقة، ومضت تصرف وتتقافز، وبجنون تنزلق جانباً وتصنع خطوطاً قبيحة، متقطعة، عوجاء، عديمة المعنى. فلم أكتب حرفاً، و لم آتِ بحركة، إذْ دبَّ البرد في جسدي وتجمّدت واعياً دنوَّ الحقيقة الرهيبة؛ وراحت يدي تقفز على الورقة الباهرة الإضاءة، وكان كل إصبع فيها يرتعش في رعبٍ يائس، حيٍّ، مجنون، وكأنها - هذه الأصابع - كانت ما تزال هناك،

Twitter: @ketab_n

في الحـرب، ترى اللهيـب والدم، وتسمع أنين وعويـل الألم الذي لا يوصف. لقد انفصلت عنّي، وكانت تعيش، كانت آذاناً وعيوناً، هذه الأصابـع، المضطربة بجنون؛ وبينما كان البرد يـدبّ في أوصالي وأنا عاجز عن الصراخ والحركة، كنت أراقب رقصها الهمجيّ على الورقة الناصعة البياض.

كان الهـدوء مخيّماً. وظنّوا أنني أعمل، فأغلقوا جميع الأبواب لكي لا يضايقوني بأصواتهم. ـ وكنت وحدي، مجرّداً من القدرة على الحركة، جالساً في غرفتي أنظر مستسلماً كيف ترتعش يداي.

ـ هـذه بسيطـة، ـ قلت بصوتٍ عـالٍ، فرنَّ صوتـي في سكينة المكتب ووحدته مبحوحاً وكريهاً كصوتِ مجنون. ـ هذه بسيطة. سوف أُملي إملاء. فقـد كان ملتون[٢١] أعمى عندما كتـب «استرداد الفردوس». إنني أستطيع أن أفكِر، وهذا هو الشيء الرئيس، هذا كل شيء.

وطفقـتُ أؤلّـف جملـة طويلة، ذكيـة عن الأعمـى مِلتـون، غير أن الكلمات تداخلت، وتساقطت مثلما تتساقط من عقد خَرِبٍ، وحين اقتربـت من نهاية الجملة كنت قد نسيت بدايتها. وعندها كنت أريد أن أتذكّر من أين كانت البداية، ولماذا أؤلّف هذه الجملة الغريبة العديمة المعنى عن شخص اسمه مِلتون، ولم أستطع.

ـ «استرداد الفردوس»، «استرداد الفردوس»، ـ رحت أردِّد ولا أفهم ما معنى ذلك.

٢١- جون ملتون (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤) شاعر وعالم إنكليزي، فقد بصره عام ١٦٥٢، وبعد ذلك كَتب ملحمته الشعرية الشهيرة «الفردوس المفقود»، ثم «استرداد الفردوس». ـ م.

Twitter: @ketab_n

وهنا أدركت أنني بصفة عامة أنسى أشياء كثيرة، وأنني أصبحت مشتتاً جداً وأُخطئ الوجوه التي أعرفها؛ إنني حتّى في الحديث البسيط تغيب عنّـي كلمات، وأحياناً أعرف الكلمة ولا أستطيع أن أفهم معناها بأيِّ شـكل من الأشكال. وقد تصوّرت يومي هذا بجلاء: إنه نهارٌ غريب، قصير، مبتور مثل رِجليّ، فيه أماكن فارغة، غامضة هي ساعات طويلة مـن فقدان الوعي أو انعدام الإحساس، لا أستطيع أن أتذكّر أيَّ شيء عنها.

أردت أن أنـادي زوجتـي، ولكني نسيـت اسمها، وقد بات الآن ذلك لا يثير عجبي ولا يخيفني. فهمست بصوتٍ خفيض:

- زوجتي!

كان رنـين هـذه الكلمة الركيكة، غـير المألوفة خفيضـاً وتجمَّدت من غـير أن تستدعي جوابـاً. وكان الهدوء مخيِّماً. لقـد كانوا يخشون أن يضايقوني في عملي بصوت نافر، وكان الهدوء مخيِّماً - عالَمٌ في مكتب حقيقي، مريح، هادئ، يشجِّـع على التأمل والإبداع. «يالأحِبَّتي، ما أشدَّ عنايتهم بي!»: هذا ما جال في خاطري أنا، المدلَّل.

... الإلهـام، الإلهام المقدَّس أنار بصيرتي. فقد اتَّقـدت الشمس في رأسـي، وطلعت أشعتها الإبداعية الساخنة على العالم كلّه تنثر الأزهار والأغاني. وأمضيت الليل بطوله أكتب، لا أعرف التعب، محلّقاً بحرّية علـى أجنحة الإلهـام المقدَّس الجبّار. وقـد كتبت شيئاً عظيمـاً، شيئاً خالداً: الأزهارَ والأغاني. الأزهار والأغاني...

Twitter: @ketab_n

الجزء الثاني

المقطع العاشر

... لحسن الحظ ، فقد مات الأسبوعَ الماضي، يومَ الجمعة. أكرر، إنها سعادة كبيرة لأخي. معوَّق مبتور الرجلين، يرتجف كلّه، محطَّم الروح، كان في نشوته الإبداعية المجنونة مرعباً ويبعث على الشفقة. منذ تلك الليلة ظلَّ شهرين كاملين يكتب، لا ينهض عن كرسيّه، يرفض الطعام والشراب، يبكي ويسبّ عندما ننقله بعيداً عن طاولته لبعض الوقت. كان ينقِل ريشته الجافة على الورقة بسرعة فائقة، ويلقي بالأوراق واحدة تلو الأخرى على الأرض، ويستمر يكتب ويكتب. لقد فارقه النوم. و لم نتمكّن إلا مرّتين من أن نمدِّده في الفراش لبضع ساعات بعد أن نعطيه مخدِّراً قوياً. ثم صار حتّى المخدِّر يعجز عن التغلّب على نشوته الإبداعيةِ المجنونة. وبناء على طلبه كانت الستائر تظلّ مسدَلة تغطّي النوافذ طول النهار فيما المصباح الكهربائي مشتعل للإيهام بأن الوقت ليل. وكان يدخّن سيجارة وراء سيجارة ويكتب. يبدو أنه كان سعيداً، و لم يقدَّر لي يوماً أن أرى عند الناس الأصحّاء مثل ذلك الوجه الملهَم، وجه النبيّ أو الشاعر العظيم.

لقد أصابه هزالٌ قويّ أضفى عليه ما للجثّة أو للناسك من شفافية الشمع، وكلّله الشيب تماماً؛ لقد بدأ عملَه الجنوني هذا وهو ما يزال

Twitter: @ketab_n

شاباً نسبيّاً، وأنهاه وهو شيخٌ عجوز. كان في بعض الأحيان يسرع في الكتابة أكثر ممّا هو مألوف، وكانت الريشة تنغرس في الورقة وتنكسر، ولكنه لم يكن ينتبه إلى ذلك. في تلك اللحظات كان لا يجوز أن يلمسه أحد، لأن أدنى لمسة كانت تسبب له نوبة، ودموعاً، وقهقهات. وكان في بعض اللحظات النادرة جداً يستلقي سعيداً ويتكلّم معي راضياً، ويطرح عليّ كلّ مرة أسئلة لا تتغيّر: من أنا، ما اسمي، وهل أشتغل بالأدب منذ وقت طويل أم لا.

كان بعد ذلك يحدّثني على سجيّته، وهو يستخدم الكلمات نفسها دائماً، كيف خاف خوفاً مضحكاً من أنه فقد ذاكرته و لم يستطع العمل، وكيف دحض في الحال بنجاح كبير هذا الافتراض الجنوني، بعد أن شرع بكتابة سفْره العظيم الخالدَ عن الأزهار والأغاني.

ـ طبعاً، أنا لا أنتظر أن يعترف بي المعاصرون، ـ قال بفخر وتواضع معاً، وهو يضع يده الراعشة على كومة أوراقٍ فارغة، ـ ولكنّ المستقبل، ولكنّ المستقبل سوف يفهم فكرتي.

لم يتذكّر الحرب مرّة، و لم يتذكّر زوجته وابنه مرّة، فقد كان العمل الوهمي اللانهائي مسيطراً على اهتمامه سيطرة كاملة جعلته لا يكاد يعي أيَّ شيء غيره. كان يمكن أن تمشي في حضوره، وأن تتكلّم وهو لا يلحظ ذلك، و لم يكن وجهه يفقد التعبير عن التوتّر الرهيب والإلهام ولو لحظة واحدة. وفي صمت الليالي، عندما يكون الجميع نائمين وهو وحده ماضٍ بلا كلل في غزْل خيط من الجنون لا ينتهي، كان يبدو مرعباً، وما من أحدٍ غيري أنا وأمّي يجرؤ على الاقتراب منه. وذات مرة حاولت أن أقدِّم له بدلاً من القلم الناشف قلمَ رصاص، ظنّاً

Twitter: @ketab_n

منّي أنه حقّاً قد يكون يكتب شيئاً ما، غير أنه لم يكن يبقى على أوراقه إلا خطوط شنيعة، متقطعة، عوجاء، خالية من المعنى.

لقد مات في الليل، وهو يعمل. كنت أعرف أخي جيداً، و لم يكن جنونه مفاجئاً لي. ذلك أن حلمه المشبوب بالعمل، ذلك الحلم الذي كانت تنضح به رسائله منذ أيّام الحرب، وكان يمثّل مغزى حياته كلّها بعد عودته، كان لا بدّ له حتماً من أن يصطدم بعجز دماغه المضنَى، المعذَّب، وأن يفضي إلى كارثة. وأعتقد أنه أتيح لي أن أستعيد بدقّة كبيرة بناء تسلسل مشاعره التي ساقته إلى نهايته في تلك الليلة المشؤومة. وعموماً، فإن كلّ ما كتبته هنا عن الحرب إنما أخذته من كلمات المرحوم أخي التي كثيراً ما كانت متقطعة ومشتتة. هناك فقط بعض المَشاهد المتفرّقة التي دخلت ملتهبة إلى دماغه بقدْر من الثبات والعمق مكّنني من إيرادها حرفيّاً تقريباً، كما كان يحكيها.

كنت أحبّه، وكان موته يُثقِل عليَّ مثل الحجر، ويضغط على دماغي بعبثيته. وفضلاً عن ذلك المجهول الذي يطوِّق رأسي مثل عشّ العنكبوت، فقد أضاف ذلك الموت أُنشوطة أخرى وضيّقها عليَّ بقوّة. لقد سافرت أسرتنا إلى القرية، إلى أقربائنا، وأنا الآن وحيدٌ في البيت كلّه، في هذا البيت المنفرد الذي شدَّ ما كان أخي يحبّه. لقد حاسبْنا الخدمَ وسرَّحناهم. أحياناً يأتي في الصباح كنّاسٌ من بيت في الجوار فيشعل الموقد عندي، أمّا في باقي الوقت فأكون وحدي، أشبِه ذبابة أغلقوا عليها شبّاكاً مزدوج الزجاج، أروح وأجيء مسرعاً وأصطدم بحاجزٍ شفّاف لا يمكن اختراقه. وإنني لأشعر وأعرف أنه لا مفرَّ لي من هذا البيت. فأنا الآن، عندما أكون وحدي، تسيطر عليَّ الحرب سيطرة كاملة، وتواجهني مثل لغز عصيّ على الحل، مثل شبح

Twitter: @ketab_n

رهيب لا أستطيع أن أراه مجسّداً. إنني أتصوّره في كل ما يمكن من صور: هيكلاً على الشبّاك مقطوع الرأس، ظلاً لا شكل له، وُلِدَ في الغيوم وعانق الأرض من غير صوت، ولكنْ ما من صورة تعطيني جواباً، ولا تحيط بهذا الرعب البارد، الدائم، المتلبّد الذي يستولي عليَّ.

إنني لا أفهم الحرب وسأفقد عقلي، مثل أخي، مثل مئات من البشر الذين يجيئون بهم من هناك. وهذا لا يرعبني. إن فقدان العقل يبدو لي مشرِّفاً، مثل موت حارس على رأس عمله. أمّا الانتظار، أمّا هذا الاقتراب البطيء والثابت للجنون، هذا الإحساس للحظة بشيء ضخم يسقط في هوّة، هذا الألم الذي لا يطاق، الناجم عن فكرٍ يتعذّب... لقد تخدّر قلبي، إنه مات، ولا أمل له بحياة جديدة، أمّا الفكر الذي ما يزال حيّاً، ما يزال يصارع، الفكر الذي كان قويّاً ذات يوم مثلَ شمشون، وبات الآن أعزل وضعيفاً مثل طفل، فإنني أُشفق عليه، على فكري المسكين. ثمّة دقائق تمرّ لا أستطيع أن أتحمّل فيها عذاب هذه الحلقات الحديدية التي تضغط على دماغي؛ فأتمنّى أن أنطلق راكضاً بلا قيد إلى الشارع، إلى الساحة حيث الناس، وأصرخ:

ـ أوقِفوا الحرب الآن، وإلا...

ولكنْ، أيُّ «وإلا»؟ فهل هناك كلمات تستطيع أن تعيدهم إلى رشدهم، كلمات لا يوجد قُبالتها كلمات أخرى مثلها صاخبةٌ وكاذبة؟ أم هل أركع أمامهم على ركبتَيّ وأنخرط بالبكاء؟ غير أنّ مئات الآلاف يتوسّلون إلى العالم بدموعهم، فهل يعطي ذلك ولو أيَّ شيء؟ أم هل أقتل نفسي أمام عيونهم؟ القتل! إن آلافاً يموتون يوميّاً، فهل يعطي هذا ولو أيّ شيء؟ وعندما أشعر بعجزي إلى هذا الحدّ يستولي عليَّ سُعار

Twitter: @ketab_n

الحرب التي أكرهها. إنني أتمنّى، مثل ذلك الطبيب، أن أحرق بيوتهم، وبالإضافة إلى كنوزهم، وزوجاتهم وأطفالهم، أن أسمِّم الماء الذي يشربون؛ أن أنهض جميع الموتى من نعوشهم وألقي بجثثهم في بيوتهم النجسة، على أسرَّتهم. فلينامو مع تلك الجثث كما مع زوجاتهم، كما مع عشيقاتهم.

آه، ليتني كنت الشيطان! لكنتُ نقلت إلى أرضهم كلَّ الرعب الذي يتنفَّسه الجحيم، لكنت غدوت ملِك أحلامهم، ولَوقفتُ أمامهم أسوَد اللون... حين يكونون يرسمون إشارة الصليب على أطفالهم، وهم يستسلمون للنوم مبتسمين.

أجل، إني سأفقد عقلي، ولكنْ ليت ذلك يأتي سريعاً...

المقطع الحادي عشر

... من الأسرى، حفنة من الناس المرتجفين، الخائفين. عندما أنزلوهم من المقطورة نبح الحشد مثل كلب واحد، ضخم، غاضب، ساجوره[٢٢] قصير وغير متين. نبح وسكت، وهو يلهث بقوة. كانوا يسيرون حفنة متراصّة، واضعين أيديهم في جيوبهم، تفترّ شفاههم الشاحبة عن بسمة مصطنعة، يخطون بأقدامهم وكأن هناك الآن من سيضربهم من الخلف تحت ركبهم بعصا طويلة. ولكن واحداً منهم هادئاً، جادّاً، دون ابتسامة كان يسير مبتعداً عنهم قليلاً. وعندما التقيت بعينيه قرأت فيهما حقداً صريحاً، عارياً. لقد رأيت بوضوح أنه يحتقرني، ويتوقع

٢٢- الساجور للكلب كالرسن للحمار. - م.

Twitter: @ketab_n

منـي كل شيء. وإذا ما شرعت الآن بقتله، وهو أعزل، فإنه لن يصرخ، ولن يدافع عن نفسه: إنه يتوقّع مني كل شيء.

ركضـت مع الحشد لكي تلتقي به عيناي، وقد تمكّنت من ذلك عندما كانـوا يدخلـون إلى البيت. لقد مـرّر رفاقه الآخرين قبلـه وكان آخر الداخلـين، فألقـى إليّ نظرة مـرة أخرى. وعندها شاهـدت في عينيه السوداويـن، الكبيرتين، الخاليتين من البؤبؤ قـذْراً من العذاب، وهوّة سحيقة مـن الرعب والجنون، وكأني أطللت بناظري على أتعس روح في الوجود.

ـ مَن هذا، صاحب هاتين العينين؟ ـ سألت الحارس.

ـ إنه ضابط. مجنون. أمثاله كثيرون.

ـ ما اسمه؟

ـ ساكـتٌ، لا يقـول اسمه. والذين معـه لا يعرفونه. هكـذا، إنه أحد التائهـين. أوووه، لقـد سبق أن فكّوه مرّة من حبـل المشنقة! ـ وأشاح الحارس بيده واختفى وراء الباب.

وهـا أنا الآن، في هذا المساء، أفكّر فيه. إنـه الوحيد بين الأعداء الذين يعدّهـم قادرين علـى فعل كل شيء، وجماعتـه لا يعرفونه. وهو يلوذ بالصمت وينتظر بصبرٍ متى يستطيع أن يرحل عن هذا العالم نهائياً. أنا لا أصـدِّق أنه مجنون، وهو ليس جباناً: فقد كان الوحيد الذي يحتفظ بكرامته بين هذه الشرذمة من الناس الخائفين، المرتجفين الذين لا يعدّهم هو أيضاً، على ما يبدو، أبناء جنسه. ما الذي يجول في خاطره؟ يا لعمق اليأس الذي يجب أن يكـون في نفس هذا الإنسان الذي يرفض وهو يمـوت أن يبوح باسمه. فلماذا الاسم؟ لقد قطع صلته بالحياة وبالناس،

Twitter: @ketab_n

لقد فهم قيمتهم الحقيقية، ولا وجود لهم حوله، لا وجود لمن هم من جنسه، ولا للغرباء مهما صرخوا، واستشاطوا غضباً، وهدّدوه. لقد أكثرت من السؤال عنه، وعلمت أنه أُخذ أسيراً في أثناء المعركة الرهيبة الأخيرة، وقت المذبحة التي قتل فيها آلاف من الناس، و لم يقاوم عندما أسروه. ولسبب ما كان أعزل من السلاح، وعندما ضربه جنديّ بسيفه لم ينتبه إلى ذلك، لم ينهض من مكانه، و لم يرفع يديه لكي يحمي نفسه. ولكنْ، لسوء حظه، تبيّن أن الجرح كان خفيفاً.

وربّما يكون مجنوناً حقّاً؟ فقد قال لي الجنديّ: إن أمثاله كثيرون...

المقطع الثاني عشر

... تبدأ ... عندما دخلتُ أمس مساء إلى مكتب أخي كان جالساً في كرسيّه بالقرب من طاولته المكتظّة بالكتب. وسرعان ما اختفت الهلوسة في الحال ما إن أشعلت شمعة. غير أنني أطلت الوقوف لا أجرؤ على الجلوس على الكرسيّ الذي كان جالساً عليه. كان ذلك مرعباً في البداية. فالغرف الخاوية التي يُسمَع فيها على الدوام حفيفٌ وتصدُّعٌ تسبِّب هذا الرعب، بل وقد بات ذلك يعجبني فيما بعد: فخيرٌ لي أن يكون هو من أن يكون شخص آخر مكانه. ومع ذلك فإنني لم أنهض طول هذا المساء عن الكرسي، إذ خُيِّل إليّ أنني إذا ما نهضت جلس في مكانه حالاً. فغادرت الغرفة بسرعة كبيرة، دون أن ألتفت. كان يجب أن أوقد الشموع في الغرف كلّها، ولكنْ هل يستحقّ الأمر ذلك؟ فربّما يكون الحال أكثر سوءاً إذا ما رأيت شيئاً في الضوء، أمّا هكذا فيظلّ هناك شكٌّ على كل حال.

Twitter: @ketab_n

دخلت اليوم الغرفة وفي يدي شمعة، و لم يكن جالساً على الكرسي أحد. واضحٌ أنه مجرّد شبح ومضى. مرة أخرى كنت في محطة القطارات، فأنا أذهب إلى هناك كل صباح، ورأيت مقطورة كاملة من مجانيننا. لم يفتحوا تلك المقطورة وحوّلوها إلى سكّة أخرى، غير أنه تسنّى لي أن أتبيّن عبر نافذتها عدداً من الوجوه. إنها وجوهٌ مرعبة. ولاسيّما واحد منها. متطاول فوق الحد، أصفر كالليمون، بفم مفتوح أسوَد، وعينين جامدتين، وكان شبيهاً بقناع رعب إلى درجةٍ جعلتني عاجزاً عن أن أحيد بنظري عنه. وكان هو ينظر إليّ، كان ينظر كلّه، وكان جامداً، وعلى هذه الشاكلة انداح مع المقطورة التي تحركت دون أن يرتعش، أو يحيد بنظره عنّي. فلو أنه تبدّى لي الآن في هذه الأبواب المظلمة لَما تحمّلت، على ما أظنّ. لقد سألت فقالوا إنهم جاؤوا باثنين وعشرين شخصاً. إن المذبحة تتعاظم. وثمة شيء تتكتّم عليه الجرائد. إلا أن الوضع عندنا في المدينة، كما يبدو، ليس على ما يرام. لقد ظهرت عربات سوداء مغلقة بإحكام، أحصيت منها في يوم واحد - هذا اليوم - ستّاً في أنحاء مختلفة من المدينة. وقد أسافر أنا أيضاً في واحدة منها غداً.

أمّا الجرائد فإنها تطالب يومياً بجيوش جديدة وبدم جديد. وأنا أزداد تراجعاً في القدرة على فهم ما يعنيه ذلك. في الأمس قرأت مقالة جديدة مريبة للغاية يبرهن فيها كاتبها أن بين الناس كثيراً من الجواسيس، والعملاء، والخونة، وأنه يجب على المرء أن يكون حذراً ومتيقّظاً، وأن غضب الشعب نفسه كفيل بإيجاد المذنبين. فأيُّ مذنبين، وفيمَ ذنْبهم؟ عندما كنت عائداً من محطة القطارات في عربةِ تُرام سمعت حديثاً غريباً يدور بين اثنين حول هذا الموضوع، على ما يبدو:

Twitter: @ketab_n

ـ يجب أن يُشنقوا دون محاكمة، ـ قال أحدهما وهو يلقي نظرة متفحِّصة على الجميع وعليّ. ـ يجب شنق الخونة، أجل.

ـ وبدون رحمة، ـ أكّد الآخر. ـ لقد أسرفنا في العطف عليهم.

قفزت هارباً من المقطورة. فالجميع يبكون بسبب الحرب، وهما أيضاً يبكيان، ـ فما معنى هذا؟ ثمة ضباب دمويٌّ يلفّ الأرض ويحجب الرؤية، وها أنا أبدأ الاعتقاد بأن لحظة الكارثة العالمية تقترب حقّاً. الضحك الأحمر الذي كان أخي يراه. إن الجنون يأتي من هناك، من تلك البراري الدموية المائلة إلى الحمرة، وإني لأشعر بأنفاسه الباردة في الهواء. إنني إنسان متين البنية وقويّ، ولا أشكو من تلك الأمراض التي تفتك بالجسم، والتي تؤدّي إلى تفسّخ الدماغ، ولكنني أرى كيف تستولي عليّ العدوى وقد بات نصف أفكاري لا يخصّني. وهذا أشدُّ خطراً من الطاعون وويلاته. فالطاعون، على أية حال، كان يمكن الاحتماء منه في مكان ما، واتّخاذ بعض الإجراءات ضدّه، ولكنْ كيف الاحتماء من فكرة لا تكفّ عن التغلغل، ولا تعرف المسافات والحواجز؟

ما أزال قادراً على الصراع في النهار، أمّا في الليل فإنني أغدو ـ شأني شأن الجميع ـ عبداً لمناماتي. ومناماتي مرعبة ومجنونة...

المقطع الثالث عشر

... مجازر في كل مكان، عديمة المعنى ودموية. أقلّ ثأر يتسبّب بثأرٍ همجيّ، فتُستعمل السكاكين، والحجارة، والأخشاب، ويغدو سيّان من نقتل. فالدم الأحمر يتوق إلى الخروج، ويسيل بدرجة عالية من الرضا والغزارة.

Twitter: @ketab_n

كان عددهـم ستّـة، أولئـك الفلاحـين، وكان يسوقهـم ثلاثة جنود يحملون بنادق ملقّمـة. إنهم بثيابهم الفلاحية المميّـزة، البسيطة التي تذكّـر بالهمج، وبوجوههم المميّزة التي كأنما جُبِلت من طين، والمزيَّنة بصوف متهدِّل بدلاً من الشعر، وتحت حراسة جنود منضبطين، كانوا في شوارع المدينة الغنيـة يشبهون عبيد العالم القديم. كانوا يسوقونهم إلى الحرب فيسيرون مستسلمين للحـراب، أبرياء وأغبياء كالجواميس التـي تُساق إلى الذبـح. كان يسير أمامهم فتى طويـل القامة، لم تنبت لحيته بعد، له رقبة إوزٍ طويلةٌ يجلس عليها رأسٌ صغير لا يتحرّك. كان محنيّـاً إلى الأمام كلّه مثل غصن يابـس، وكان ينظر أمامه منكّساً بصره بقدْر من الثبات وكأن نظره يريد أن يسبر أقصى أعماق الأرض. وكان آخـرُ السائرين رَبْعَ القامة، ملتحياً، مسنّاً: لا يريد أن يقاوم، وليس في عينيه فكرة، إلا أن الأرض كانت تجذب إليها ساقيه، تتشبَّث بهما ولا تطلقهما. وكان يمشي مائلاً بجسمه إلى الوراء كمن يسير بعكس اتجاه ريـح قوية. وفي كل خطوة كان جنـديٌّ خلفه يدفعه بسبطانة بندقيته، فتندفـع رجلـه إلى الأمام بتوتر وكأنها كانت ملتصقـة بالأرض، بينما تلتصـق الرجل الأخـرى بالأرض بقـوّة. كانت وجـوه الجنود كئيبة وغاضبـة، ويظهر أنهم يسيرون على هـذا النحو منذ مدّة طويلة. كان الإحساس بالتعب واللامبالاة بادياً عليهـم من الطريقة التي يحملون بهـا بنادقهم، وفي خطاهم المتعثِّرة، وكانـت رؤوس أحذيتهم مقوّسة كأحذيـة الفلاحين. لكأن مقاومـة الفلاحين العديمـة المعنى، الطويلة والصامتـة قد عكّـرت عقلهم المنضبط ، فلم يعـودوا يفهمون إلى أين يسيرون ولماذا.

- إلى أيـن تقودونهم؟ - سألت الجنديّ الأخير، فارتعد وألقى إليّ نظرة،

Twitter: @ketab_n

وفي هـذه النظرة الحادّة التي برقتْ شعـرت بالحرية شعوراً جليّاً للغاية وكأنها مغروزة في صدري.

- ابتعد ! - قال الجندي. - ابتعد، وإلا...

وعندهـا انتهز المسـنّ اللحظة وهـرب مبتعداً يركض بهرولة خفيفة صوب سيـاج المنتزه، ثم أقعـى مقرفصاً كمن يختبـئ. لم يكن بوسع حيـوان حقيقي أن يتصـرف بهذا القدْر من الجنـون. ولكن الوحشية بلغـت بالجنـدي مداها. لقـد رأيت كيـف اقترب منه تمامـاً، فانحنى وألقـى البندقية إلى يده اليسرى، ثم هوى بيـده اليمنى عليه بشيء ليّن ومسطّح. وأعاد الكرّة مرة أخـرى. واجتمع الناس. وترامى ضحك وصرخات...

المقطع الرابع عشر

... في الصـف الحادي عشر في الصالة. مـن اليسار واليمين ضغطَت علـيَّ أيدٍ بقـوّة، وبعيداً حـولي في شبه ظلمة كانت تلـوح رؤوس لا تتحـرّكُ، يُلقي عليها الأحمـر ضوءاً خفيفاً يصدر عـن المنصّة. وشيئاً فشيئـاً راح يستولي عليّ رعب ينبعث من هـذه الكتلة من البشر الذين يضمّهـم فضاء ضيّق. كان كلّ واحدٍ منهم صامتاً ويستمع إلى ما يقال علـى خشبـة المسرح، ولعلّـه كان يفكّر بشيء يخصّـه، ولكنْ لمّا كان عددهـم كبيراً فإنهم كانـوا في صمتهم مسموعين أكـثر من أصوات الممثلين العاليـة. كانوا يسعلون، ويتمخّطون، ويثـيرون جلبة بثيابهم وأرجلهم، وكنت أسمع بوضوح أنفاسهم العصبية العميقة التي تدفّئ الجـو. كانوا مرعبـين لأن كلاً منهم يمكن أن يصبح جثـة، وكان لهم

Twitter: @ketab_n

جميعهـم رؤوس مجنونة. وفي طمأنينة هذه القذالات المسرَّحة الشعر، المستنـدة بثقة على ياقاتها البيضاء الصلبة شعـرت بإعصار من الجنون مهيَّأ للانفجار في كل ثانية.

وقـد تجمَّدت يداي من الـبرد عندما خطر لي كـم عددهـم كبير، وكـم هم مرعبـون، وكم أنا بعيد عـن باب الخروج. إنهـم هادئون، فماذا لو صرخـت: «حريق!»... وبرعـبٍ راودتني رغبـةٌ فظيعة، هائلة لا أستطيع أن أتذكَّرها إلا وتعود يداي تتجمّدان من البرد وأتصبَّب عرقاً. مَن الذي يمنعني مِن الصراخ، مِن أن أنهض فألتفت إلى الوراء وأصرخ:

ـ حريق ! النجدة، حريق !

سيستولي شبح الجنون على أعضائهم المطمئنَّة. سوف يقفزون، سوف يزعقـون، سوف يُعولـون، وسينسـون أن لهم زوجـات وأخوات، وأمّهـات، وسوف يبدؤون بالتراكض وكأنهم أصيبوا بعمى فجائي. وفي نوبـة جنونهـم سيشرعـون بخنق بعضهـم بعضاً بهـذه الأصابع البيضـاء التي تفـوح منها رائحـة العطـر. سيشعلون ضـوءاً ساطعاً، ويمضـي أحدهم شاحـبَ اللون يصرخ من فوق الخشبـة بأن كل شيء هـادئٌ وليس هنـاك حريق. وبمرح همجـي سوف تنطلـق موسيقى كالرعـد متقطعةً، ولكنهـم لن يسمعـوا شيئاً، سيكونـون منهمكين بالخنق، يدقّون الأرض بأقدامهم، يضربون النساء على رؤوسهنّ، على هـذه التسريحات المعقّدة الماكـرة. سوف يقطع بعضهـم آذان بعض، ويجدعـون الأنوف عضّاً، ويمزِّقون الثيـاب إلى أن تعرى الأبدان ولن يخجلوا، لأنهم مجانين. وزوجاتهـم الحساسات، الرقيقات، الجميلات العاريات سـوف يزعقن ويتخبَّطـن عاجزاتٍ عنـد أقدامهم، يعانقن ركبهـم وهنَّ مـا يزلن مؤمنـاتٍ بنبلهم. أمّـا هم فسـوف يضربوهنّ

Twitter: @ketab_n

بغضب على وجوههنّ الجميلة المرفوعة ويبذلون قصارى جهدهم من أجل الوصول إلى باب الخروج. ذلك أنهم قتَلةٌ دائماً، ليس هدوؤهم ونبلهم إلا هدوء ونبل وحشٍ شبعان يشعر أنه في أمان.

وعندما يغدو نصفهم جثثاً، ويجتمعون عند باب الخروج جماعةً ممزّقة من الوحوش التي يجلّلها العار، سأصعد إلى الخشبة وأقول لهم ضاحكاً:

- كلُّ هذا لأنكم قتلتم أخي.

يجب أن أكون قد همست بشيء ما، لأن جاري الذي على يميني تململ في مكانه بغضب وقال:

- اخفض صوتك ! إنك تمنعني من الاستماع.

شعرت بالمرح وطاب لي أن أمزح. فتصنّعت وجهاً محذِّراً صارماً وانحنيت صوبه.

- ماذا هناك ؟ سألني بريبة. - لماذا تنظر بهذه الطريقة؟

- اخفضْ صوتك، أتوسَّل إليك، - همستُ بشفتَيَّ فقط. - أنت تشمُّ رائحة دُخانَ شيء يحترق. في المسرح حريق.

كان لديه من القوة والحكمة ما يكفي لمنعه من أن يصيح. فقد اصفرَّ وجهه، وتهدَّلت عيناه على خدَّيه تقريباً، ضخمتين مثل كيسين منفوخَين، إلا أنه لم يصرخ. بل نهض بهدوء، حتّى إنه لم يشكرني، ومضى نحو باب الخروج يترنّح بطيء الخطوات متشنِّجاً. كان يخاف أن يكتشف الآخرون الحريق فيحولون بينه وبين الخروج هو الوحيد الجدير بالنجاة والحياة.

Twitter: @ketab_n

بتُّ أشعر بالقرف، فخرجت من المسرح أيضاً، بل و لم أكن راغباً في أن أكشف عن هويّتي المجهولة في وقت مبكّر جداً. وفي الشارع ألقيت نظرة إلى السماء حيث كانت تدور الحرب. هناك كان كل شيء هادئاً، وكانت النجوم الليلية، الصفراء بفعل النيران، تزحف ببطء وهدوء. «لعلّ هذا كلّه حلم وليس هناك أيّ حرب؟» - جال في خاطري وأنا مخدوع بطمأنينة السماء والمدينة.

ولكنّ صبيّاً قفز من وراء زاوية وهو يصيح فرِحاً:

- معركة مدوِّية. خسائر هائلة. اشتروا البرقية، برقية المساء!

قرأتها بالقرب من مصباح الشارع. أربعة آلاف جثة. ربّما لم يكن في المسرح أكثر من ألف إنسان. وفكّرت طول الطريق: أربعة آلاف جثّة.

إنه لشيء يرعبني الآن أن أجيء إلى بيتي الخاوي. كنت ما إن أبدأ بإدخال المفتاح وأنظر إلى الأبواب الخرساء المسطّحة حتّى أشعر بكل غرفه المظلمة الخاوية التي سيسير فيها الآن رجل يلبس قبّعة ويتلفّت. إنني أعرف الطريق جيداً، ولكني أبدأ، وأنا بعدُ على الدرَج، بإشعال أعواد الثقاب، وأظل أحرقها إلى أن أعثر على شمعة. إنني الآن لا أذهب إلى مكتب أخي، وهو مقفول بالمفتاح على كل ما فيه. فأنا أنام في غرفة الطعام التي انتقلت إليها نهائياً. ففيها الحال أهدأ، وكأن هواءها ما زال يحتفظ بآثار الأحاديث، والضحك، ورنين الأواني المرح. وأسمع بوضوح أحياناً صرير القلم الناشف؛ وعندما أستلقي في الفراش...

Twitter: @ketab_n

... هذا الحلم السخيف والرهيب. لكأنهم خلعوا عن دماغي غطاءه العظمي، فبات أعزل، عارياً يمتصّ بطاعة ونهم جميع فظائع هذه الأيام الدموية المجنونة. إنني أستلقي متجمّعاً مثل كرة، لا يحتلّ جسمي كلّه إلا مساحة أرشينين[٢٣] من المكان، فيما فكري يعانق العالم. إنني أنظر بعيون جميع البشر، وأسمع بآذانهم. إنني أنام مع القتلى، مع مَن هو جريح ومنسيٌّ، وأنا أحزن وأبكي، وعندما يسيل الدم من جسم أحد أشعر بألم الجروح وأتعذّب. وبوضوح كنت أرى كلّ ما لم يكن موجوداً وما هو بعيد مثلما أرى ما كان وما هو قريب؛ وما من حدود لآلام دماغي العاري.

هؤلاء الأطفال، هؤلاء الصغار الذين ما زالوا أبرياء. لقد رأيتهم في الشارع عندما كانوا يلعبون بالحرب ويركض بعضهم وراء بعض، وكان هناك من يبكي بصوت أطفال رقيق، وارتعد في داخلي شيء بسبب الرعب والقرف. وذهبت إلى البيت، وجاء الليل، وإذا بي، في أحلامي النارية الشبيهة بحريقٍ وسط الليل، أرى هؤلاء الأطفال الصغار الذين ما زالوا أبرياء يتحوّلون إلى جحافل غفيرة من الأطفال القتَلة.

كان ثمّة شيء شرّير يشتعل بنار واسعة وحمراء، وفي الدُّخان يتحركَ أطفال مشوّهو الخلقة شنيعون، لهم رؤوس قتَلة ناضجين. كانوا يتقافزون بخفّة ويتحرّكون مثل جِداء تلعب، ويتنفّسون بصعوبة كأنهم مرضى. أفواههم شبيهة بأشداق الضفادع، وكانت تنتفخ

٢٣- الأرشين وحدة قياس روسية قديمة = ٧١ر١٢ سم. - م.

Twitter: @ketab_n

بتشنّج واتّساع. وتحت الجلد الشفاف الذي يغطّي أجسامهم العارية كان الدم الأحمر يجري قاتماً، وكان يقتل بعضُهم بعضاً وهم يلعبون. لقد كان ذلك أشدَّ رعباً من جميع الأشياء التي رأيتها، لأنهم كانوا صغاراً، ويستطيعون أن يتسلّلوا إلى أيِّ مكان.

أطللت بنظري من النافذة فرآني أحد أولئك الصغار وابتسم. كانت نظرته تطلب الأذن بالمجيء إليّ.

- أريد الذهاب إليك، - قال.

- إنك ستقتلني.

- أريد الذهاب إليك، - قال وشحب لونه فجأة وعلى نحوٍ مرعب، ومضى يستخدم أظفاره في تسلّق الجدار الأبيض، كأنه جرذ، تماماً مثل جرذ جائع. وراح يسقط ويزعق، وكان يتسلّق الجدار بسرعة كبيرة جعلتني لا أستطيع اللحاق بمراقبة حركاته المتقطعة المفاجئة.

«إنه يستطيع الانسلال من تحت الباب»، - فكّرت برعب، فصار - وكأنه اكتشف فكرتي - رفيعاً وطويلاً، وانسلَّ بسرعة، وهو يلوّح بطرف ذيله، عبر شقٍّ ضيّق تحت باب المدخل الرئيس. إلا أنه تسنّى لي أن أختبئ تحت اللحاف وأسمع حركات هذا الصغير الذي يبحث عنّي في الغرفة المظلمة، فيما هو يتوخّى الحذر ويخطو بقدميه الحافيتين الصغيرتين جداً. وببطء شديد، وهو يتوقّف ثم يمشي، اقترب من غرفتي ودخل. ومضى وقت طويل لا أسمع فيه شيئاً: لا حركة، ولا حفيفاً، وكأنما لم يكن بالقرب من سريري أيّ أحد. وإذا بطرف اللحاف بدأ يرتفع تحت يدٍ صغيرة ما، فلامس هواءُ الغرفة البارد وجهي وصدري. فقبضت على اللحاف بمزيد من القوة، غير أنه راح بعناد يتفلّت من

Twitter: @ketab_n

جميـع الجهات. وفجأة سرعان ما أحسّـت قدماي ببردٍ شديد وكأنهما غطستـا في الماء. وكانتا الآن راقدتين عزلاويـن في ظلام الغرفة البارد، وكان ينظر إليهما.

في الباحـة، وراء جـدران البيت، نبح كلب وصمـتْ، وسمعتُ كيف قرقع بساجـوره وهو يمضي إلى جحره. وكان ينظـر إلى قدميّ صامتاً؛ ولكنـي كنت أعرف أنه هنا، كنت أعرف ذلك عن طريق الرعب الذي لا يطـاق، الرعب الذي كان، كالموت، يقيِّـدني بعجز الحجارة والقبور عـن الحركـة. لو كان لي قـدرة على الصـراخ لأيقظـت المدينة، لكنت أيقظـت العالم كلّه. ولكنّ صوتي مات في داخلـي، ودون أن آتي بأيِّ حركة أحسسـت طائعاً بدبيب يدَين صغيرتين علـى جسمي، باردتين تحبوان نحو حنجرتي.

- لا أستطيع ! - قلت بأنين وأنا أختنق فأفقت لحظة واحدة، ورأيت ظلمة الليل الدامسة، الغامضة والحيّة، ثم غفوت مرّة أخرى، على ما يبدو...

- اطمئنّ ! - قال لي أخي وهو يجلس على السرير، وأصدر السرير صريراً، فقـد كان ثقيلاً جداً وهو ميت. - اطمئن، فأنت ترى هذا في المنام. لقد خُيِّل إليك أنهم يخنقونك، ولكنك نائم بعمق في غرفة مظلمة ليس فيها أحد، وأنا جالس في مكتبي وأكتب. ما من أحد منكم فهم عمّا أكتب. وكنتم تسخـرون مني كمجنون. إلا أنني سأخـبرك الآن بالحقيقة. فأنا أكتب عن الضحك الأحمر. هل تراه؟

كان ثمة شيء ضخم، أحمر، دَموي يقف فوقي ويضحك بدون أسنان.

- هذا هو الضحـك الأحمر. فعندما تفقد الأرض عقلها تبدأ بالضحك على هذا النحو. وأنـت تعرف أن الأرض فقدت عقلها. ليس عليها لا

Twitter: @ketab_n

أزهـار ولا أغان، لقد غدت مدوّرة، ملساء وحمـراء مثل رأس سلخوا جلده. هل تراها؟

- أجل، أراها. إنها تضحك.

- انظر ما الذي يجري لدماغها. إنه أحمر، وقد اختلط مثل طبيخٍ دموي.

- إنها تصرخ.

- إنها تتألّم. ليس لديها لا أزهار ولا أغانٍ. والآن دعني أستلقي عليك.

- إنني متضايق، أشعر بالرعب.

- نحن، الموتى، نستلقي على الأحياء. هل شعرت بالدفء؟

- أشعر بالدفء.

- هل أنت في حالة جيدة؟

- إنني أموت.

- استيقظْ واصرخْ. استيقظْ واصرخْ. أنا ذاهبٌ...

المقطع السادس عشر

... المعركة مستمرة لليوم الثامن. لقد بدأت يوم الجمعة الماضي، ومرّت أيـام السبت، والأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، وها قـد جاء يوم الجمعة مـرّة ثانية وانقضى، والمعركة مـا زالت مستمرّة. وكلا الجيشين، مئـات آلاف من البشر يقفون متقابلين، لا يتراجعون، لا يتوقّفون عن إطلاق مختلـف أنواع القذائف المدوِّية. وفي كل لحظة يتحوَّل أشخاص أحياء إلى جثث. وبسبب الدويّ ودوام ارتجاج الهواء

Twitter: @ketab_n

ارتعدت السماء نفسها وجمعت العاصفة والسحب السوداء فوق رؤوسهم، وما زالوا يحارب بعضهم بعضاً، لا يتراجعون، ويُقتَلون. إن الإنسان إذا ظلّ ثلاثة أيام لا ينام يصبح مريضاً، وتسوء ذاكرته. أمّا هم فلم يناموا منذ أسبوع، وهم جميعهم مجانين. إن ذلك لا يسبّب لهم الألم، وهم لا يتراجعون عن ذلك، وسيظلون يتحاربون إلى أن يُفنوا الجميع. يقولون إن بعض الوحدات العسكرية لم يكن لديها ما يكفي من القذائف فقاتل الناس فيها بالحجارة، وراح ينهش بعضهم بعضاً كالكلاب. وإذا ما عاد من يبقى من أولئك الناس إلى بيوتهم سيكون لهم أنياب كأنياب الذئاب. إلا أنهم لن يعودوا، لأنهم أصيبوا بالجنون وسيقتلون الجميع. لقد فقدوا عقولهم. لقد اختلط في رؤوسهم كل شيء، وهم لا يفهمون شيئاً. وإذا ما قمتَ بإرجاعهم فجأة وسريعاً فإنهم سيبدؤون بإطلاق النار على أبناء جِلدتهم ظنّاً منهم أنهم يقتلون العدوّ.

إشاعات غريبة... إشاعات غريبة يتناقلونها همساً وهم يصفرّون من الرعب والتكهّنات الهمجية. أخي، يا أخي، اسمعْ ما يحكونه عن الضحك الأحمر! إنهم يحكون عن ظهور فصائل أشباح، جحافل ظلال تشبه الأحياء في كلِّ شيء. وفي الليالي، عندما يجعل النومُ مَن جُنّوا ينسون أنفسهم لدقيقة، أو في ذروة معركة النهار، عندما يصبح أصفى نهار شبحاً، يظهرون بغتة ويطلقون النار من مدافع شبحية مالئين الهواء بضوضاء شبحية، والناسُ الأحياء، ولكنهم مجانين، الذين صعقتهم المباغتة يقاتلون حتى الموت عدوّاً شبحياً، ويفقدون عقولهم من الرعب، إنهم يشيبون بطرفة عين ويموتون. ثم تختفي الأشباح بغتة مثلما ظهرت، ويحلّ السكون، فيما تتساقط على الأرض جثث

Twitter: @ketab_n

جديدة مشوَّهة، ولكن مَن الذي قتلهم؟ هل تدري، يا أخي: مَن الذي قتلهم؟

فجـأة، عندما تخيِّم السكينة بعد معركتين ويكون الأعداء بعيدين، إذا بطلقـة تدوِّي وحيدة مذعورة في ليل دامس، فيهبّ الجميع، وكلّهم يطلقون النار في الظلام، يطلقون النار مدّة طويلة تدوم ساعات كاملة في ظـلام لا يتكلّم ولا يجيب. من يرون هناك؟ من هو الرهيب الذي يُطـلّ عليهم بطلعتـه الصامتة التي تتنفّس رعبـاً وجنوناً؟ أنت تعرف، يا أخـي، وأنا أعرف، أمّـا الناس فما زالوا لا يعرفـون، ولكنهم باتوا يشعرون ويسألون، والشحوب يكسو وجوههم: ما سبب وجود هذا العـدد الكبير من المجانين، فهل كان هنـاك من قبلُ مثلُ هذا العدد من المجانين ذات يوم؟

ـ مـن قبلُ لم يكـن هناك مثلُ هذا العـدد من المجانين يومـاً! ـ يقولون والشحوب يكسو وجوههم، ويتمنّون أن يصدِّقوا بأن الأمور ما تزال الآن كمـا كانـت من قبل، وأن هـذا العنف العالمي الـذي يمارَس ضد العقل لن يمسّ عقلهم الضئيل الضعيف.

ـ هـل الناس لم يكونوا يتحاربـون في الماضي ودائماً، و لم يكن عندهم لهذا مثيل من قبلُ أبداً؟ الصراع قانون الحياة. ـ يقولون بثقة وطمأنينة، فيمـا هم أنفسهم يكسوهم الشحوب، وهم أنفسهم يبحثون بعيونهم عـن طبيب، وهم أنفسهـم يصرخون مستعجلين: ـ المـاء، أسرعوا إلينا بكأس من الماء!

إن أولئك الناس موافقون على أن يصبحوا معتوهين مقابل شيء واحد فقط هو ألا يسمعوا كيف يترنّح عقلهم، كيف يصيب الإنهاك قدرتهم علـى المحاكمـة وهم يخوضون صراعـاً غير متكافئ ضـدّ اللامعنى.

Twitter: @ketab_n

خلال هذه الأيام التي لا يكفّون فيها هناك عن تحويل الناس إلى جثث، لم أستطع أن أجد الهدوء في أي مكان، وكنت أركض بين الناس، وسمعت كثيراً من هذه الأحاديث، ورأيت كثيراً من هذه الوجوه التي تتصنّع البسمة وتؤكّد أن الحربُ بعيدة ولا علاقة لها بهم. ولكنّ ما وجدته يفوق ذلك كثيراً هو الرعب العاري، الحقيقي، ودموع اليأس المرّة، وصرخات القنوط الهستيرية، عندما يكون العقل العظيم نفسه مستنفِراً قواه كلها كي يعتصر من الإنسان صرخة تضرّعه الأخير، ولعنته الأخيرة:

- فمتى تنتهي هذه الحرب المجنونة!

عند بعض معارفنا الذين لم أزرْهم منذ زمن طويل، ربّما منذ عدة سنوات، التقيت على غير انتظار منّي ضابطاً مجنوناً أُعيدَ من الحرب. لقد كان زميلاً لي في المدرسة، إلا أنني لم أعرفه، بل و لم تعرفْه حتى أمّه التي ولدته. فلو أنه أمضى سنة في القبر لكان عاد أكثر شبهاً بنفسه مما هو الآن. لقد شاب وأصبح أبيض الشعر تماماً، لم تتغيّر قسمات وجهه إلا قليلاً، ولكنه يلوذ بالصمت ويسمع شيئاً ما، وبسبب ذلك تنطبع على وجهه علامة رهيبة من علامات ذلك الغياب، ذلك الاغتراب عن كل شيء، ما يجعل الكلاّم معه مرعباً. إنه، بحسب ما قالوا لذويه، فقد عقله على النحو التالي: لقد كانوا في قوّات الاحتياط عندما بدأ اللواء المجاور لهم شنَّ هجوم بالحراب. كان الناس يركضون ويصرخون «هورا» بقوّة ربّما تفوق صوت الطلقات، حين توقّف إطلاق النار فجأة، وفجأة توقّفت صرخات «هورا»، وفجأة حلّت سكينة القبور، وهذا يعني أنهم وصلوا، وبدأت معركة الاشتباك بالحراب. فلم يتحمّل عقله هذه السكينة.

Twitter: @ketab_n

إنــه الآن مطمئنّ ما داموا يتكلّمون في حضوره، يضجّون ويصرخون، ويكــون في هــذا الوقت يتنصّــت وينتظر، ولكنْ ما إن تحـلَّ لحظةٌ من سكون حتّى يقبض بيديه على رأسه وينقضّ على الجدار، وقِطعِ الأثاث، إذ يصــاب بنوبة تشبه نوبة الصرع. إن له أقارب كثيرين، وهم يتناوبون علـى الحضور ويحيطونــه بالضجيج. ولكنْ تظلُّ الليــالي، تظلّ الليالي الطويلــة الساكنة، وفيهــا تولّى الأمرَ والدُه، وهــو أيضاً مكلل بالشيب وأيضاً فيه مَسٌّ من الجنون. لقد علّق في غرفته عدداً كبيراً من الساعات التــي تتكّ بصوت عال، وتكاد تدقّ بــلا انقطاع في مختلف الأوقات، وهــو الآن منهمــكٌ بصنــع عجلة تشبــه زقزاقة لا تتوقّــف. وكلّهم لا يفقــدون الأمــل في أن يشفى، لأنه مــا زال في السابعــة والعشرين من عمره، بل وهم الآن مبتهجــون. إنهم يُلبسونه ثياباً نظيفة جداً، وليس ثياباً عسكرية، يهتمّون بمظهره. حتى إنه بشعره الأبيض، ووجهه الذي ما يزال فتيّاً، فتيّاً، ساهمٌ، نبيهٌ، نبيلٌ في حركاته البطيئة التعِبة.

عندما حدّثوني بكل شيء عنه، تقدّمت منه وقبّلت يده الشاحبة، الذابلة التي لن تعود ترتفــع ثانية بقصد الضرب يوماً. ولم يثِر ذلك أي تعجُّب لدى أحد. وحدها أخته الصبيّة ابتسمت لي بعينيها، ثم أبدت بعد ذلك قــدْراً كبيراً من الاهتمام بي، وكأنني كنت خطيبها، وكانت تحبُّني أكثر من جميــع من في الدنيا. وكدت من شــدة اهتمامها بي أن أحكي لها عن غــرفي المظلمة والخاوية التي أكون فيها أســوأ من وحيد. يا للقلب اللئيــم الذي لا يفقد الأمل أبــداً... فقد تدبَّرتِ الأمــر بطريقة جعلتنا نبقى وحيدَين.

ـ كــم أنــت شاحــب، وعينــاك منتفختــان، ـ قالت بلطــف. ـ هل أنت مريض؟

Twitter: @ketab_n

ـ إنني أتحسّر على الجميع. وأنا مريض قليلاً.

ـ أنــا أعرف لمــاذا قبّلتَ يده. وهـم لم يفهموا ذلــك. لأنه مجنون، أليس كذلك؟

وسرحتْ مع أفكارها وصارت شبيهة بأخيها، ولكنها في ميعة الصبا.

ـ وهل تسمح لي، ـ توقّفتْ واحمرّت، ولكنها لم تخفض عينيها، ـ هل تسمح لي بأن أقبّل يدك؟

ركعت أمامها على ركبتَيَّ وقلت:

ـ باركيني.

أصابها شحوب خفيف، وتنحّت جانباً وهمست بشفتيها فقط :

ـ أنا لست مؤمنة.

ـ وأنا أيضاً.

ولثانيــةٍ لامست يداها رأسي، ثم انقضــت هذه الثانية. ـ هل تعرف، ـ قالت، ـ إنني مسافرة إلى هناك.

ـ سافري. ولكنك لن تتحمّلي.

ـ لا أعرف. ولكنهم محتاجون، مثلك، مثل أخي. إنهم ليسوا مذنبين. هل ستتذكّرني؟

ـ نعم. وأنتِ؟

ـ سأتذكّرك. وداعاً!

Twitter: @ketab_n

- وداعاً إلى الأبد!

ثم صرت مطمئنّــاً، وتنفّستُ الصُّعَداء، وكأنني عانيت أرهب ما في المــوت والجنون. وأمسِ كانت أوّل مرة دخلــتُ فيها إلى بيتي مطمئناً ودون خــوف، ففتحــت مكتب أخي وجلست طويــلاً وراء طاولته. وحــين استيقظت في الليل فجاة، وكأن أحــداً هزّني، سمعت صريف ريشة جافّة على ورقة، فإني لم أخَفْ وفكّرت وأنا أكاد أبتسم:

«اشتغل، يا أخي، اشتغل! إن ريشتك ليست جافّة، بل هي مغموسة في الــدم البشري الحي. ليكنْ أن أوراقك تبدو فارغة، فإنها بفراغها المنذر بالسوء تقول عن الحرب وعن العقل أكثر من كل ما كتبه أذكى الناس. اشتغل، يا أخي، اشتغل!»

...وقــد قرأت صباح هــذا اليــوم أن المعركة مستمــرّة، ومرة أخرى استــولى علــيّ قلــق رهيب وشعــور بشيء مــا يسقط في دماغــي. إنه آت، إنــه قريب، وهــو الآن على عتبة هذه الغــرف الخاوية والمضيئة. تذكّرينــي، فلتتذكّريني، يا فتاتي الحبيبة: إنني أفقد عقلي. ثلاثون ألف قتيل. ثلاثون ألف قتيل...

المقطع السابع عشر

... في المدينة مذبحة. الإشاعات قاتمة ورهيبة ...

Twitter: @ketab_n

المقطع الثامن عشر

بينما كنت صباح اليوم أُلقي نظرة في الجريدة على قائمة بأسماء القتلى لا نهاية لها صادفت كنية أعرفها: لقد قُتِل خطيب شقيقتي، الضابط الذي استُدعيَ إلى الخدمة العسكرية مع المرحوم أخي. وبعد ساعة سلّمني ساعي البريد رسالة مبعوثة إلى عنوان أخي، عرفت خطَّ القتيل على غلافها: إذاً فالميت كتب لميت. ولكنْ، على كل حال، فإن هذا خير ممّا عندما يكتب ميت لحيّ. فقد دلّوني على أمّ ظلّت شهراً كاملاً تستلم لرسائل من ابنها بعد أن قرأت في الجرائد عن موته الشنيع بقذيفة مزّقته. كان الابن حنوناً، وكانت كل رسالة منه تأتي مفعمةً بالكلمات الرقيقة، والتطمينات، وأمل الشباب الساذج بسعادة ما. فقد كان، وهو ميت، يكتب كل يوم عن الحياة بانتظام شيطاني، ولم تعُد أمُّه تؤمن بموته. وحين انقطعت رسائله يوماً، وثانياً، وثالثاً، وحلَّ صمت الموت اللانهائي أخذت بيديها الاثنتين مسدَّساً قديماً كان لابنها وأطلقت منه النار على صدرها. أعتقد أنها ظلّت على قيد الحياة، لكنني لا أعرف، لم أسمع.

دقّقت النظر طويلاً بالمغلّف وفكّرت: لقد مسكه بيديه، وسعى إلى شرائه في مكان ما، وأعطى حاجبه نقوداً ذهب بها إلى أحد الحوانيت، وهو من أغلق المغلّف، ثم ربّما كان هو نفسه مَن رماه في صندوق البريد. وبعد ذلك دبّت الحركة في عجَلة تلك الآلة التي تسمّى البريد، فمضى حاملاً هذه الرسالة عبر الغابات، والحقول والمدن وهي تنقَل من يدٍ إلى يد، ولكنها كانت لا تحيد عن السير باتجاه هدفها. لقد ارتدى

Twitter: @ketab_n

جزمتـه في ذلك الصباح الأخير، بينما كانت الرسالة في الطريق. وقد أُلقيَ به في حفـرة وألقوا فوقه الجثث والتراب، فيما كانت الرسالة تمرُّ عبر الغابات، والحقول والمدن شبحاً حيّاً في مغلَّف رماديّ مختوم. وها أنا الآن أمسكها بيديّ...

هـا هو مضمـون الرسالة. إنها مكتوبـة بقلم رصاص علـى مِزَقٍ من الورق وليست منتهية، فثمة ما حال دون إنهائها.

«... الآن فقـط فهمـت الفرحة العظيمـة التي تولِّدها الحـرب، إنها السعادة البدائية القديمة بقتل الناس: إذ إن الأذكياء، والدُّهاة، والماكرين الذين هـم أكثر إثارة للاهتمام بما لا يقاس من أشـدّ الوحوش افتراساً. ودائماً يكـون القيام بحرمان الناس من الحياة عمـلاً جيّداً أيضاً، مثله مثل اللعب بالكواكب والنجوم في ملعب التِّنس. كم هو مؤسف، أيّها الصديـق المسكين، ألا تكون معنا، وأن تكـون مرغماً على الغرق في ملل الحياة اليومية. فقد كنت ستجد في جوّ الموت ما طمحت إليه أبداً بقلبك القلق النبيل. عالَمٌ دمويّ. في هذا التشبيه المطروق بعضَ الشيء تكمـن الحقيقـة نفسها. إننـا نخوض في الدم حتّـى الركب، ويدوخ رأسنـا من هذا النبيذ الأحمـر، كما يسمّيه مازحـين زملائي الشباب الرائعـون. إن شرب دم العدوِّ ليس على الإطـلاق بالعادة الغبيّة، كما نفكِّر نحن. لقد كانوا يعرفون ما يفعلون...»

«الغربـان تنعق. أنـت تسمعها: الغربـان تنعق. من أيـن جاءت بهذه الكـثرة؟ إنها تحجب السماء بلونها الأسـود. وهي تقف بالقرب منّا، فاقـدة خوفها، وترافقنـا في كل مكان. ودائماً نحـن تحتها كما تحت مظلّـة سوداء من الدنتيـلا، كما تحت شجرة تتمايل سـوداءَ الأوراق. لقد اقترب أحـد تلك الغربان من وجهي تماماً وأراد أن ينقره ظنّاً منه،

Twitter: @ketab_n

علـى ما يبدو، أنني ميـت. إن الغربان تنعق، وهــذا يطمئنني قليلاً... أمسِ ذبحنا النائمين. فقد تسلّلنا إليهم خلسة، وأقدامنا لا تكاد تلمس الأرض، كمـن يمشي على بَيض، وزحفنا بدهاء وحـذرٍ كبيرين فلم نحرّك أيَّ جثة مـن الجثث، ولم نتسبب بذعر غراب من الغربان. لقد تسللنا كالظـلال، وكان الليل يحجبنا. وكنت أنـا شخصياً من أجهز علـى الحارس، فقد ألقيته أرضاً وخنقته بيدَيّ، لكي لا تندَّ عنه صرخة واحـدة. هل تفهم: ولا أدنى صرخـة، وإلا ضاع كل شيء. حتى إنه، على ما يبدو، لم يتسنَّ له أن يكتشف أنهم يقتلونه».

«كانوا كلّهم نائمـين بالقرب من نيران تترمَّد، نائمين مطمئنين كأنهم في بيوتهـم وأسرَّتهـم. أمضينـا في ذبحهم أكثر من ساعـة، ولم يتسنَّ إلا لقليلين منهـم أن يستيقظوا قبل أن يتلقّـوا الضربة. كانوا يزعقون، ويتوسّلـون أن نراف بهم طبعاً. وكانـوا يعضّون. فقد عضّني أحدهم عضّـة قطعت إصبعاً مـن أصابع يدي اليسرى التـي لم أكن حذراً وأنا أمسـكُ بها رأسه. هو قطـع إصبعي، وأنا كسرت رقبته تماماً. هل ترى أننـا تعادلنا؟ كيف لم يُفيقوا كلّهم! فقـد كان مسموعاً تكسير العظام وتقطيـع اللحم. وبعد ذلـك جرّدناهم من ثيابهم حتـى عرّيناهم، ثم تقاسمناهـا فيما بيننا. لا تغضب، يا صديقي، مـن هذه النكتة. فأنت بحذلقاتـك سوف تقول إن ذلك تفوح منه رائحـة السلب والنهب، ولكننـا نحـن أنفسنا شبه عراة، فقـد بليت ثيابنا تمامـاً. إنني منذ مدّة طويلـة ألبس كنزة نسائية، وأنا أكثر شبهاً بـ...، ممّا بضابط في جيشٍ منتصر».

«بالمناسبـة، أنت متـزوِّج، على ما يبدو، ولا يروق لـك كثيراً أن تقرأ أنباء من هــذا القبيل. ولكنْ... هل تفهم؟ إنهـا النساء. إلى الشيطان،

Twitter: @ketab_n

فأنـا شابٌّ ومتعطِّشٌ للحب! توقَّف، أأنت مـن كان له خطيبة؟ أنت من أراني صورة فتاة وقال لي إنها خطيبته، وكان مكتوباً على الصورة بعضٍ كلام حزين، حزين جداً، كئيب جـداً. وقد بكيتَ. كان ذلك منـذ زمن بعيد، وأنـا أذكره بشكلٍ ضبابـي، إذ ليس في الحرب وقتٌ للعواطـف. وأنت بكيت. على أيِّ شيء بكيت؟ ما الذي كان مكتوباً هناك على الصورة حزيناً إلى هذا الحدّ، وكئيباً إلى هذا الحد، كالزهرة؟ وكنتَ تبكي، ظللت تبكي وتبكي طول الليل، كنت تبكي... كم هو عيبٌ على الضابط أن يبكي!».

«الغربـان تنعـق. أنت تسمع، أيّهـا الصديق: الغربـان تنعق. ما الذي تريده؟..».

بعد ذلك كانت السطور المكتوبة بالقلم الرصاص مطموسة، و لم يكن ممكناً قراءة الحروف.

والغريـب هـو أن هذا القتيـل لم يبعـث فيّ أيَّ قدْر مـن الشفقة. لقد تصوَّرت بوضـوح كبير وجهه الذي كان كلّ شـيء فيه ناعماً ورقيقاً مثل وجه امرأة: حُمرة الخدَّين، صفاء العينين وطلاوتهما في الصباح، ذقنه الزغباء الرقيقة التي ربّما كان بوسع امرأة أن تتباهى بها. كان يحبّ الكتب، والأزهار والموسيقـى، يخاف كلَّ ما هو فظّ، ويكتب شعراً. وقد كان أخي، بصفتـه ناقداً، يؤكّد لي إنه شعرٌ جيد جداً. و لم أستطع أن أربـط بـين كل ما كنت أعرفه وأتذكّره وبين نعيـق الغربان هذا، أو المذبحة الدموية، أو الموت.

...الغربان تنعق...

وفجـأة للحظـةٍ واحـدةٍ مجنونة، سعيـدةٍ سعادةً لا توصـف اتّضح لي

Twitter: @ketab_n

بجلاء أن هذا كلّه كذبٌ وليس هناك أيُّ حرب. ليس هناك لا قتلى، ولا جثث، ولا رعبُ هذه الفكرة العاجزة، المترنّحة. إنني أنام على ظهري، وأرى حلماً رهيباً، كما في طفولتي: أرى هذه الغرف الصامتة الرهيبة التي جعلها الموت والرعب خاوية، وأنا نفسي مَن أمسك في يديَّ رسالة همجية ما. وأخي حيٌّ، وجميعهم جالسون يشربون الشاي، ورنين الأواني مسموعٌ.

... الغربان تنعق...

كلا، هذا حقيقة. أيتها الأرض التعيسة، هذه هي الحقيقة. الغربان تنعق. ليس هذا تلفيقاً من صنع كاتب تافه متبطِّل يبحث عن مؤثِّرات رخيصة، أو مجنونٍ فقد عقله. الغربان تنعق. أين أخي؟ لقد كان لطيفاً ونبيلاً ولا يتمنّى الأذى لأحد. أين هو؟ إنني أسألكم، أيها القتلة الملعونون! أمام العالم كلّه أسألكم، أيها القتَلَة الملعونون، أيها الغربان الجاثمون على جيفة، أيها الوحوش المعتوهون التعساء! إنكم وحوش! لماذا قتلتم أخي؟ لو كان لكم وجوه لسدّدتّ إليها صفعة، ولكنْ ليس لكم وجه، بل لكم خطمُ وحش كاسر. أنتم تتصنّعون الظهور بمظهر البشر، ولكنني أرى المخالب تحت قفّازاتكم، وأرى تحت القبّعة جمجمة الوحش المسطَّحة، ووراء كلامكم الذكيّ أسمع جنوناً خفيّاً تصدر عنه قعقعة سلاسلَ صدئة. وبكلِّ قوّة الحزن الأليم، والأسى، وأفكاري المهانة ألعنكم، أيها الوحوش المعتوهون التعساء!

Twitter: @ketab_n

المقطع الأخير

... منكم ننتظر تجديد الحياة!

صرخ الخطيب وهو واقف بصعوبة على عمود صغير يحفظ توازنه فوقه بيديه، ويهزّ راية تتكسّر في طيّاتها أحرف كبيرة: "تسقط الحرب!"

- أيّها الشباب، أنتم، يا مَن ما تزال الحياة أمامكم، ستصونون أنفسكم والأجيال القادمة من هذا الرعب، من هذا الجنون. لا طاقة على الاحتمال، إن الدم يملأ العيون. والسماء تتقوّض فوق الرؤوس، والأرض تنشقّ تحت الأقدام. أيها الناس الطيّبون...

ضجَّ الحشد بأزيز غامض، وبين دقيقة ودقيقة كان صوت المتحدِّث يضيع في هذا الصخب الحيّ والرهيب.

- ليكن أنني مجنون، ولكنّي أقول الحقيقة. إن لي أباً وأخاً يتعفّنان هناك مثل جيفة. فلتشعلوا النيران، ولْتحفروا كثيراً من الحفر، ولْتدمّروا السلاح وتدفنوه. ولتحطّموا الثُّكْنات وتخلعوا عن الناس ثياب الجنون البرّاقة، ولتمزّقوها. ليس هناك طاقة على التحمّل... فالناس يموتون...

ضربه وأسقطه عن العمود رجلٌ طويل؛ وارتفعت الراية مرة أخرى ثم سقطت. ولم يتسنَّ لي أن أبصر وجه من ضَرب، لأنه ما لبث أن تحوَّل كلّ شيء إلى كابوس في الحال. لقد تحرّك الجميع وجأروا، وتطايرت في الهواء أحجار وأخشاب، وارتفعت فوق الرؤوس قبضات كانت

Twitter: @ketab_n

تنهال بالضرب على شخص. ومثل موجةٍ حقيقية هادرة رفعني الحشد وابتعـد بي مسافة بضع خطوات، وبقوّةٍ ضربنـي بالسور، ثم حملني إلى الوراء وانتحى بي جانباً، حتى جعلني أخيراً ألتصق بكومة أخشاب عالية تهدد بالانهيار على الرؤوس. كان ثمة شيء كثيراً ما يُسمَع صوتُ تقصّفه وطقطقته يابساً في الأخشاب. ما إن تمرَّ لحظة سكون حتى يعود مـن جديدٍ هديرٌ هائل، من أعمـاق الحناجر، رهيب في عفويَّته. ومرة أخرى عادَ صوت التقصف اليابس والمتكرر، وسقط شخص بالقرب منّـي، وتدفّق دمه من ثقب أحمر مكان العين. ودارت في الهواء عصا ثقيلـة وضربتنـي نهايتها على وجهـي، فسقطت وزحفـت على غير هدى بين الأقدام الراكضة حتى وصلت بصعوبة إلى الفضاء الرحيب. ثـم زحفت فوق أسـوار وتكسّرت أظفـاري وأنا أتسلّـق أكداساً من الحطب، وانهـار أحدها تحتي فسقطتُ مع شلال من أخشاب راحت تتصـادم. وبجهد جهيد تخلّصت من مربّع مغلق. وكان يلاحقني من الخلـف طول الوقت عويـل، وجلَبة، وهدير وتقصّـف. وارتفع رنين جرس في مكان ما، وانهار شيء مثل سقوط عمارة مؤلَّفة من خمسة طوابـق. وخُيِّل أن الغسق توقّف وحال دون حلول الليل، وأن الهدير والطلقات في تلك الجهة اصطبغت بلون أحمر وأزاحت الظلام. ولمّا قفزتُ عن آخر سور وجـدت نفسي في زقاق ضيِّق أعوج، شبيه بممرّ بين جدارين أصمَّين، وانطلقت فركضت مدة طويلة، ثم تبيَّن أن الزقاق يسدُّه سور تلوح خلفه أكداس سوداء أخرى من الحطب والأخشاب. ومرة أخرى رحت أتسلّق هذه الأكداس المتحركة الواهية، وأسقطُ في آبار يخيِّـم عليها السكون وتفوح منها رائحة خشب رطب، وأخرج منهـا بصعوبة مـن غير أن أجرؤ على الالتفـات إلى الخلف، فقد كنت أعـرف سلفاً ما يدور هناك، مستدلاً عليه بالآثار الغامضة الضاربة إلى

Twitter: @ketab_n

الحمرة، الباقية على الحطب الأسـود التي تجعله شبيهاً بعمالقة قتلى. وتوقف الدم عن التدفق من وجهي المحطّم الذي تخدّر وصارَ غريباً عنّي كأنه قناع من الجِبس، وخمد الألم تماماً تقريباً. يبدو أنني أصبت بـأذى في إحدى الحفر التي سقطت فيهـا وفقدت وعيي، ولكنني لا أعرف إن كان ذلك قد حدث حقاً أم أنه خُيِّل إليّ، ذلك أنني لا أذكر نفسي إلا راكضاً فقط.

بعد ذلك تجوَّلت طويلاً في شوارعَ لا أعرفها، إذ لم يكن فيها مصابيح، بين بيـوت سوداء كأنها ميتة، و لم أستطع بـأي حال من الأحوال أن أخـرج من متاهتها الخرساء. كان لا بد لي من أن أتوقف وأتبصَّر فيما حولي لكي أحـدِّد اتجاهي، ولكنَّ القيام بذلـك كان مستحيلاً، فقد كان يتعقّبنـي تماماً شيء من قعقعة وجئير ما يـزال بعيداً ولكنه يزداد اقتراباً منّي. وأحياناً كان يصفعني على وجهي، عند منعطف فجائي، ذلـك الشيء الأحمر الـذي تلفّه سحُبٌ من الدخَـان دوّارة، وردية اللـون، وعندها كنـت ألتفت إلى الوراء وأنطلـق راكضاً إلى أن يعود ثانيـة ويصبح وراء ظهري. وقد شاهدت عند إحدى الزوايا هالة من نـور ما إن اقتربت منها حتّى انطفـأت، وكان ذلك متجراً أُغلِق على عجَل. وعـبر شقٍّ واسع شاهدت كذلك جزءاً من طاولة بيع وبرميلاً خشبيّـاً، ثـم لم يلبث أن اكتسى ذلك كلّـه سريعاً بظلمة كانت مختبئة. وغير بعيد عن ذلـك المتجر التقيت شخصاً كان يركض نحوي حتى كدنـا أن نصطدم في الظلام، فتوقّفنا تفصل بيننا خطوتان. لا أعرف من كان ذلك الشخص، فأنا لم أرَ إلا خيالاً قائماً متوجِّساً.

- من أين أنت؟

- من هناك.

Twitter: @ketab_n

- وإلى أين تركض؟

- إلى البيت.

- آ - ا! إلى البيت؟

وصمتَ قليلاً ثم انقضّ عليَّ بغتة، وشرع يحاول أن يُلقي بي على الأرض، وراحت أصابعه تتلمّس حنجرتي متعطّشة، ولكنّها تعثّرت بثيابي. وقد عضضت يده فتخلّصت منه وهربت. وظلّ وقتاً طويلاً يركض خلفي في الشوارع الخاوية، وهو يدقُّ الأرض دقّات عالية بنعلَيه. ثم تخلّف عنّي. كأنه كان يتألّم من عضّتي.

لا أعرف كيف وصلت إلى شارعي. وفيه أيضاً لم تكن توجد مصابيح. وكانت البيوت خالية من أيّ ضوء كأنها ميتة، ولكنتُ مررت بها من غير أن أعرفها لو لم أرفع ناظريَّ مصادفة وأرى بيتي. إلا أني تردّدت طويلاً، لأن البيت نفسه الذي عشت فيه كلَّ هذه السنين بدا لي غريباً عليَّ في هذا الشارع الغريب، الميت الذي أيقظ صدى حزيناً وغير عاديٍّ لتنفّسي العالي. ثم استولى عليَّ خوفٌ فجائي مسعور حين خطَر لي أنني أضعت المفتاح وقت سقوطي، وبجهدٍ جهيد عثرت عليه، علماً أنه كان في مكانه المعهود، في جيبي الخارجي. ولمّا فتحت القفل ردّد الصدى صوتَ الفتح بقوّة وطريقة غير عادية، كما لو أن الأبواب انفتحت حالاً في الشارع كلّه وفي جميع البيوت الميتة.

اختبأت أوّل الأمر في قبو، ولكنْ سرعان ما شعرت بالرعب والضجر، وطفق شيء يومض أمام عينيَّ، فتسلّلت بهدوء إلى الغرف. وفي الظلام تلمّست الأبواب وقفلتها كلّها. وخطر لي، بعد تفكير قصير،

Twitter: @ketab_n

أن أُدعّمها بقطع الأثاث. ولكنّ صوت الخشب وأنا أُحرّكه كان عالياً جداً في الغرف الخاوية فأخافني.

«على هذا النحو سأنتظر الموت. لا فرق عندي»، - قرّرت.

كان ما يزال هناك في المغسلة ماء دافئ جداً، فغسلت وجهي في الظلام، ونشّفته بملاءة السرير. لقد اشتدّت زرقة المكان الذي كان مصاباً في وجهي وكان يلتهب، ورغبت بأن أُلقي على نفسي نظرة في المرآة. فأشعلت عود ثُقاب، وفي ضوئه المضطرب الضعيف الاشتعال أطلّ عليّ من الظلمة شيء مشوّهٌ ورهيب إلى درجة جعلتني أُسرع بإلقاء عود الثقاب على الأرض. يبدو أن أنفي كان مكسوراً.

«الآن لا فرق، - جال في خاطري. - لا أحد بحاجة إلى هذا».

شعرت بمرح. وبحركات وعلامات امتعاض غريبة في وجهي، وكأنني في المسرح أُمثّل دور لصّ، توجهت إلى البوفيه وبدأت أبحث عن بقايا طعام. كنت أدرك بوضوح أنه ما من داعٍ لكل هذه الحركات، ولكنَّ ذلك كان يعجبني. وأكلت كلَّ شيء وأنا أقوم بالحركات نفسها، وأتصنَّع أنني شديد النهم.

غير أني كنت خائفاً من السكينة والظلام. ففتحت النافذة التي تطلّ على الباحة ورحت أُنصت. فخُيِّل لي في البداية، ربّما بسبب انقطاع حركة العربات والخيل، أن الوضع هادئ تماماً. ولم يكن هناك إطلاق نار. ولكنني سرعان ما تبيَّنت بوضوح جلَبة أصوات بعيدة، وصرخاتٍ وتصدُّع شيء يسقط، وقهقهة. وكانت الأصوات تزداد قوّة على نحوٍ ملحوظ. نظرت إلى السماء، كانت قانية اللون وتعدو مسرعة. وكانت الأشياء مصبوغة بذلك اللون نفسه: الحظيرة

Twitter: @ketab_n

المقابلة، والطريق في الباحة، وجحر الكلب. فناديت الكلب عبر النافذة بهدوء:

- بينتون!

ولكنْ ما من شيء تحرّك في الجحر، إلا أني تبيّنت بمحاذاته في الضوء القاني قطعة لمّاعة من ساجوره الحديدي. وكان الصراخ البعيد وقعقعة الشيء الذي يسقط يزدادان ارتفاعاً، فأغلقت النافذة.

«إنهم قادمون إلى هنا» - جال في خاطري، وبدأت بالبحث عن مكان أختبئ فيه. ففتحت المدافئ الجدارية، وتلمّست الموقد، وشققت أبواب الخزَانات، ولكنّ هذه الأشياء كلّها لم تكن صالحة. ومررت بالغرف كلّها، ما عدا المكتب الذي لم أكن راغباً بالنظر إليه. لقد كنت أعرف أنه جالس في الكرسيّ قُبالة الطاولة المكتظّة بالكتب، وسيكون ذلك الكرسيّ كريهاً عليَّ الآن.

وشيئاً فشيئاً بدأ يتهيّأ لي أنني لا أمشي وحيداً، بل يتمشّى حولي في الظلام أشخاص صامتون. لقد كانوا على وشْك أن يلامسوني، حتى إن أنفاس أحدهم جمّدت قَذالي في لحظة من اللحظات.

- مَن هذا؟ - سألت همساً، ولكنْ لم يُجِب أحد.

وحين عدتُ إلى المشي ثانية، ساروا خلفي صامتين ومرعبين. كنت أعرف أنني أتوهّم ذلك لأنني مريض، ويبدو أن حرارتي بدأت ترتفع. ولكنني لم أكن أستطيع التغلب على الخوف الذي جعل جسمي كلّه يبدأ بالارتعاش، كمصابٍ بالبرداء. تلمّست رأسي فوجدته ساخناً كالنار.

Twitter: @ketab_n

«خيرٌ لي أن أذهب إلى هناك، ـ فكّرت. ـ فهو أخي على أيّة حالٍ».

كان جالساً في كرسيّه أمـام الطاولة المكتظّة بالكتب، و لم يختفِ كما في تلـك المـرة، بل ظلّ في مكانـه. وعبر الستائر المسدلـة كان يتسلل إلى الغرفـة ضوء مشـوب بالحمرة. ولكنه لم يكن يضـيء شيئاً، وكان مرئيـاً بالكاد. جلسـت على الديوان مبتعداً عنه قليـلاً وبدأت أنتظر. كان الهـدوء مخيِّمـاً في الغرفة، ومن هناك يترامـى صوت جلَبة مديد، وتَقصّفُ شيءٍ يسقط، وصرخاتٌ متفرّقة. وكانت الصرخات تقترب. وبـات الضوء القـاني يزداد قـوة، وأصبحـت أراه في الكرسي، أرى صفحة خدِّه من الجانب سوداء بلون الحديد، محاطة بخطّ ضيّقٍ أحمر.

ـ أخي! ـ قلت له.

ولكنـه كان صامتاً، لا حراك فيه وأسـود كتمثال. وصرَّ خشب أرض الغرفة المجاورة التي سرعان ما حلَّ فيها فجأة هدوء غير عادي لا ترى مثيـلاً له إلا في الأماكـن التي يكثر فيها الموتـى. وتجمّدت الأصوات كلّهـا، واتّشح اللون القاني نفسُه بلونٍ مراوغ، لون الموت والسكينة، وبات جامـداً وباهتاً قليلاً. وظننت أن هذا الهـدوء يصدر عن أخي، فأخبرته بذلك.

ـ كلا، هذا ليس صادراً عنّي، ـ أجاب. ـ انظر من النافذة.

سحبت الستارة فترنَّحت.

ـ هكذا إذاً! ـ قلت.

ـ نادِ زوجتي، إنها لم ترَ هذا بعد. ـ أمرني أخي.

Twitter: @ketab_n

كانـت جالسة في غرفـة الطعام تخيط شيئاً مـا. وعندما رأت وجهي نهضـت طائعة، فغرزت الإبرة في القماشـ ومشت ورائي. وأزحتُ الستائر عن النوافذ كلّها فتدفّق الضوء القاني عبر الانفراجات الواسعة، ولكنـه لسبب مـا لم يجعل الغرفة أكـثر نوراً، فقد ظلـت معتمة كما كانـت، ووحدها النوافـذ اشتعلـت جامدة على شـكل مستطيلات حمراء كبيرة.

دنونـا من النافـذة. كانت السمـاء تبـدأ بالامتداد من قاعـدة النافذة بالضبط حتى إفريز الستائر صفحة حمراء كالنار، ليس فيها غيوم، ولا نجـوم، ولا شمس، مترامية وراء الأفـق. وتحتها، في الأسفل، كان يمتدّ حقـلٌ مثلها مستوٍ، قاتم الحمـرة، وكان مغطّى بالجثث. كانت الجثث عاريـة كلّها، وأرجلها موجَّهة صوبنـا، فلم نرَ منها إلا بطون الأقدام، ومثلَّثـات الذقون. وكان السكون مخيِّماً، إذ يبدو أن الجميع ماتوا، و لم يكن في الحقل اللامتناهي منسيُّون.

ـ إن عددهم في ازدياد، ـ قال أخي.

هـو أيضـاً كان واقفاً بالقـرب من النافـذة، وكان الجميع هنـا: أمّي، وأختـي وكلّ من كان يعيش في هـذا البيت. لم تكن وجوههم مرئية، و لم أتعرّف إليهم إلا من أصواتهم.

ـ هذا ما يبدو، ـ قالت أختي.

حقّاً، لقد بدا وكأن الجثث ازدادت عدداً. وبحثنا باهتمام عن السبب، ورأينا أن المكان الذي كان من قبلُ خالياً بالقرب من كل ميتٍ ظهرت فيه جثّةٌ فجأةً: يبدو أن هذه الجثث كانت تقذف بها الأرض. وسرعان ما امتلأت الفراغات الخالية كلّها، وما لبثت الأرض أن صارت مضاءة

Twitter: @ketab_n

بالأجساد الزهرية الشاحبة اللون، المستلقية صفوفاً تدير نحونا بطون أقدامها العارية. ثم أضاء الغرفةَ نورٌ زهريّ شاحبٌ ميت.

أجابت أمّي:

- واحد منهم الآن هنا.

تبادلنا النظرات. كانت جثّة زهرية شاحبةٌ مستلقيةٌ وراءنا على الأرض، تلقي برأسها إلى الخلف. وفي الحال ظهرت بمحاذاتها جثّة أخرى، وثالثة. وأخذت الأرض تقذف بالجثث واحدة تلو أخرى، وسرعان ما امتلأت الغرف كلّها بجثث الموتى الزهرية الشاحبة.

- إنها موجودة في غرفة الأطفال أيضاً، - قالت المربية. - أنا رأيتها.

- يجب أن نرحل، - قالت أختي.

- ولكنْ، ليس هناك ممرّ، - ردَّ أخي. - انظروا.

حقّاً، كانت أقدامهم العارية تلامسنا، وكانوا مستلقين متلاصقين. وإذا بهم تدبّ فيهم حركة خفيفة ورعشة، ثم نهضوا جميعاً بصفوفهم المستلقية ذاتها: لقد كان الموتى الجدد يخرجون من تحت الأرض ويصعدون إلى سطحها.

- إنهم سيخنقون الجميع! - قلت. - فلننجُ بأنفسنا عبر النافذة. انظر، ما الذي هناك!

... وراء النافذة في الضوء المتجمِّد القاني. كان الضحك الأحمر واقفاً...

٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٠٤

Twitter: @ketab_n

فكرة

يوم الحادي عشر من كانون الأول عام ١٩٠٠ ارتكب الدكتور في الطب أنطون إغناتيفتش كيرجِنْتسِف جريمة قتل. وقد كانت جملة المعطيات التي تمّ ارتكاب هذه الجريمة في ظلها، مثلُها على السواء مثلُ بعض الظروف التي سبقتها، تعطي حجّة للاشتباه بوجود خلل في القوى العقلية عند كيرجِنْتسِف.

بعد نقله إلى المستشفى الإليزابيتي للأمراض النفسية بقصد فحصه، تعرّض كيرجِنْتسِف لمراقبة صارمة ونبيهة من قبل عدد من الأطبّاء النفسانيين الضليعين الذين كان بينهم البروفيسور درجيمبيتسكي الذي توفّيَ قبل مدة قصيرة. وهذه هي التفسيرات الخطية التي قدّمها الدكتورَ كيرجِنْتسِف نفسُه بخصوص ما حدث له، وذلك بعد مرور شهر من بداية الفحص، بالإضافة إلى المواد الأخرى التي حصل عليها التحقيق، وكانت الأساس الذي بُنيَ عليه تقرير الطب الشرعي.

الورقة الأولى

كنت حتى الآن، أيها السادة الخبراء في الطب الشرعي، أُخفي الحقيقة، أمّا الآن فإن الظروف ترغمني على الكشف عنها. إنكم سوف تفهمون بعد أن تعرفوها أن المسألة ليست على الإطلاق بهذه البساطة التي قد تبدو للساذجين: إمّا ثوب المجانين، وإمّا الأصفاد. فهناك شيء

Twitter: @ketab_n

ثالث، لا هو الأصفاد ولا هو ثوب المجانين، وإنّما هو شيء ربّما يكون أشدّ رعباً من هذا وذاك مجتمعَين.

إن الرجل الذي قتلتُه، أليكسي قسطنطينوفِتش سافيلوف، كان زميلي في المدرسة الثانوية وفي الجامعة، وإن كنّا قد اقترقنا في موضوع الاختصاص. فأنا، كما تعرفون، طبيب، أمّا هو فقد تخرّج في كلّية الحقوق. لا يجوز القول إنني لم أكن أحبّ المرحوم. لقد كان قريباً من قلبي دائماً، و لم يكن لديّ يوماً أصدقاء أقرب إليّ منه. إلا أنه، على الرغم من كل هذه الصفات الطيبة، لم يكن في عِداد الناس الذين يمكن أن يشجِّعوني على احترامهم. ذلك أن ما في طبيعته من ليونة وامتثالية مدهشة، وتقلُّبه الغريب في مجال الفكر والشعور، وتطرّفه الحادّ وضعف الحجة في أحكامه المتغيرة دائماً هو ما أجبرني على النظر إليه كما أنظر إلى طفل أو امرأة. على أن الناس القريبين منه الذين كانوا قد عانوا من تصرفاته عدداً غير قليل من المرّات وكانوا، مع ذلك، وَفقاً لمنطق الطبيعة البشرية، يحبّونه حبّاً جمّاً، حاولوا إيجاد تسويغ لعيوبه ولشعورهم تجاهه وأسموه "فنّاناً". وحقّاً، كأن هذه الكلمة السخيفة كانت تبرِّئه تماماً، وتجعل ما هو سيّء في نظر أي إنسان سويّ شيئاً حيادياً بل وجيداً. لقد كان لهذه الكلمة المبتذلة قوة جعلتني أنا أيضاً أنساق في وقت من الأوقات مع المزاج العام وأغفر راضياً لأليكسي عيوبه الضئيلة. وهي ضئيلة لأنه كان عاجزاً عن أن تكون عيوبه ضخمةً عجزَه عن كل ما هو كبير. وتشهد على ذلك بقدْرٍ كاف أيضاً مؤلفاته الأدبية التي كل ما فيها ضئيل وتافه، أيّاً كان ما يقوله النقد الحسير النظر، المتهافت على اكتشاف المواهب الجديدة. كانت مؤلفاته جميلة وتافهة، وجميلاً وتافهاً كان هو نفسه.

Twitter: @ketab_n

حين مات أليكسي كان عمره إحدى وثلاثين سنة، فهو يَصغُرني بسنة ونيِّف.

كان أليكسي متزوِّجاً. إذا كنتم قد رأيتم زوجته الآن، بعد موته، وهي في ثياب الحِداد، فإنكم لن تستطيعوا أن تكوِّنوا تصوراً عن مدى الجمال الذي كان لها يوماً. فقد تدهورت بقوّة، بقوّة كبيرة. فبات خدّاها رماديّين، وجلد وجهها شديد التهدّل، طاعنة في السنّ، مثل قفّازٍ عتيق. أمّا التجاعيد، فهي الآن تجاعيد، ولكنْ ما إن ينقضي عام آخر حتى تغدو أخاديدَ عميقة وقنوات: فقد كانت تحبّه أيّما حب! و لم تعُد عيناها الآن تشعّان، ولا تضحكان، بينما كانتا من قبلُ تضحكان دائماً، حتى عندما يكون عليهما أن تبكيا. لقد رأيتها دقيقة واحدة لا غير، عندما اصطدمت بها مصادَفةً عند المحقق، فصعقني هذا التبدُّلُ فيها. حتى إنها لم تستطِع النظر إليّ بغضب.

ثلاثة فقط، أليكسي وأنا وتَيانا، كنا نعرف أنني قبل خمس سنوات، قبل زواجها من أليكسي بسنتين، طلبت يد تَيانا نيكولايفنا فقابلت طلبي بالرفض. بالطبع ما هو إلا افتراض أننا ثلاثة فقط، ولكن ربّما هناك لدى تتيانا عشرة من الأصدقاء والصديقات الذين أُحيطوا علماً وبالتفصيل، كيف بلغ الحلم بالدكتور كيرجنتسف مرّة أنْ تَقدَّم لصلب الزواج من تتيانا نيكولايفنا فلاقى منها رفضاً مهيناً. لا أعرف إن كانت تذكر أنها في تلك المرة ضحكتْ. لعلّها لا تذكر أنها كثيراً ما كانت تجد ما يضحكها. فلْتذكِّروها إذاً: لقد ضحكت يوم الخامس من سبتمبر. فإذا ما راحت تُنكر - وهي سوف تنكر - فذكِّروها كيف كان ذلك. أنا، هذا الإنسان القويّ الذي لم أبكِ يوماً، والذي لم أخشَ شيئاً في يوم من الأيام، وقفت أمامها أرتجف. كنت أرتجف وأرى

Twitter: @ketab_n

كيف تعضّ شفتها، وكنت قد مددت يدي لأعانقها عندما رفعت عينيها وكان الضحك بادياً فيهما. ظلّت يدي في الهواء، فضحكتْ وطال بها الضحك. ضحكت مقدار ما طاب لها. ولكنها مع ذلك عادت واعتذرت.

ـ سامحني، من فضلك، ـ قالت وعيناها تضحكان.

فابتسمت أنا أيضاً، ولئن كان بوسعي أن أغفر لها ضحكها، فإنني لن أغفر لها هذه الابتسامة. لَقد كان ذلك يوم الخامس من أيلول، في الساعة السادسة مساء بتوقيت بطرسبورغ. بتوقيت بطرسبورغ، أضيف، لأننا كنا موجودين حينها على رصيف في محطة القطارات، وأنا أرى الآن بوضوح ساعة الجدار البيضاء الكبيرة ووضْعَ عقربيها الأسودين: واحد إلى فوق والثاني إلى تحت. وقد قُتل أليكسي قسطنطينوفتش أيضاً في الساعة السادسة تماماً. إنه لتطابقٌ غريب، ولكنه يستطيع أن يكشف للإنسان اللبيب عن أشياء كثيرة.

إن أحد الدواعي التي أدّت إلى حبسي هنا هو عدم توفُّر دافع الجريمة. وها أنتم ترون الآن أنه موجود. بالطبع، لم يكن ذلك غيرة. فهل كان انتقاماً؟ نعم، هو على الأرجح انتقام، إذا كان لا بد من هذه الكلمة القديمة لتعريف هذا الشعور الجديد والمجهول. ذلك أن تتيانا نيكولايفنا أجبرتني مرة أخرى على ارتكاب خطأ، وهذا ما كان يغيظني دائماً. فلمّا كنت أعرف أليكسي جيداً كنت واثقاً من أن تتيانا نيكولايفنا ستكون في حياتها الزوجية معه في غاية التعاسة، وسوف تتحسَّر عليَّ، ولهذا السبب كنت شديد الإصرار على أن يتزوَّجها أليكسي الذي كان ما يزال في ذلك الوقت مجرّد عاشق. فقد قال لي قبل شهر واحد من موته المأساوي:

Twitter: @ketab_n

- إنني مدينٌ بسعادتي لك أنت. أليس صحيحاً، يا تتيانا؟

فنظرت هي إليَّ وقالت: "صحيح"، وضحكتْ عيناها. وضحكتُ أنا أيضاً. ثم انخرطنا كلنا بالضحك عندما عانق تتيانا نيكولايفنا، فهما لم يكونا يخجلان في حضوري، وأضاف:

- أجل، أيها الأخ، لقد خاب ظنك!

هذه المزحة غير اللبقة وغير المناسبة اختصرت حياته مدة أسبوع كامل، إذ إنني كنت قد قررت في البداية أن أقتله يوم الثامن عشر من أيلول.

أجل، لقد كان زواجهما سعيداً، وكان سعيداً بالنسبة لها تحديداً. إنه لم يكن يحب تتيانا نيكولايفنا بقوة. فهو أصلاً لم يكن قادراً على الحب العميق. كان عمله الحبيب إلى قلبه هو الأدب الذي يَمضي باهتماماته إلى ما وراء حدود غرفة النوم. أمّا هي فكانت لا تحب غيره ولا تعيش إلا به. ثم إنه كان مريضاً: آلام متكررة في الرأس، وأرقٌ، وهذا بالطبع كان يعذِّبه. ولكنها كانت سعيدة به حتى عندما تحيطه برعايتها، وهو مريض، وتقوم على تلبية نزواته. ذلك أن المرأة إذا ما أحبّت أصيبت بالجنون.

وهكذا كنت يوماً بعد يوم أرى وجهها الضاحك، ووجهها السعيد، الفتيَّ، الجميل، الخالي من الهمّ. وكنت أفكّر: هذا ما صنعتْه يداي. لقد أردت أن أمنحها زوجاً سافلاً وأحرمها منّي. وبدلاً من ذلك منحتها الزوج الذي تحبّه، وبقيتُ أنا عندها. إنكم تفهمون هذه الغرابة: فهي أذكى من زوجها وتحب الحديث معي، وبعد حديثنا تذهب إلى النوم معه، وكانت سعيدة.

Twitter: @ketab_n

لا أذكر متى خطرت لي أوّلَ مرّة فكرة قتل أليكسي. لقد ساورتني على نحو ما بطريقة غير ملحوظة، غير أنها باتت منذ اللحظة الأولى قديمة وكأنها وُلدت معي. أعرف أنني كنت أريد أن أجعل تتيانا نيكولايفنا تعيسة، وأنني أوّل الأمر فكرت بكثير من الخطط لأخرى الأقلّ أذى لأليكسي، فقد كنت دائماً عدوَّ القسوة التي لا لزوم لها. وجال في خاطري أن أستغل تأثيري على أليكسي فأجعله يحب امرأة أخرى أو أجعل منه سكّيراً (كان عنده ميل إلى ذلك)، غير أن هذه الطرق كلّها لم تكن صالحة. لكن المشكلة هي أن تتيانا نيكولايفنا كانت سوف تتحايل كي تظل سعيدة حتى وإن تنازلت عنه لامرأة أخرى وهي تسمع ثرثرة سكْره أو تتلقّى ملاطفات السكارى. كانت بحاجة إلى أن يظل هذا الرجل حيّاً لتظل تخدمه بهذه الطريقة أو تلك. فطباع العبيد هذه موجودة. وأصحابها كالعبيد، لا يستطيعون أن يفهموا ويقدِّروا قوّة الآخر، ولا قوّة سيِّدهم. لقد كان في عالمنا نساء ذكيّات، جيِّدات وموهوبات، غير أن العالم لم يرَ بعدُ امرأة عادلة، ولن يراها.

أعترف بإخلاص أنه ليس رغبة منّي بأن أنال الغفران اللازم، وإنما رغبة منّي بأن أبيِّن لكم الطريق الصحيح والسويَّ الذي تشكّل فيه قراري، أنه كان عليَّ أن أُمضيَ مدة طويلة في صراعي مع الرأفة بالإنسان الذي حكمتُ عليه بالموت. كنت أُشفق عليه من الرعب الذي يسبق الموت خلال لحظات العذاب التي تتحطّم فيه جمجمته. كنت أشفق - لا أدري إن كنتم ستفهمون هذا أم لا - على الجمجمة نفسها. ذلك أن الجسم الحيّ الذي يعمل بانتظام إنما ينطوي على جمال خاص، أمّا الموت فهو، شأنه شأن المرض والشيخوخة، قبْحٌ قبل كل شيء. أذكر كيف حدث منذ مدة طويلة، عندما كنت قد أنهيت للتو دراستي في الجامعة، أن

Twitter: @ketab_n

وقـع بين يديّ كلبٌ فتيّ جميل، أعضـاؤه قوية ورشيقة، وكان عليَّ أن أبذل جهداً كبيراً كي أُجبر نفسي على سلخ جلده وَفقاً لما كانت تقتضيه التجربة. ثم ظلّ تذكره كريهاً عليَّ مدة طويلة. لا أدري، ربّما لو لم يكن أليكسي مريضاً وهزيلاً إلى هذا الحد لَما قتلته. ولكنني ما أزال حتى الآن أشعـر بالشفقة على رأسه الجميل. أرجوكم أن تنقلوا هذا أيضاً إلى تتيانا نيكولايفنـا. جميلاً كان رأسه، جميلاً. لم يكن قبيحاً فيه إلا عيناه، فقد كانتا كابيتين، لا نار فيهما ولا طاقة.

كما أنني ما كنت قتلت أليكسي لو أن نقده كان صحيحاً، ولو أنه كان موهبـة أدبية كبيرة حقاً. الحياة فيها كثير مما هو غامض، وهي في حاجة ماسّة إلى مواهب تنير طريقهـا، تتطلّب الحفاظ على كل موهبة حفاظنا علـى قطعة ألماسٍ نفيسـة، وعلى الشيء الذي يسـوِّغ وجود آلاف من الأنذال والسُّفْلة بين البشر. إلا أن أليكسي لم يكن موهبة.

ليس هذا المقام مناسباً لمقالـة نقدية، ولكنْ تمعّنوا في قراءة أكثر مؤلفات المرحوم التي أثارت ضجة، تجدوا أنها لم تكن مؤلفات ضرورية للحياة. لقـد كانت ضرورية ومشوِّقة لمئات من الناس المتخمين الذين يحتاجون إلى التسلية، وليس إلى الحيـاة. فبينما يكون على الكاتب أن يبدع بقوة فكـره وموهبتـه حياة جديـدة، كان سافيلوف يكتفـي بوصف الحياة القديمـة، حتى من غـير أن يحاول اكتشـاف مغزاها الدفـين. إن قصته الوحيـدة التي تعجبني والتـي يقترب فيها كثيراً من مجـال الغامض هي قصـة "السر"، ولكنها استثناء. إلا أن أسوأ مـا في الأمر هو أن أليكسي بدأ ينضـب، على ما يبدو، إذ جعلته الحياة السعيـدة يفقدَ آخر الأسنان التـي يجب أن تتشبّـث بالحياة وتقضمها. فهو نفسـه كان يحدّثني في مـرات غير نادرة عن شكوكـه، وقد رأيت أنها كانـت شكوكاً مقنِعة.

Twitter: @ketab_n

لقـد استفسرت منه بدقـة وتفصيل عن خطط أعماله المقبلـة، ولْيَطْمئنّ عشاقُه المتباكون عليه، فأنا لم أرَ في تلك الخطط أي شيء جديد أو كبير. و لم يكـن بين الناسـ القريبين من أليكسي من لم يـرَ انحسار موهبته إلا زوجتـه، بل وما كان لها أن ترى ذلك أبداً. فهـل تعرفون لماذا؟ إنها لم تكن دائماً تقرأ مؤلفات زوجها. وما كان منها، عندما حاولت بطريقة مـا أن أفتح عينيها قليلاً، إلا أن عدّتْني نـذلاً. وحين أيقنتْ أننا وحدَنا، قالت:

- إنك لا تستطيع أن تغفر له شيئاً آخر.

- ما هو؟

- أنه زوجي، وأنني أحبُّه. ولو لم يكن أليكسي مولعاً بك إلى هذا الحد...

وتلكّأتْ، فسبقتُها وأكملت فكرتها:

- لكنتِ طردتِني؟

فتألّق الضحك في عينيها. ونطقتْ ببطء وهي تبتسم ببراءة:

- كلا، كنت أبقيتك.

على أنني لم أُظهر لها يوماً بكلمة أو بإشارة أنني ما زلت أحبّها. ولكنني فكّرت بسرعة: هذا أفضل، إن كانت هي عارفة.

إن حرمـان إنسان مـن الحياة مسألـةٌ لم توقفني بحد ذاتهـا. لقد كنت أعرف أن ذلك جريمة يعاقِب عليها القانون بشدّة، ولكنّ ما نقوم به من أفعال يكاد يكون كله جريمة، وما من أحد لا يرى ذلك إلا الأعمى. إنه في نظـر من يؤمنون بالله جريمة بحـق الله، وفي نظر الآخرين جريمة

Twitter: @ketab_n

بحق البشر. أمّا في نظر من هم مثلي، فهو جريمة أمام النفس. وإنها لجريمة أكبر لو أنني، وقد أدركت ضرورة قتل أليكسي، لم أنفّذ هذا القرار. أمّا تقسيم الناس الجرائمَ إلى كبيرة وصغيرة، ووصفهم القتل بأنه جريمة كبيرة، فقد كان يبدو لي دائماً كذباً عاديّاً وتافهاً من قبل الناس أمام أنفسهم، ومحاولة من المرء للاختباء وراء ظهره هرباً من المسؤولية.

إنني لم أكن أخاف حتى من نفسي. وكان هذا هو الأهمّ. إن أكثر ما هو هامٌّ بالنسبة للقاتل، بالنسبة للمجرم، ليس الشرطة، وليس المحكمة، وإنما هو نفسه، أعصابه، الاحتجاج الجبّار من قبل جسده كلّه الذي نشأ وَفقاً لتقاليد معلومة. تذكّروا راسكولنيكوف[٢٤]، ذلك الإنسان الذي مات بتلك الطريقة التافهة، بتلك الطريقة السخيفة، وما لا يحصى من أمثاله. لقد توقفت طويلاً جداً، وباهتمام كبير عند هذه المسألة متصوراً نفسي كيف سأكون بعد عملية القتل. لن أقول إنني وصلت إلى يقينٍ كامل بطمأنينتي، فمثل هذا اليقين لا يمكن أن يتشكل عند إنسان يفكِر، ويرى جميع الاحتمالات سلفاً. ولكنني بعد أن دقّقت النظر وأنا أجمع كل ما في ماضيَّ من معطيات، أخذت بعين الاعتبار قوّة إرادتي، وصلابة جهازي العصبي الذي لا يَكِلّ، واحتقاري العميق للأخلاق السائدة، استطعت أن أشعر بثقة نسبية بأن نهاية مشروعي ستكلَّل بالنجاح. وهنا لن يكون زائداً أن أروي لكم واقعة مشوِّقة من حياتي.

ذات مرة، حين كنت ما أزال بعدُ طالباً في السنة الثالثة من دراستي الجامعية، سرقت خمسة عشر روبلاً من نقود رفيق فوّضني باستلامها، وقلت إن موظَّف الصندوق قد أخطأ في العد، فصدّقني الجميع. كان ذلك أكثر من سرقة بسيطة، عندما يسرق محتاج من غنيّ. أمّا هذه فكانت

٢٤- راسكولنيكوف اسم بطل رواية دوستويِفسكي «الجريمة والعقاب». - م.

Twitter: @ketab_n

خيانة أمانة، وسلْب نقود من جائع تحديداً، بل ومن رفيق، بل وطالب، ومن قام بذلك هو شخص ذو مال (وهذا ما جعلهم يصدّقونني). قد يبدو لكم هذا الفعل أشدَّ شناعة حتّى من اقترافي جريمةَ قتلِ صديق، أليس كذلك؟ ولكنـي أذكر أنني كنت مسروراً بمقدرتي على فعل ذلك بهذا القدْر من المهارة والدهاء، وأنني حدّقت في عيونهم تماماً، في عيون مَن كذبت عليهم بطلاقة وجرأة. إن عينيّ سوداوان، جميلتان، تنظران مباشرة، وقد صدّقوهما. غير أنّ أكثر ما كنت فخوراً به هو أنني لم أشعر إطلاقاً بتأنيب الضمير، وهذا ما كان عليَّ أن أُثبته لنفسي. وإني لأذكر بسرورٍ فائق حتى اليوم ذلك الغداء الباذخ فوق الحد بألوان الطعام التي طلبتها بفضل ما سرقت من مالٍ وأكلتها بشهية.

فهل أنا الآن أشعر بتأنيب الضمير؟ بالندم على ما اقترفت يداي؟ ولا مثقال ذرّة.

إنني أشعر بالضيق. أشعر بضيق جنوني لا يشعر به أحدٌ في العالم، والشيب يغزو شعري، ولكنّ هذا شيء آخر. شيء آخر. رهيب، غير متوقّع، وغير معقول في بساطته الرهيبة.

الورقة الثانية

كانت مهمّتي هي التالية. ينبغي أن أقتل أليكسي. وينبغي أن ترى تتيانا نيكولايفنا أنني أنا بالضبط من قتل زوجها، وإضافة إلى ذلك ألا يمسّني عقاب القانون. ففضلاً عن أن عقابي كان سيعطي تتيانا نيكولايفنا مسوِّغاً آخر لكي تضحك منّي، فإنني عموماً لم أكن أريد إطلاقاً أن أُحكَم بالأعمال الشاقّة. فأنا مولع بحب الحياة.

Twitter: @ketab_n

إنني أحبّ شعشعة النبيذ الذهبي في كأس رقيقة. أحبّ، وأنا تعِبٌ، أن أستلقي في فراشٍ نظيف. يعجبني أن أتنفّس هـواء نقيّاً في الربيع، أن أشاهد الغروب الجميل، أن أقـرأ كتباً ممتعة وذكيّة. إنني أحبّ نفسي، وقـوّة عضلاتـي، وقوّة فكـري الجلي الدقيـق. أحبّ كـوني وحيداً، ومـا من نظرة فضولية واحدة تغلغلت إلى أعمـاق نفسي وما فيها من فجـوات وأغوار سحيقة مظلمة يصاب الرأس على حوافِّها بالدَّوار. كمـا أني لم أفهـم و لم أعرف في يـوم من الأيام ما الـذي يسميه الناس بملـل الحياة. فالحياة ممتعـة، وأنا أحبّها على هذا السـرِّ العظيم المكنون فيها، أحبّها حتى على ما فيها من قسوة وظلم، على انتقامها الوحشي ولَعِبها الشيطاني المرح بالناس والحوادث.

لقـد كنـتُ الإنسان الوحيد الـذي أحترمه، فكيف كنـت أستطيع أن أجازف بإرسال هذا الإنسان إلى الأعمال الشاقة، حيث يحرمونه من إمكانية العيشِ بالطريقة الضرورية له، المتنوعة، المليئة والعميقة!.. بل وكنـت على حق، من وجهة نظركم أيضاً، في رغبتي بتفادي الأعمال الشاقـة. إنني طبيب ناجحٌ جداً. لست بحاجة إلى المال، وأقوم بمعالجة كثير من الفقراء. إنني مفيد. قد أكون أكثر فائدة من سافيلوف المقتول.

وكان في مقـدوري الحصول على العفو بسهولة. فهناك آلاف الطرق لقتل إنسـان في الخفاء، وكان سهلاً عليَّ بصفـة خاصة، كطبيب، أن ألجـأ إلى طريقـة من تلك الطـرق. ومن بين الخطط التـي ابتكرتها ثم تخلّيت عنها خطّةٌ واحدةٌ ظلّت تشغل بالي وقتاً طويلاً، وهي أن أحقن أليكسي بجرثومة مرضٍ عُضالٍ لا بِرء منه. غير أن عيوب هذه الطريقة كانت واضحة لي: ففيها عِذاباتٌ طويلة للشخص نفسه، وفي هذا كلِّه شـيء قبيح وعميق، و... ينقصه الذكاء إلى حدٍّ كبير. وأخيراً فإن تتيانا

Twitter: @ketab_n

نيكولايفنا كانت ستجد سعـادة لنفسها حتى في مرض زوجها. على أن مـا عقّد مهمتي على وجـه الخصوص هو شَرطي الأكيد بأن تعرف تتيانا نيكولايفنا اليد التي أجهزت على زوجها. غير أن الجبناء وحدهم من يهابون العقبات؛ أمّا أمثالي فإنها تغريهم.

لقـد كانـت المصادفة، هذا الصديـق العظيم للأذكيـاء، عوناً لي. وإني لأسمـح لنفسي بأن أولي انتباهاً خاصـاً، أيها السادة الخبراء في الطب الشرعي، إلى هذا التفصيل الصغـير، إلى المصادفة تحديداً، أي إلى شيء خارجي لا يتعلّق بي، كان أساساً وسبباً لِما حدث لاحقاً. فقد وقعت في إحدى الصحف على خبر صغير عن موظَف صندوق، أو عن محاسب (لعـلّ هذه القصاصـة المقتطعة مـن الجريدة ظلّت عنـدي في البيت، أوهـي موجودة عند المحقـق) تصنّع الإصابة بنوبة صـرَع، وزعم أنه فقدَ المال في أثناء النوبة، بينما كان هو في الحِقيقة من سرق ذلك المال، بالطبـع. ثم تبيّن أن المحاسب جبـان واعترف، بل وكشف عن مكان المـال المسـروق. إلا أن الفكرة بحد ذاتها لم تكـن سيئة، وكانت قابلة للتطبيـق. أن أمثِل أننـي أُصبت بالجنون، وأقتلَ أليكسـي زاعَماً أنني كنت في حالة من فقدانٍ للوعي، ثم أنعم بـ "الشفاء". تلك هي الخطة التـي تكوّنت لديّ في دَقيقة، ولكنها تطلّبت كثيراً من الوقت والجهد مـن أجل أن تتَّخـذ شكلاً ملموساً محدداً تمامـاً. كنت في ذلك الوقت أعـرف الطب النفسي معرفة سطحية مثـل أيِّ طبيب غيرِ متخصص، فأمضيـت أكثر من عام في التفكير وقـراءة مختلف أنواع المَراجع. وفي نهاية تلك المدة تيقّنت من أن خطّتي قابلة للتنفيذ تماماً.

إن أوّل مـا سيكون على الخبراء أن يوجِّهوا إليـه الانتباه هو المؤثّرات الوراثيـة. ولفرحـي العظيـم فقد تبـيّن لي أن العامـل الوراثي عندي

Twitter: @ketab_n

مناسب تماماً. فقد كان والدي مدمناً على الكحول، وكان أحد أعمامي قد أنهى حياته في مستشفى للأمراض العقلية. وأخيراً، فإن أختي الوحيدة آنّا، التي ماتت، كانت مصابة بالصرع. صحيح أن الجميع من جهة أمّي كانوا أقوياء البنية، ولكنّ قطرة سُمّ واحدةً من الجنون كافيةٌ لتسميم عدد كبير من الأجيال. وقد كنتُ، من حيث صحّتي القوية، من سلالة أمّي، ولكنّ بعض الطباع الغَريبة غير المؤذية كانت موجودة عندي ويمكن أن تخدمني. ذلك أن انطوائيتي النسبية التي هي مجرّد علامة من علائم العقل السليم الذي يفضِّل قضاء الوقت على انفراد مع النفس والكتب، على إضاعته في الثرثرة الفارغة العديمة الجدوى كان يمكن أن تفسَّر على أنها كُرْهٌ مَرَضيٌّ للبشر؛ وتفسير البرود في طبيعتي التي لا تبحث عن الملذّات الحسية الخشنة على أنه تعبير عن الانحلال. أمّا الإصرار الحقيقي على بلوغ ما رسمته من أهداف، وكان يمكن العثور على عدد غير قليل من الأمثلة على ذلك في حياتي الغنية، فكان سيسمّى في لغة السادة الخبراء باسم رهيب هو المسّ الأحادي (مونومانيا)، أي هيمنة الأفكار الملازمة.

وهكذا، فإن الأرضية كانت مناسبة فوق الحد للتمثيل. إذ إن حالة الجنون الكامن كانت جليّة، ولم يكن باقياً إلا تفعيلها. كان ينبغي إدخال لمسَتين أو ثلاث بنجاح على ما جادت به عليّ الطبيعة عفوياً لتكتمل لوحة جنوني.

وكنت أتصور بجلاء شديد كيف أن ذلك لن يكون أفكاراً برناجمية، وإنما سيكون صوراً حيّة، إذ على الرغم من أنني لا أكتب قصصاً رديئة، فأنا لست على الإطلاق مجرّداً من الرهافة الفنية والخيال.

لقد رأيت أنني سأكون قادراً على أن أمثِّل دوري بنجاح. فالميل إلى

Twitter: @ketab_n

التصنع كان موجوداً في شخصيتي دائماً، وكان شكلاً من الأشكال التي أطمح فيها إلى الحرية الداخلية. ذلك أنني منذ أيام المدرسة كثيراً ما كنت أتصنَّع الصداقة، فأسير في الممر معانقاً أحداً، مثلما يفعل الأصدقاء الحقيقيون، وبمهارة كنت أفتعل كلاماً وداً صريحاً وأستكشف أسرار الآخرين خلسة. وعندما يكشف لي صاحبي عن سريرة نفسه كلّها، بعد أن أكون قد استدرجته إلى ذلك، كنت أتخلّى عنه وأبتعد فخوراً بإدراكي قوّتي وحريتي الداخلية. وقد ظللتُ هذا الشخصَ المزدوج حتى في البيت، وأنا بين أهلي. فمثلما توجد في بعض بيوت أتباع طائفة العقيدة القديمة[٢٥] أوانٍ مخصصةٌ للغرباء، يوجد عندي أيضاً من كل شيء ما هو خاص للناس: ابتسامة خاصّة، وأحاديث خاصّة وصراحة خاصّة أيضاً. لقد رأيت أن الناس يفعلون كثيراً من الأشياء الغبية التي تؤذيهم وهم ليسوا في حاجة إليها. وخيّل لي أنني إذا ما رحتُ أقول الحقيقة عن نفسي فسوف أُصبِح مثل الجميع، وأن هذه الأشياء الغبية التي لا يحتاج إليها أحد سوف تسيطر عليّ.

كان يعجبني دائماً أن أكون مهذّباً مع من أحتقرهم، وأن أُقبِّل الناس الذين أكرههم، وهذا ما جعلني حرّاً وسيّداً على الآخرين. وبالمقابل، فإنني لم أعرف الكذب يوماً على نفسي، لم أعرف هذا الشكل الأكثر انتشاراً، والأكثر نذالة بين أشكال عبودية الإنسان

٢٥- «أنصار العقيدة القديمة» ـ اسم يطلق على مَن خرجوا على الكنيسة الأرثوذكسية الروسية بسبب اعتراضهم على الإصلاحات التي أجراها الأب نيكون والقيصر الروسي في القرن السابع عشر (١٦٥٠ - ١٦٦٠). وكان هدف تلك الإصلاحات توحيد العبادات مع الكنيسة اليونانية، وخاصة مع كنيسة القسطنطينية. وظلّوا يُعرفون بـ «المنشقين» حتى ١٧/٤/١٩٠٥م. ـ م.

Twitter: @ketab_n

للحياة. وكنت كلّما تماديت في الكذب على الناس ازددت صدقاً لا رحمة فيه أمام نفسي، وهذه ميزة لا يستطيع أن يتباهى بها إلا قليلون.

وعموماً، فإنني، في اعتقادي، أنطوي في سريرتي على ممثل استثنائي، قادر على الجمع بين عفوية التمثيل التي تصل أحياناً إلى التطابق الكامل مع الشخص الذي يجري تمثيلُه، ورقابة العقل الباردة التي لا تضعف. وحتى عندما كنت أقرأ الكتب قراءة عادية كنت أدخل بكلّيتي إلى نفسية الشخص الذي يدور الحديث عنه، وحتى بعد أن أصبحت ناضجاً - هل تصدّقون؟ - كنت أذرف دموعاً مُرَّة على "كوخ العم توم"(٢٦). يا لَلقدرة على تقمُّص الآخرين من صفة عجيبة من صفات العقل المرن، المرهَف الذي صقلته الثقافة! كأنك تعيش الحياة آلاف المرّات، تارة تهبط إلى ظلام الجحيم، وتارة ترتفع إلى ذرى جبال وضّاءة وبنظرة واحدة تحيط بالعالم اللانهائي. إذا كان مقدّراً للإنسان أن يصبح إلهاً فإن عرشه سيكون الكتاب...

أجل. إن الأمر لكذلك. وبالمناسبة، فإنني أريد أن أشكو لكم الأعراف المحلية. فتارة يهيئونني لأنام عندما أكون راغباً بالكتابة، عندما أكون محتاجاً لكي أكتب. وتارة لا يغلقون الأبواب، فأكون مجبَراً على الاستماع إلى مجنون يصرخ. إنه لا يكفّ عن الصراخ، وهذا شيء لا يطاق البتة! بهذه الطريقة يمكن حقّاً حرمانُ الإنسان

٢٦-. تصور الرواية معاناة الزنوج في أمريكا وتندد بالرق والعبودية رواية أمريكية شهيرة للكاتبة هارييت بيتشر - سنو (١٨١١ - ١٨٩٦) صدرت عام ١٨٥٢ فاتّهمت المؤلفة بالتلفيق والكذب، ما دفعها إلى كتابة رواية أخرى هي «مفتاح كوخ العم توم» عام ١٨٥٣ .-م.

Twitter: @ketab_n

من عقله، والقولُ بأنه كان مجنوناً من قبلُ أيضاً. هل حقّاً ليس عندهم شمعة زائدة ويجب عليَّ أن أؤذيَ عينيَّ بضوء الكهرباء؟

حتـى إنني فكّرت بالمسرح ذات يوم. غير أني تخلّيت عن هذه الفكرة الغبيـة، لأن التصنّع لا يعود له من قيمة عندما يعرف الجميع أنه تصنّعٌ. بل وقليلاً ما كانت تغريني أكاليل الغار الرخيصة لمتصنِّع محلّف موظّف في الدولة. وأنتم تستطيعـون أن تحكموا على المستوى الذي بلغتُه في هـذا الفنّ بالنظر إلى أن كثـيراً من الحمير ما يزالون حتى الآن يعدّونني أخلص وأصدق إنسان. والغريب هـو أنني كنت دائماً أُحسِن اللعب ليس بالحمير - وقد قلتُ هـذا هكذا، بانفعال - وإنّما بالناس الأذكياء تحديداً. وعلى العكـس من ذلك، فهناك نوعان من الكائنات المنحطّة المستوى التي لم أستطع يوماً أن أكسِب ثقتها، هما النساء والكلاب.

هـل تعرفون أن الفاضلة تتيانا نيكولايفنا لم تصدِّق حبّي يوماً، وأعتقد أنهـا لا تصدّقـه الآن أيضاً، بعد أن قتلتُ زوجها؟ إذ يتهيّـأ لها وَفقاً لمنطقهـا أني لم أحبَّها، وأنّي قتلتُ أليكسي لأنها تحبُّه. ولعلّ هذا الهُراء يبدو لها معقولاً ومقنِعاً. علماً بأنها امرأة ذكيّة!

إن تمثيـل دورِ مجنونٍ لم يبدُ لي مسألةً شديـدة الصعوبة. فقد قدَّمت لي الكتب جزءاً مـن الإرشادات الضرورية لأداء هـذا الدور، وجزءٌ آخرُ كان علـيَّ، مثـلَ أيِّ ممثّل حقيقي يلعـب أيَّ دور، أن أُعوِّضه بإبداعي الشخصي، أمّا الباقي فسوف يُتمُّه الجمهورُ نفسه الذي صقل مشاعره منـذ زمن طويل بواسطة ما تعلّمه من الكتب والمسرح من أجل تجسيد أشخاص أحياء بالاعتماد علـى اثنين أو ثلاثة من المبـادئ الأساسية. بالطبـع، كان لا مناص من أن يبقى بعضُ الثغرات، وكان ذلك خطيراً على وجه الخصوص نظراً لِما سأتعرّض له في أثناء فحص الطب الشرعي

Twitter: @ketab_n

العلمـي الصارم. ولكنني حتى هذه النقطـة لم أكن أتوقّع خطراً جدّيّاً. فمـا يزال ثمـة تقصير كبير في دراسة مجال الأمراضـ النفسية الواسع، إذ مـا يزال فيه كثير من المجاهـل والمصادفات، وفضـاءٌ هائل للخيال والذاتيـة، ما ساعدني علـى أن أتجرّا فأضع مصيري بـين أيديكم، أيّها السادة الخبراء. آمل ألا أكون قد أسأتُ إليكم. إنني لا أهدف إلى النيل مـن مرجعيتكم العلميـة، وأثق بأنكم سـوف توافقونني كبشر تعوّدتم على التفكير العلمي النزيه.

... ثـم في النهايـة كففت عن الصـراخ. فذلك، بـكل بساطة، أمر لا يطاق.

منذ ذلك الوقت الذي كان فيه مخططي مجرّد مشروع ظهرت لديّ فكرة هيهـات أن تخطر على بـال مجنون. إنها فكرةٌ حـول ما تنطوي عليه لتجربتي من خطر رهيب. هل تعرفون ما الذي أتكلّم عنه؟ إن الجنون نـارٌ لا يجوز المزاح معها. فأنتم لو تشعلون ناراً في قلب مستودع من البـارود تستطيعون أن تكونوا أكثر شعوراً بالأمان ممّا عندما تتسلل إلى رأسكـم أصغر فكرة عن الجنون. وهذا ما كنت أعرفه، أعرفه، أعرفه، ولكنْ هل يعني الخطر شيئاً في نظر الإنسان الشجاع؟

ألمْ أكـنْ أشعر بأن فكرتي صلبـة، وضّاءة، كأنها مصكوكة من فولاذ، وهـي طـوع بناني؟ كأنهـا سيف مبـارزة ذو حدّين صقيلـين، يتلوّى ويعضّ ويلدغ ويخترق نسيج الأحـداث، ويزحف دون صوت مثل أفعى نحـو الأعماق المجهولـة والمظلمة المحجوبة عن ضـوء النهار، ولكـنّ مقبضه كان في يدي، تلك اليد الحديديـة لمبارزٍ ماهر وضليع. كـم كانت فكرتي تلك مطيعة مقدامة وسريعـة، وكم كنت أحبّها من فكرة هي عبدتي، وقوّتي الرهيبة، وكنزي الوحيد!

Twitter: @ketab_n

... إنـه يصرخ ثانية، و لم أعُـد أستطيع أن أكتب. يا للفظاعة حين يجأر الإنسان. لقد سمعت كثيراً من الأصوات المرعبة، ولكن هذا الصوت هـو الأكثر رعباً وفظاعة بينها جميعاً. إنـه لا يشبه أيَّ شيء آخر، فهو صوت وحشٍ يصدر من حنجرة إنسـان. شيء متوحِّش وجبان؛ حُرٌّ وحقير حتـى النذالة. فمٌ أعوجُ مائل، عضلات وجـه تتوتَّر كالحبال، تكشـيرة أسنان مثـل تكشيرة الكلاب، ومن فجوة هـذا الفم المظلمة يخرج ذلك الصوت الشنيع، الهادر، الصافر، المقهقه، العاوي...

أجلْ. أجلْ. هكذا كانـت فكرتي. بالمناسبة: إنكم ستنتبهون طبعاً إلى خطِّي، وإني لأرجوكم ألا تعيروا اهتماماً لكونه يتعرَّج أحياناً، ويخيَّل أنـه يتغيَّر. إنني لم أعُد أكتب منذ مـدّة طويلة، فقد أصابتني الأحداث الأخيرة والأرق بضعف شديد، وها هي يدي ترتعش أحياناً. كان هذا يحدث لي في الماضي أيضاً.

الورقة الثالثة

إنكم تفهمون الآن ما هي تلك النوبة الرهيبة التي أصابتني في السهرة عنـد عائلة كارغانوف. لقـد كانت تلك تجربتـي الأولى التي نجحت نجاحـاً فاق توقعاتـي. كما لو أن الناس جميعاً كانـوا يعرفون سلفاً أن هـذا ما سيقـع لي، وكأن الجنـون المباغت الذي يصيـب إنساناً سليماً تماماً يبـدو في نظرهم شيئاً طبيعياً من النوع الـذي يمكن توقّعه دائماً. لم يستغـرب أحد ما وقع، وسارع الجميع واحداً تلو الآخر إلى تصويرِ تمثيلـي بالصورة التي تبدّت لخيالهم هم، ونـادراً ما تتجمَّع حول ممثلٍ جـوّالٍ جوقةٌ رائعة من أمثال هؤلاء النـاس السّذّج الأغبياء والمغفّلين.

Twitter: @ketab_n

ألمْ يحكـوا لكـم كم كنت شاحبـاً ومخيفاً؟ كيف كان العـرق البارد - أجـل، البارد تحديداً - يغطّي جبيني؟ أيّ نـارٍ مجنونة كانت تضطرم في عينيَّ السوداوين؟ وفي الوقت الذي كانوا ينقلون لي ملاحظاتهم هذه كلّهـا كنت أبدو مكدّراً محبَطاً، بينما كانت روحي كلّها ترتعش فرحاً وسعادة واستهزاء.

لم تكـن تتيانـا نيكولايفنا وزوجُها موجودَيـن في السهرة، ولا أدري إن كنتـم قد انتبهتم إلى ذلك أم لا. على أن ذلك لم يكن مصادفة، فقد كنـت أخشى أن أخيفها، أو أخشى وقوع ما هـو أسوأ من ذلك، أي أن أُدخِـل إلى نفسها الشك. فإنـه إذا كان هناك من إنسان يستطيع أن يكتشف تمثيلي، فما ذللك الإنسان إلا هي.

وعمومـاً، لم يكن هناك أي شـيء وليد المصادفـة. بالعكس، فإن كل تفصيـل من التفاصيل، حتّى أشدّها ضآلـة، كان قد نُسِج بإتقان. لقد اخـترت لحظة النوبة وقـت العشاء، لأن الجميـع يكونون موجودين، ويكونـون منتشين بالنبيذ قليلاً. وجلست عنـد طرف الطاولة، بعيداً عـن الثُّرَيّـات المضـاءة بالشمـوع، وذلك لأنني لم أكـن راغباً على الإطـلاق بإشعال حريـق أو بأن تصيب أنفيَ النـار. وقد أجلست إلى جانبي بافل بيتروفِتشـ بوسبيلوف، هذا الخنزير الممتلئ شحماً، الذي كنـت أتمنّى منذ زمن بعيد أن أتسبـب له بمكروه. إنه يكون منفّراً على وجـه الخصوص وهو يأكل. فعندما شاهدتـه أوّلَ مرّة منهمكاً بتناول الطعـام خطر لي أن الأكل عمـل لا أخلاقي. في تلك السهرة كان كلّ شـيء يسير لصالحي. ولعلّه ما من أحد انتبه إلى أن الصحن الذي تحطّم متناثـراً تحت قبضتي كنت قـد غطّيته بمنديل كي لا أجرح يدي. كان المقلب بحد ذاته فظّاً، بل وغبيّاً أيضاً. غير أن هذا هو بالضبط ما كنت

Twitter: @ketab_n

أرمـي إليه. ذلك أنهم ما كانوا قادرين على فهم شيء آخر أكثر رهافة. فقد كنت في البداية ألوِّح بيديَّ وأتكلّم "بانفعال" مع بافل بيتروفِتش إلى أن بـدأ يحملق فيَّ بعينيه الصغيرتين متعجّباً. ثم سرحت في "تفكير مركَّز" حتى جاء السؤال من طرف إيرينا بافلوفنا العتيدة:

ـ ما بك، يا أنطون إغناتيفِتش؟ ممَّ أنت متكدِّر إلى هذا الحد؟

وعندما التفتَ إليّ الجميع بأنظارهم ابتسمتُ بطريقة مأساوية.

ـ هل أنت مريض؟

ـ نعـم، قليلاً. لقد أُصِبتُ بدَوار. ولكنْ لا تقلقي، من فضلك. إن هذا سيزول الآن.

اطمأنّـت ربّـة البيـت، ولكـنّ بافـل بيتروفِتـش رمقني بنظـرة شك واستنـكار. وفي الدقيقـة التي أعقبـت ذلك، عندما أدنـى من شفتيه قدحـاً من نبيذ الـ "بورتفـين" وهو مبتهجِ الوجه، طـيَّرتْ ضربةٌ منّي القدح أوّلاً من تحت أنفه، وبضربة ثانية حطمت قبضتي الصحن. وإذا بالشظايـا تتناثر، وببافل بيتروفِتش يتعثّر ويغمغم، وبالسيدات يزعقن. أمّا أنا فقد كشّرت عن أسناني ورحت أسحب الغطاء عن الطاولة بكل ما كان عليه. كان المشهد يميت من الضحك!

نعم. وهنـا طوّقوني، وأمسكوا بي، منهم من يحمـل إليّ الماء، ومنهم مـن يُجلسني على الكنبة، فيمـا أنا أجأر مثل نمرٍ في حديقة حيوانات، وأُقلِّب عينيّ بحركة دائريـة. كان ذلك كلّه سخيفاً أيّما سخف، وكان الجميـع أغبياء، حتى إنني ـ واللهِ ـ تمنَّيت جادّاً أن أحطّم عدداً من هذه الوجوه الحيوانية منتهزاً خصوصيةَ الحالة التي أنا فيها. ولكنني امتنعت عن ذلك، طبعاً.

Twitter: @ketab_n

ثم جـاء مشهد الهـدوء البطيء مصحوبـاً بحركة سريعة مـن الهبوط والصعود في صدري، وبقلبِ عينيّ، وصريف أسناني، وأسئلة واهنة:

ـ أين أنا؟ ماذا أصابني؟

حتـى هذه الـ "أين أنـا" الفرنسية لسبب سخيف، لاقـت نجاحاً عند هـؤلاء السـادة، فإذا بما لا يقلّ عن ثلاثة حمقـى منهم يردّون عليّ في الحال:

ـ عند عائلة كارغانوف. ـ ثم بصوتٍ فيه دلعٌ: ـ هل تعرف أيها الدكتور العزيز من هي إيرينا بافلوفنا كارغانوفا؟

حقّاً، لقد كانوا أتفه بكثير من أن يحسنوا التمثيل.

وبعد يوم، ـ فقد أَعطيت وقتاً لكي تصل الأقاويل إلى عائلة سافيلوف، ـ دار حديث بيني وبين تتيانا نيكولايفنا وأليكسي. ولسببٍ ما لم يفهم أليكسي ما حدث، واكتفى بسؤال:

ـ ما هذا الذي فعلته، أيها الأخ، عند عائلة كارغانوف؟

ثـم استدار إليّ بسترته ومضى ليعمل في مكتبه، وبطريقة كما لو أنه لن يتحـرّك من مكانه حتّى إذا ما أُصبت بالجنون. إلا أن تعبير زوجته عن تعاطفها تميّز بأنه كان تعبيراً كثير الكلام، عاصفاً، وغير صادق، طبعاً. وعندهـا... لا أقول إنني تأسّفت على ما بـدأت، ولكنْ فقط راودني سؤال: وهل المسألة تستحق الأسف؟

ـ هل تحبين زوجك بقوّة؟ ـ قلت لتتيانا نيكولايفنا وهي تشيّع أليكسي بنظرها.

فالتفتت إليّ بسرعة.

Twitter: @ketab_n

ـ نعم. وماذا؟

ـ لا شيء. هكذا. ـ ثم أضفت بعد دقيقة صمتٍ حذر، مفعَمٍ بأفكار لم أكشف عنها: ـ لماذا لا تثقين بي؟

وبسرعةٍ نظرت في عينيّ مباشرة، ولكنها لم تُجِب. وقد نسيتُ في هذه الدقيقة أنها ذات مرة في وقت بعيد ضحكتْ و لم أغضب منها، وبدا لي ما أفعله زائداً وغريباً. كان ذلك تعباً طبيعيّاً بعد توتُّر أعصاب قويّ، و لم يستمرّ ذلك التعب إلا هنيهة واحدة.

ـ وهل يمكنني أن أصدِّقك؟ ـ سألت تتيانا نيكولايفنا بعد صمتٍ طويل.

ـ طبعاً، لا يمكن، ـ أجبتها مازحاً، فيما اشتعلت في داخلي النار الخامدة.

أحسست في نفسي بجرأة، بإرادة لا تتوقف أمام شيء. كنت فخوراً بما بلغته من نجاح، وقررت أن أمضي حتى النهاية. فالصراع هو فرحة الحياة.

لقد وقعت النوبة الثانية بعد شهر من الأولى. ولكنْ لم يكن كل شيء مدروساً بدقة في هذه المرة، بل وكان وقوعه زائداً ما دام هناك خطة عامة. لم يكن عندي نيّة لتدبير هذه النوبة في ذلك المساء، غير أنه لمّا كانت الظروف مواتية إلى هذا الحد كان من الغباء أن لا أستغلها. وإني لأذكر بجلاء كيف وقع ذلك كلّه. فقد كنا جالسين في غرفة الضيوف نثرثر عندما شعرتُ بكآبة شديدة. وتهيّأ لي على نحوٍ حيّ ـ وعموماً، نادراً ما يحدث هذا ـ كم أنا غريب عن هؤلاء الناس كلّهم ووحيد في هذا العالم، أنا المحبوس إلى الأبد في هذا الرأس، في هذا السجن. وعندئذ صاروا كلّهم كريهين في نظري. وبغضب شديد خبطتُ بقبضتي وصرخت بشيء فظّ، وفرحت وأنا أشاهد الذعر على

Twitter: @ketab_n

وجوههم التي علاها الشحوب.

ـ أيهـا الأنذال! ـ صرخـتُ. ـ أيها الأنجاس، الأنـذال المسرورون! أيها الكذّابون، المنافقون، الحقودون. إني أكرهكم!

صحيـح أنني كنت أخوض صراعاً ضدّهم، ثم ضد الخدم والحوذيين. ولكني كنت أعرف أنني أصارعهم، وأعرف أن ذلك مقصود. فقط كان يطيب لي أن أضربهـم، أن أقول لهم أمام عيونهم مباشرة مَن هم. فهـل كلُّ من يقـول الحقيقة مجنون؟ أقـول لكم بصدق، أيهـا السادة الخـبراء، إنني كنت واعياً كل شـيء، وإني وأنا أهـوي بقبضتي كنت أشعـر بجسـد حيّ يتألّم تحت يدي. وبعـد أن بقيت وحدي في البيت ضحكـت وفكّرتُ كم أنا ممثل رائع وبديع. ثـم استلقيت في الفراش ليـلاً ورحت أقرأ في كتاب قبل النوم، حتـى إني أستطيع أن أقول لكم إنـه كتاب غي دي موباسان، وقد استمتعت بـه كما هو الحال دائماً، وغفوت مثل رضيع. فهل يقرأ المجانين كتباً ويستمتعون بها؟ وهل هم ينامون نوم الرضيع؟

المجانـين لا ينامـون. إنهم يتألّمـون؛ وفي رؤوسهم يتعكّـر كل شيء. نعـم. يتعكّر ويتساقط... ويرغبون بأن يعـووا، وأن يخدِّشوا أنفسهم بأيديهـم. إنهم يرغبون بأن يقفوا هكذا، علـى أربع، ويزحفوا بمنتهى الهدوء، ثم يقفزوا قفزة واحدة ويصرخوا: "آها!" وبعدها يضحكون. أن يعـووا وهم يرفعون رؤوسهم عالياً، عـواءً طويلاً ـ طويلاً، مديداً ـ مديداً، وتعيساً ـ تعيساً.

نعم. نعم.

وقد نمت مثل الرضيع. فهل ينام المجانين كالرضّع؟

Twitter: @ketab_n

الورقة الرابعة

أمس في المساء سألتني جليستي(٢٧) ماشا(٢٨):

ـ أنطون إغناتيفِتش، أنت لا تصلّي لله أبداً ؟

كانت جادّة وتصدِّق أنني سأجيبها بإخلاص وجدِّيّة. وقد أجبتها دون أن أبتسم، كما كانت تريد:

ـ كلا، يا ماشا، أبداً. ولكنْ إذا ما كان ذلك يمنحك السرور فإنك تستطيعين أن ترسمي عليَّ إشارة الصليب.

وبالجدية نفسها رسمت أمامي إشارة الصليب ثلاث مرات، ففرحتُ كثيراً لأنني منحتُ هذه المرأة الرائعة دقيقة سرور. إنكم، أيها السادة الخبراء، كجميع أصحاب المناصب العليا والأحرار من الناس، لا تولون خدَمَكم اهتماماً، أمّا نحن السجناء و"المجانين" فيصادف أن نراهم عن كثب، وأن نقوم أحياناً باكتشافات عجيبة فيهم. لعلّه لم يخطر على بالكم أصلاً أن الجليسة ماشا التي عهدتم إليها برعاية المجانين، هي نفسها مجنونة؟ ولكنْ هذه هي الحقيقة.

انتبهوا إلى مِشيتها العديمة الصوت، الانسيابية، الخائفة قليلاً، والرائعة

٢٧– الجليسة (أو الجليس): من يقوم لقاء أجر على رعاية شخص مريض، أومُقعَد أو مسنّ (يساعده، يقرأ له، يشرف عليه...). وهو ليس مسؤولاً عن حاجات البيت ونظافته ومتطلبات ساكنيه، أي ليس خادماً ولا ممرِّضاً. ـ م.

٢٨– ماشا: صيغة التصغير والتحبب من اسم ماريّا. ـ م.

Twitter: @ketab_n

في حذرهـا ورشاقتها، وكأنها تمشي بين سيوفٍ مجرّدة لا تُرى. دقّقوا النظـر في وجهها، شريطةَ أن تفعلوا ذلـك بطريقة لا تلحظها، بحيث لا تعـرف بوجودكم. عندما يأتي أحد منكم يغـدو وجه ماشا جدّياً، وَقـوراً، ولكنه يكـون مبتسماً في غير ما تكلّفٍ أيضـاً، أي أنه يتحلّى بالتعبـير نفسه الـذي يكون مرتسمـاً على وجهكم في تلـك الدقيقة بالـذات. ذلـك أن ماشا تتمتّـع بمقدرة غريبـة ومتعـددة المعاني على أن تعكـس عفوياً علـى وجهها تعبـير جميع الوجوه الأخـرى. إنها أحيانـاً تنظر إليَّ وتبتسـم. تلك البسمة الشاحبـة، الصادرة عن مرآة، كأنهـا غريبة عنها. فقد اكتشفـت أنني كنت أبتسم عندما نظرت إليّ. أحيانـاً يغدو وجه ماشا مَكروباً، متجهّمـاً، ينعقد حاجباها عند أعلى أنفهـا، ويتهدّل طرفا فمها؛ وجهها كلّه يكـبر عشر سنوات ويكفهرّ، لعـلّ وجهي يكون كذلك أحياناً. ويحـدُث أن أخيفها بنظرتي. فأنتم تعرفـون كم هي غريبة ومرعبة قليلاً نظـرة أي إنسان غارق في تفكير عميـق. وتتّسع عينا ماشا، ويُظلم البؤبـؤ فيهما، وتمشي نحوي رافعة يديها قليلاً، لا يصدر عنها صوت، فتفعل لي شيئاً ودوداً وغير متوقَّع، كأنْ تمسِّد لي شعري، أو تعدِّل ثوبي.

ـ حزامك سينفكّ! ـ تقول فيما يظلّ وجهها خائفاً.

ويُصـادَف أن أراهـا وحدَهـا. علـى أنها حين تكـون وحدها يكون وجهها خالياً خلوّاً غريباً من أي تعبير. يكون شاحباً، جميلاً وغامضاً، مثل وجه الميت. ما إن تناديها: "ماشا!" حتّى تلتفت إليك سريعاً وهي تبتسم ابتسامتها الرقيقة المتخوِّفة وتسألك:

ـ هل أقدِّم لك شيئاً؟

Twitter: @ketab_n

ثمـة دائمـاً ما تقدّمه أو ما تأخـذه، وإذا لم يكن هناك مـا تقدّمه أو ما تأخذه وتبعده، تكون قلقـة، على ما يبدو. وهي دائماً ساكتة. إنني لم ألحظهـا مـرة تُسقط من يدها شيئاً أو تصطـدم بشيء. لقد حاولت أن أتكلّـم معها عن الحياة فوجدت أنها غريبـة في لا مبالاتها بكل شيء، حتى بجرائم القتل، والحرائق، وأي رعبٍ آخرَ شديد التأثير على الناس المتخلّفين.

- تعرفـين أنهم يُقتلون، يصابون بجروح، ويبقى وراءهم أطفال صغار جائعون، - أتحدّث إليها عن الحرب.

- نعـم، أفهم، - أجابت وسألتني ساهمـة: - ألا تريد حليباً، فقد أكلتَ اليومَ قليلاً؟

أضحـك، فتردُّ عليّ بضحكٍ فيـه خوف. إنها لم تذهـب إلى المسرح أبـداً، لا تعـرف أن روسيا دولة وأن هناك دولاً أخـرى. إنها أُمّيّة ولا تعرف من الإنجيل إلا ما كانوا يرتّلونه مقاطعَ في الكنيسة. وهي تركع على ركبتيها كلّ مساء وتطيل الصلاة.

ظللت وقتاً طويلاً أعدُّها مجرّد كائن محدود، بليد، مولود ليكون عبداً، ولكـن حادثة واحـدة أرغمتني علـى تغيير نظرتي. لعلّكـم تعرفون، لعلّهـم قالوا لكم إنني عشت هنا لحظة شنيعة، هي بالطبع لا تدلّ على شيء آخر غير التعب وانحطاط القوى المؤقّت. كان ذلك منشفة. إنني طبعاً أقوى من ماشـا، وكنت أستطيع أن أقتلها لأنه لم يكن أحد هناك غيرنـا نحن الاثنين، ولو أنها صرخت أو قبضت على يدي... ولكنّها لم تفعل شيئاً من ذلك. لقد اكتفت بالقول:

- لا لزوم، يا حَبّوب.

Twitter: @ketab_n

كثيراً مـا فكَّرت فيما بعد بهذه الـ «لا لـزوم»، ولا أستطيع حتى الآن أن أفهـم تلك القـوّة العجيبة الكامنة فيها وأشعر بهـا. إنها ليست في الكلمـة ذاتها، العديمـة المعنى والفارغة. إنها في مـكان ما من أعماق روح ماشا، تلك الأعماق التي أجهلها ولا أستطيع بلوغها. فثمّة شيء تعرفـه. أجـل، إنها تعرف شيئاً مـا، ولكنها لا تستطيـع أو لا تريد أن تقولـه. ثم حاولت مراراً أن أحصل مـن ماشا على تفسير لهذه الـ "لا لزوم"، ولم تستطع أن تفسّره.

ـ هل تعتقدين أن الانتحار ذنبٌ، وأن الله حرَّمه ؟

ـ لا.

ـ فلماذا لا لزوم؟

ـ هكذا. لا لزوم. ـ قالت وهي تبتسم وتسألني: ـ هل أُحضِر لك شيئاً؟

حقّـاً، إنها مجنونـة، ولكنها هادئة ومفيدة مثل كثـير من المجانين. فلا تمسّوها.

لقـد سمحتُ لنفسي بأن أحيد عـن القصة، لأن تصرُّف ماشا بالأمس عـاد بـي إلى ذكرياتي عن الطفولـة. فأنا لا أذكر أمّـي، ولكنْ كان لي خالة هي أنفيسا التي كانت ترسم عليّ إشارة الصليب دائماً قبل النوم. كانت عانساً صموتاً، في وجهها بثورٌ، وتستحي دائماً عندما يمازحها والـدي عن الخُطّاب. كنت ما أزال صغيراً، في حوالي الثالثة عشرة من عمـري عندما شنقت نفسها في زريبة صغـيرة كنّا نكدِّس فيها الفحم الحجري. وفيما بعدِ كانت تتراءى لأبي طول الوقت، فراح هذا الملحد المرح يطلب أن يقيموا من أجلها الصلوات والقداديس الموسيقية.

Twitter: @ketab_n

كان والدي شديد الذكاء وموهوباً، وكانت مرافعاته في المحكمة تجبر علـى البكاء ليس السيدات العصبيـات فقط، بل والناس الوقورين، المتّزنـين أيضاً. وكنت الوحيـد الذي لا أبكي وأنا أستمـع إليه، لأنني كنـت أعرفه وأعرف أنـه هو نفسه لا يفقه شيئاً ممّـا يقول. كان واسع المعرفـة، وكان عنـده كثير من الأفـكار ومن الكلام أكـثر. وقد كان يدبِّـج تلك المعـارف والأفكار والكلام بنجـاح وجمال كبيرين، غير أنـه هو نفسه لم يكن يفقه في ذلـك أيّ شيء. حتى إنني كثيراً ما كنت أشكّ: أهو موجود أم لا، فقد كان يتجسّد كلّه في ما هو خارجي، في الأصوات والحركات، وكثـيراً ما كان يتهيّأ لي أنه ليس إنساناً، بل هو صورة تومض في السينما موصولةً بجهاز غراموفون. لم يكن يفهم أنه إنســان، أنه يعيش الآن، وسيمـوت فيما بعد، ولم يكن يبحث عن أي شيء. ولعلّه عندما كان يستلقي في الفراش ويكفّ عن الحركة ويغفو، لم يكن يرى أيّة أحلام في نومه، ولا يعود موجوداً. كان يحصِّل بلسانه حـوالي ثلاثين ألفـاً[٢٩] في العام، إذ كان محاميـاً، ولم يتعجّب من هذه المسألـة أو يفكِّر فيها في أي يوم من الأيام. أذكر أنني سافرت معه مرة إلى ضيعة كان قد اشتراها للتوّ، فقلت له وأنا أشير إلى أشجار الحديقة:

ـ الزبائن موكِّلوك؟

ابتسم بغرور، وأجاب:

ـ أجل، يا صاحبي، إن الموهبة شيء عظيم.

كان يشرب كثيراً، ولم يكن السُّكْر يظهر عليه إلا في أن كل شيء عنده يبدأ يتحرّك بسرعة متزايدة ثم لا يلبث أن يتوقَّف في الحال، وعند ذلك

٢٩– مبلغ بالروبل الروسي القيصري كبير جداً بمقاييس تلك الأيام. ـ م.

Twitter: @ketab_n

كان يستسلـم للنوم. ولمّا كان الجميع يعدّونه موهوباً، كان يقول دائماً إنه لو لم يصبح محامياً شهيراً لكان أصبح رسّاماً شهيراً، أو كاتباً شهيراً. وللأسف، فإن هذا صحيح.

وكان لا يفهمنـي إلا في أقلّ الدرجات. فقد حـدث ذات مرة أن كنّا مهدَّديـن بفقدان كل ما نملك. وكان ذلك رهيباً بالنسبة لي. ففي أيامنا التي لا شيء يمنح الحريّةَ إلا الثروةُ، لا أعرف ماذا يكون مصيري لو أن القدر وضعني في صفـوف البروليتاريا. إنني وحتى في هذا الوقت لا أستطيـع دون غضب أن أتصـوَّر أن أحداً يتجرّأ فيضغط عليّ ويجبرني على أن أفعل ما لا أريد، ويشتري بقروشٍ جهدي، ودمي، وأعصابي، وحياتـي كلّهـا. إلا أننـي لم أعِشْ هـذا الرعب إلا دقيقـة واحدة، ثم فهمـت في الدقيقـة الثانية أن من هم مثلي لا يكونون فقراء في يوم من الأيـام. أمّا أبي فلم يكن يفهم هـذا. لقد كان بصدقٍ يَعدُّني فتى بليداً، وبخوفٍ ينظر إلى عجزي الموهوم.

ـ آهٍ، أنطون، أنطون، ماذا ستفعل؟.. ـ قال لي.

وكان هـو شخصياً قد أهمل نفسه، شعـره طويل، غير ممشّط، متهدِّل على جبينه، وكان وجهه شاحباً، فأجبت:

ـ لا تقلـق عليَّ، يا أبي. إنني، ما دمـتُ غير موهوب، سأقتل روتشيلد أو أسطو على بنك.

غضـب والدي، إذ نظـر إلى جوابي على أنه مزحـة سخيفة، وفي غير محلِّهـا. لقـد رأى وجهي، وسمـع صوتي، ورغم ذلك فقـد نظر إلى جوابي على أنه مزحة. غلطاً عُدَّ إنساناً هذا المهرِّج الكرتونيُّ التافه!

Twitter: @ketab_n

لم يكـن يعرف روحـي، وكان يُغضِبه نمط حياتـي الخارجي كلّه، لأنه لم يكـن ينسجم مع فهمه. كانت دراستـي في المدرسة الثانوية جيدة، وكان هـذا يزعجه. فعندما يزورنا ضيوف ـ محامون، وأدباء ورسّامون ـ كان يشير إلي بإصبعه ويقول: ـ أمّا ابني فهو الأوّل بين التلاميذ. بماذا أغضبت الرب؟

وكان الجميـع يضحكـون منّي، فكنـت أضحك مـن الجميع. وأكثر مـن نجاحاتـي كان يزعجه سلوكـي ولباسي. لقـد كان يتعمّد المجيء إلى غرفتـي من أجل أن يعبـث في غفلة مني بترتيب كتبي على الطاولة ويُحـدِث فيها ولو أدنى قـدْر من الفوضى. كانـت تسريحتي الأنيقة تقضي على شهيته.

ـ المدير هو من يأمرنا بتقصير شعرنا. ـ أقول له بجدية واحترام.

كان يشتـم بقوّة فيهزّ ضحك الاحتقار كل ما في داخلي، وكان هناك يومها مـا يجعلني أقسِم العـالم إلى مديرين فقـط ومديرين بالمقلوب. وكلّهم يمـدّون أيديهـم إلى رأسـي، بعضهـم ليقصّ شعـري وآخرون ليقتلعوا منه الشعر.

دفاتـري كانـت أكثر ما يزعج والـدي. فكان أحيانـاً، وهو سكران، يتفحّصها بأقصى درجات اليأس. ويسألني:

ـ هل حدث لك أن أسقطت عليها قطرة حبر ولو مرة واحدة؟

ـ نعـم، حـدث، يا أبي. فقبـل ثلاثة أيام سقطت قطـرة حبر على دفتر المثلّثات.

ـ وهل لعقتَها؟

Twitter: @ketab_n

ـ كيف لعقتها؟

ـ أعني هل لعقت قطرة الحبر؟

ـ كلا، بل عالجتها بالورق النشّاف.

فلوّح والدي بحركةٍ سكرى من يده، وغمغم وهو ينهض:

ـ كلا، إنك لستَ ابناً لي. كلا، كلا!

غير أنه كان بين دفاتري التي يكرهها واحدٌ يمكن أن يسرّه. و لم يكن فيه أي سطر أعوجٍ، أو لطخة، أو شطبة قلم. وكان مكتوباً فيه تقريباً ما يلي: "والدي سكّير، لصٌّ وجبان".

ثم يلي ذلك بعض التفاصيل التي لا أرى ضرورة لنقلها، احتراماً لذكرى والدي وللقانون أيضاً.

هنا تستعيد ذاكرتي واقعة كنت قد نسيتها، وأرى الآن أنها لن تكون عديمة الأهمية بالنسبة لكم، أيها السادة الخبراء. إنني سعيد جداً إذ تذكرتها. سعيد جداً، جداً. فكيف أمكنني أن أنساها؟

كانت تعيش في بيتنا وصيفة اسمها كاتيا، وكانت عشيقة والدي وعشيقتي في الوقت نفسه. كانت تحب أبي لأنه يعطيها المال، أمّا أنا فكانت تحبني لأنني شابٌّ لي عينان سوداوان جميلتان ولا أعطيها مالاً. وفي الليلة التي كانت جثة والدي خلالها موجودة في القاعة، توجهتُ إلى غرفة كاتيا. لم تكن بعيدة عن القاعة، وكان مسموعاً فيها بوضوح ما يتلوه الشمّاس.

أعتقد أن روح والدي الخالدة نالت كامل الرضا!

Twitter: @ketab_n

كلا، إنها حقاً واقعة لافتة، ولا أعرف كيف استطعت أن أنساها. قد يبدو لكم ذلك، أيها السادة الخبراء، وَلْدَنة، نزوة أطفال ليس لها قيمة جدية، ولكن هذا غير صحيح. لقد كانت تلك معركة، أيها السادة، والنصر الذي أحرزته فيها لم يكن رخيصاً. إذ كانت حياتي هي الرهان. فلو أنني جبنت، لو أنني استدرت راجعاً إلى الوراء، لو كنت عاجزاً عن الحب، لكنت انتحرت. ذلك كان قراري، أذكر.

وما قمت به لم يكن هيّناً على فتى بعمري. وأنا أعرف الآن أنني كنت أحارب طاحون هواء، غير أن المسألة كلها كانت تبدو لي يومها على نحو مختلف. لقد بات صعباً عليّ الآن أن أستعيد في ذاكرتي ما عشته، غير أن شعوري، كما أذكر، كان وكأنني بتصرف واحد أخالف القوانين كلها، الإلهية والبشرية. وقد جبنت جبناً فظيعاً حدَّ الضحك، ولكني مع ذلك تمالكت نفسي، وحين دخلت على كاتيا كنت مستعداً للقبلات مثل روميو.

أجل، لقد كنت ما أزال، على ما يبدو، رومانتيكياً. يا لتلك الأيام السعيدة، ما أبعدها! أذكر، أيها السادة الخبراء، أنني وأنا راجع من عند كاتيا توقفت أمام الجثة، فعقدت يديّ على صدري مثل نابليون، ونظرت إليها باعتزازٍ كوميدي. وإذا بي أرتعد في الحال خوفاً من غطائها الذي تحرّك. يا للأيام السعيدة، البعيدة!

أخاف أن أفكّر، ولكن يبدو أنني لم أتوقف في يوم من الأيام عن أن أكون رومانتيكياً. وكنت على وشْك أن أصبح مثالياً. لقد كنت مؤمناً بالفكر البشري وبقدرته اللامحدودة. كنت أتصور تاريخ البشرية كلّه مساراً واحداً للفكر الظافر، واستمر هذا الإيمان عندي حتى وقت قريب. وإنه لمرعب لي الآن أن أفكر بأن حياتي كلها كانت خدعة،

Twitter: @ketab_n

وأننـي كنت طول حياتي مجنوناً مثل ذلك الممثـل المجنون الذي رأيته قبل أيام في حجرتي بالمستشفى. كان يجمع الأوراق الزرقاء والحمراء مـن كل مكان ويسمّـي كل ورقة منها مليوناً، ويتوسّـل إلى الزوّار أن يعطـوه تلك الأوراق، ويسرقها من المرحاض. وكان الحرّاس يتّخذونه مادة للمزاح بفظاظة، أمّا هو فكان يكنّ لهم احتقاراً عميقاً من القلب. وقد نلت إعجابَه فأعطاني عند الوداع مليوناً.

- هـذا مليـون صغير، - قال، - ولكن اعذرني، فـإن نفقاتي الآن كبيرة، كبيرة.

ثم انتحى بي جانباً، وأوضح لي بهمس:

- إننـي أفكـر الآن بالسفـر إلى إيطاليـا. أريد أن أطرد البابـا، وأفرض هنـاك تداول عملة جديدة هي هذه. ثم إني يوم الأحد سأطوِّب نفسي قدّيساً. الإيطاليون سيكونون فرحين. فهم دائماً يفرحون كثيراً عندما يؤتَى لهم بقدِّيس جديد.

أليس هذا هو المليون الذي عشتُ معه؟

إنه ليرعبني أن أفكر بـأن كتبي، وهي رفاقي وأصدقائي، ما تزال على حالها، مصفوفة في خزائن تحتفظ صامتة بما كنت أَعدُّه حكمة الأرض وأملها وسعادتها. أعرف، أيها السادة الخبراء، سواء أكنت مجنوناً أم لا، أنني من وجهة نظركم نذلٌ، ولكنْ ليتكم تنظرون إلى هذا النذل عندما يدخل إلى مكتبته؟!

اذهبوا، أيها السادة الخبراء، والقوا نظرة على شقّتي، فإن ذلك سيكون مشوِّقـاً لكم. ستجدون في الدرْج اليسـاري الأعلى من طاولة عملي

Twitter: @ketab_n

قائمة تفصيلية بأسماء الكتب واللوحات وقطع الزينة، وهناك أيضاً ستجدون مفاتيح الخزائن. أنتم أنفسكم أهلُ عِلْم، وأنا واثق من أنكم سوف تتعاملون مع أشيائي بما يلزم من الاحترام والدقة. وأرجوكم أيضاً أن تكونوا حريصين على ألا تسوَدّ مصابيحي بالدُّخان. ما من شيء أفظع من هذا السخام الأسود، إنه يتسرب إلى كل مكان، ثم يكلِّف التخلّصُ منه جهداً كبيراً.

على مِزْقةِ ورقة

الآن رفض الممرض بيتروف إعطائي جُرعةً من الكلوراميد بالقدْر الذي أطلبه أنا. فأنا طبيب قبل كل شيء وأعرف ما أفعل، ثم إني، إذا ما رُفِض طلبي، سوف أتّخذ تدابيرَ صارمة. لقد أمضيت ليلتي لا أنام، ولست راغباً على الإطلاق بأن أفقد عقلي. إنني أطالب بإعطائي الكلوراميد. إنني أطالب بذلك. وإنه لانعدامُ شرفٍ تجنينُ الناس.

الورقة الخامسة

بعد نوبة الجنون الثانية بدأوا يخافون منِي. ففي كثير من البيوت كانت الأبواب تُصفَق في وجهي بسرعة. وكان معارفي، عندما ألتقيهم مصادفة، ينكمشون كالقنافذ، ويبتسمون بلؤم ويطرحون عليّ أسئلة متعددة الدلالات:

ـ كيف الصحة، يا حبّوب؟

كنت أجد نفسي وجهاً لوجه أمام وضعٍ أستطيع فيه ارتكاب أي

Twitter: @ketab_n

عمل منافٍ للقانون من غير أن أفقد احترام المحيطين بي. فكنت أنظر إلى الناس وأفكر: إنني إذا ما أردت أستطيع أن اقتل هذا وذاك، ولن يطالنـي أيُّ عِقاب جزاء ذلك. على أن ما كنت أعانيه، وأنا أفكِّر بهذه الطريقـة، كان جديداً، وطيِّباً، ومرعباً قليلاً. لقد كفَّ الإنسان عن أن يكون ذلك الشيء المحصَّن جيداً، والذي يُخشى من المساس به. كأن قشراً ما سقط عنه، كأنه عارياً كان، وخُيِّل لي أن قتْله هيِّن ومُغْرٍ.

كان الخـوف منِّـي يحيط بي مثل جـدار متين يحميني مـن النظرات المعذِّبة، فاختفت من تلقاء نفسها حاجتي إلى نوبة تمهيدية ثالثة. وبهذا المعنـى فقط تراجعتُ عن خطَّتي الأوّلية، غير أن قوّة الموهبة إنما تكمن في كونهـا لا تقيِّـد نفسها بأطُر، وفي أنها وَفقـاً للظروف المتغيِّرة تغيِّر حتـى سير المعركة كلِّـه. إلا أنه كان لا بدَّ بعدُ من الحصول على غفران رسميّ لذنوبي الماضية، وعلى السماح بذنوبي القادمة: كان لا بد من شهادة علمية طبية تثبت مرضي.

وعندها انتظرت إلى أن تقاطعت جملة ظروف أمكن في ظلها أن يبدو ذهابـي إلى طبيب نفسي مصادفة أو حتى شيئـاً اضطرارياً. وربّما كان ذلـك تفصيلاً زائداً في صقـل دوري. على أن مَن أرسلني إلى الطبيب النفسي هما تتيانا نيكولايفنا وزوجها.

ـ مـن فضلِك اذهب إلى الطبيب، يا عزيزي أنطون إغناتيفِتش، ـ قالت تتيانا نيكولايفنا.

لم يسبـق لهـا أن وصفتني بـ "العزيز" في يوم مـن الأيام، وكان لا بد لي مـن أن يذيع صيتي بأننـي "مجنون" من أجل أن أحظى بهذا التدليل السخيف.

Twitter: @ketab_n

ـ حسناً، يا عزيزتي تتيانا نيكولايفنا، سوف أذهب، ـ أجبتها طائعاً.

نحن الثلاثة، إذ كان أليكسي حاضراً أيضاً، كنا جالسين في المكتب الذي ارتُكبت فيه عملية القتل فيما بعد.

ـ أجل، يا أنطون، اذهبْ حتماً. ـ أكّد أليكسي آليّاً. ـ وإلا ارتكبت شيئاً ما.

ـ وما الشيء الذي أستطيع "ارتكابه" ؟ ـ تساءلت مرتبكاً أمام صديقي الصارم.

ـ تستطيع الكثير. فقد تكسر رأس أحد.

كنت أقلِّب بين يديَّ ثقّالة[٣٠] ورق حديدية، وأنظر تارة إليها، وتارة إلى أليكسي، وسألته:

ـ رأس؟ أنت تقول رأس؟

ـ أجل، رأس. أن تُمسِك بقطعة، كهذه التي في يديك، وينتهي الأمر.

أخذ الحديث يصبح مشوِّقاً. فقد كنت أنوي أن أحطِّم هذا الرأس بالضبط ، وبهذه القطعة، وإذا بهذا الرأس نفسه يشرح لي الآن كيف سيكون ذلك. كان يشرح ويضحك غير مبال. فهناك من الناس مَن يؤمن بالتنبّؤ عن طريق الشعور بأن الموت يبعث قبله رسلَه غير المرئيين، يا له من هُراء!

ـ ولكنْ هيهات أن يكون بالإمكان فعلُ شيء بهذا الشيء ـ قلت. ـ إنه خفيف جداً.

٣٠- قطعة من المعدن أو المرمر أو الزجاج ثقيلة مسطّحة ولها مقبض، كانت تستعمل لحفظ الورق من التبعثر والتطاير تسمى ثقّالة الورق(presse-papiers).

Twitter: @ketab_n

ـ أتقول إنه خفيف؟ ـ تذمَّر أليكسي، فانتزع الثقّالة من يديّ، وأخذها من مقبضها الرفيع ولوَّح بها عدّة مرّات. ـ جرِّبْها!

ـ ولكنّي أعرف...

ـ كلا، بل خذْها بهذه الطريقة لترى.

أخـذت القطعـة الثقيلة مُكرَهـاً وأنا أبتسـم، وإذا بتتيانـا نيكولايفنا تتدخَّل. قالت، بالأحرى صرخت شاحبةً، مرتعشة الشفتين:

ـ أليكسي، ضعها! ضعها، يا أليكسي!

ـ ما لكِ، يا تانيا؟ ماذا أصابك؟ ـ قال متعجِّباً.

ـ ضعها! أنت تعرف لِماذا أنا لا أحبُّ هذه الأشياء.

انفجرنا بالضحك، ووضعنا الثقّالة على الطاولة.

عنـد البروفيسور "ت" جرى كل شيء علـى النحو الذي توقَّعته. لقد كان شديـد الحذر، معتدلاً في الكلام، ولكنـه جدّي. فقد سألني عمّا إذا كان عندي أقرباء أستطيع أن أطلب إليهم رعايتي، ونصحني بالتزام البيـت، وبالراحة والهـدوء. واعتماداً على كوني طبيبـاً خالفته الرأي قليلاً. إذ لئن كان ما يزال باقياً عنده بعض شكوك فإنه لم يلبث، عندما تجـرّأت على معارضتـه، أن عدَّني مجنونـاً بيقين لا رجعة فيـه. طبعاً، أيهـا السادة الخبراء، إنكم لـن تولوا هذه المزحة البريئـة مع واحد من زملائنا اهتماماً جدّيّاً، لأنه ما من شكٍّ في أن البروفيسور "ت" جدير بالاحترام والتقدير.

كانـت الأيام القليلـة التي أعقبت ذلـك من أسعد أيـام حياتي. كانوا

Twitter: @ketab_n

يعطفون عليَّ كمريضٍ معترف به، وكانوا يزوروننى، ويتحدّثون معي بلغـة مكسَّرة، سخيفة، و لم يكن أحد غـيري يعرف أني أكثر عافية من كل مـن سواي، وأتمتّع بما يقوم به ذهني مـن عملٍ جبّارٍ شديد الجلاء. إن الذهـن البشري أكثرُ الأشياء العجيبة والعصيَّة على الفهم بين كل ما تزخر به الحياة من أشياء عجيبة وعصيَّة على الفهم. ففيه الألوهيّة، وفيه عربون الخلود والقوّة الجبّارة التي لا تعرف العقبات. والناس يصعقهم الإعجـاب والذهول عندما ينظرون إلى ذُرى الجبـال العظيمة المكللة بالثلوج، ولو كانوا يعرفـون أنفسَهم لكانوا صعقوا بمقدرتهم الذهنية علـى التفكير أكثر ممّا بالجبـال، وأكثر ممّا بكل ما في العالم من عجائب وبدائع. إن فكرة بسيطة لعاملٍ مياوم حول أنسب طريقة لوضع قطعة قرميد فوق أخرى لَهيَ أعظمُ معجزةٍ وأعمقُ سرٍّ.

وكنـت أتلذّذ بفكرتي. ذلك أن فكرتي البريئة في جمالها استسلمت لي بكل ولعها، مثـلَ عشيقة، وخدمتني مثل أَمَة، وساندتني مثل صديق. لا تظنّـوا أني طولَ هذه الأيام التي أمضيتُها في البيت بين أربعة جدران لم أكـن أفكِر إلا بخطّتي. كلا، فقد كان كل شيء هناك واضحاً، وكل شـيء كان مدروسـاً. لقد فكّرت بكل شيء. كأننـا، أنا وفكرتي، كنّا نلعـب مع الحياة والموت ونحلّق عاليـاً فعالياً فوق تلك الجدران. وقد توصَّلت في تلك الأيـام إلى إيجاد حلّ لمسألتين في الشطرنج مشوّقتين للغايـة كنت أفكّر فيهما منـذ زمن طويل، ولكـن دون جدوى. أنتم تعرفـون، طبعـاً، أنني شاركت قبـل ثلاث سنـوات في مسابقة عالمية للشطـرنج، وفزت فيها بالمرتبة الثانية بعد لاسْكِر[٣١]. ولو لم أكن عدوّاً

٣١- إمانويل لاسكر (١٨٦٨ - ١٩٤١)، ألماني، بطل العالم في الشطرنج (١٨٩٤ - ١٩٢١).- م.

Twitter: @ketab_n

لـكل أنواع الشهرة وواصلت المشاركة في المسابقات لاضطرّ لاسْكِر أن يتخلّى عن المرتبة التي يتربّع عليها طويلاً.

ومنـذ تلك الدقيقة التي كانت فيها حياة أليكسي قد وُضِعت بين يدَيَّ شعرتُ تجاهه بميل خاص. كان يطيب لي التفكير بأنه يعيش، ويشرب، ويأكل، ويفرح، وكل ذلك لأنني أسمح له بذلك. شعور شبيه بشعور الأب تجاه ابنه. وما كان يقلقني هو صحّته. فرغم هزاله كلّه كان عديم الحـذر بطريقة لا تغتفر: فهو يرفض لبسـ ثياب دافئة، وفي أشدِّ الأيام خطورة ورطوبة يخرج دون واقيـات أحذية. ولكنّ تتيانا نيكولايفنا طمأنتني. إذ إنها عرَّجت علـيَّ لتزورني فأخبرتني بأن أليكسي معافى تمامـاً، بل وهو ينام نوماً جيِّداً، وهذا نادراً ما يقع له. وفرحتُ فطلبت إلى تتيانـا نيكولايفنا أن توصل منّي إلى أليكسي كتاباً هو نسخة نادرة وقعـت بين يديَّ مصادفة وهو معجب بها منذ مدّة طويلة. ربّما كانت هذه الهدية، من وجهة نظري، غلطة. إذ في الإمكان أن يُنظَر إليها على أنها تضليل مقصود، غير أني كنت شديد الشوق لأن أقدِّم لأليكسي ما يسرُّه، فقررت أن أجازف قليلاً. وقد استهنت حتى بكون هديّتي، من منظور المستوى الفنِّيِّ لتمثيلي، شيئاً كاريكاتوريّاً.

في هـذه المرة كنت لطيفـاً جداً وبسيطاً مع تتيانـا نيكولايفنا فخلَّفتُ لديهـا انطباعـاً جيّـداً. إذ لم تشهد لا هـي ولا أليكسـي أيَّ نوبة من نوباتـي، ويبـدو أنه كان صعبـاً عليهما، بل ومستحيـلاً أن يتصوّراني مجنوناً.

ـ عرِّجْ علينا، ـ طلبتْ إليّ تتيانا نيكولايفنا وقت الوداع.

ـ ممنوع، ـ قلت مبتسماً. ـ الطبيب لم يسمح لي.

Twitter: @ketab_n

- لا تفكّر بهذه الترّهات. مسموح أن تزورنا نحن، فأنت عندنا كأنك في بيتك. وأليوشا ضجرٌ بدونك.

أعطيتها وعداً، وما من وعد آخر تمكنت من إعطائه بهذه الثقة في تنفيذه. ألا يخيَّل لكم، أيّها السادة الخبراء، عندما تعرفون كل هذه المصادفات السعيدة، ألا يخيَّل لكم أنني لم أكن وحدي مَن حكم على أليكسي بالموت، بل كان ثمة شخص آخر أيضاً؟ لكنْ في الحقيقة ليس هناك أيّ «شخص»، وكل شيء بسيطٌ ومنطقيّ جدّاً.

كانت الثقّالة الحديدية في مكانها حين دخلت إلىٰ غرفة عمل أليكسي يوم الحادي عشر من ديسمبر في الساعة الخامسة مساء. هذا الوقت قبل الغداء - فهما يتناولان الغداء في الساعة السابعة - يُمضيه أليكسي وتتيانا نيكولايفنا في قيلولة. وقد سُرّا كثيراً لقدومي.

- شكراً على الكتاب، يا صديقي، - قال أليكسي وهو يهزّ يدي. - فأنا شخصياً كنت عازماً على زيارتك، ولكنّ تانيا قالت لي إنك شَفيت تماماً. نحن اليوم ذاهبان إلى المسرح، هل تذهب معنا؟

انعقد الحديث. وفي ذلك اليوم قررت ألا أتصنّع إطلاقاً. غير أنه كان ثمّة في غياب التصنّع تصنّع رقيق، إذ لمّا كنت متأثّراً بما عشته من انتعاش فكري فإنني تكلّمت كلاماً كثيراً ومشوّقاً. ليت المعجبين بموهبة سافيلوف يعرفون أن كثيراً من أفضل أفكار "ه" إنما انبثق لديه بعد أن اختمر في رأس الدكتور كيرجِنتسِف الذي لا يعرفه أحد!

كنت أتكلم بوضوح ودقّة وأنا أصقل الجُمَل، وكنت في الوقت نفسه أنظر إلى عقرب الساعة وأفكر بأنه عندما يصل إلى السادسة سأصبح قاتلاً. وقلتُ شيئاً مضحكاً فضحكا، وحاولت أن أحفظ في ذاكرتي

Twitter: @ketab_n

شعور من ليس قاتلاً بعدُ، ولكنه على وشْك أن يصبح قاتلاً. وغدوت، ليس في تصوُّرٍ مجرّد وإنما بكل بساطة، أفهم مسار الحياة في أليكسي، نبْض قلبه، جريان الدم في صدغيه، وخلجات دماغه الهادئة، وكيف سينقطع هذا المسار، ويتوقّف قلبه عن ضخّ الدم، ويجمد الدماغ.

ما هي الفكرة التي سيجمد عندها؟

لم يبلغ صفاءُ وعيي في يوم من الأيام هذا العلوّ والقوّة، ولم يكن إحساسي كاملاً في يوم من الأيام إلى هذا الحدّ بالـ "أنا" المتعدد الوجوه الذي يعمل باتّساق. كنتُ مثلَ إلهٍ أرى وأنا لا أنظر، أسمع وأنا لا أستمع، أعي وأنا لا أفكِر.

كان باقياً سبع دقائق عندما نهض أليكسي بكسل عن الديوان، ثم تمطّى وخرج.

- سأعود الآن، - قال وهو يخرج.

لم أكن راغباً بالنظر إلى تتيانا نيكولايفنا، فمضيت نحو النافذة وفتحت الستارة ووقفت. ومن غير أن أنظر شعرتُ كيف عبرت تتيانا نيكولايفنا الغرفة على عَجَلٍ ووقفت بالقرب منّي. كنت أسمع أنفاسها، وأعرف أنها لا تنظر إلى النافذة بل إليّ، وبقيت صامتاً.

- ما أروع بريق الثلج. - قالت تتيانا نيكولايفنا، ولكنّي لم أردّ عليها. وتزايدت أنفاسها ثم خمدت.

- أنطون إغناتيفِتش! - قالت وتوقّفت.

ظللت صامتاً.

Twitter: @ketab_n

ـ أنطـون إغناتيفِتشـ! ـ كررت بالارتباك ذاته مـرة أخرى، وعندها التفتُّ إليها.

فارتــدّت بسرعة وأوشكــت أن تسقط ، وكأنها مدفوعــة بتلك القوّة الرهيبــة التي كانت في نظرتي. تراجعت واندفعت نحو زوجها الذي دخل.

ـ أليكسي! ـ تمتمت. ـ أليكسي... إنه...

ـ وماذا، إنه ؟

قلت دون أن أبتسم، ولكنْ بصوت يؤكِّد المزحة :

ـ هي تظنّ أنني سأقتلك بهذه القطعة.

وبكل هــدوء، ومن غيرما تستّرٍ تناولت الثقّالــة ودنوت من أليكسي. كان ينظر إليّ بعينيه الكابيتين لاَ يرفّ له جفن، وكرر :

ـ هي تظنّ...

ـ أجل، هي تظن.

وببطء وانسياب رحت أرفع يدي، وراح أليكسي ببطء أيضاً يرفع يده وهو لا يحيد بناظريه عني.– انتظرْ! ـ قلت له بحزم.

توقفــت يد أليكسي، وفيما استمــرَّ لا يحيد بناظريه عني افترّت شفتاه وحدهمــا عن بسمة كابية. وأطلقت تتيانــا نيكولايفنا صرخة رعب، غــير أن الوقــت كان قد فات. لقــد ضربتُه بطرف القطعــة الحاد على صدغه، أقرب إلى اليافوخ ممّا إلى العين. وحين سقط انحنيت وهويت عليــه بضربتين أخريين. لقد قــال لي المحقق إنني انهلت عليه بكثير من

Twitter: @ketab_n

الضربـات، لأن رأسه كان محطّماً كلّه. ولكنّ هذا غير صحيح. إنني لم أضربه إلا ثلاث ضربات لا غير: مرة وهو واقف، ثم مرتين بعد ذلك، وهو على الأرض.

حقّـاً، لقد كانت الضربات قوية جداً، ولكنها كانت ثلاثاً لا غير. هذا أذكره جيداً. ثلاث ضربات.—

الورقة السادسة

لا تحاولـوا أن تتبيَّنـوا مـا هـو مشطوب في آخـر الورقة الرابعة، وعموماً لا تُسبغوا قيمة زائدة على تشطيباتي وتعدّوها دلائلَ موهومة علـى ذهنٍ مضطـرب. إن الوضـع الغريب الذي وجـدت نفسي فيه يفرضـ عليَّ أن أكون شديد الحذر، وهـو ما لا أُنكره، وأنتم تفهمونه فهماً رائعاً.

إن ظلام الليل يؤثِّر دائماً على الجهاز العصبي المرهَق، ولهذا فإن الأفكار الرهيبـة كثيراً ما تأتي في الليل. أمّا في تلك الليلـة الأولى التي أعقبت القتل فقـد كانت أعصابي، بالطبع، متوتِّرة أيّمـا توتُّر. ومهما تمالكت نفســي فإن قتل إنسان ليـس مزحة. فبينما أنا أتنـاول الشاي، بعد أن كنت قد رتّبت نفسي، فنظّفت أظفاري، وبدّلت ثيابي، دعوت ماريّا فاسيليفنا للجلوس معي. إنها مدبِّرة البيت وزوجتي إلى حدٍّ ما. يخيّل لي أن عندهـا عشيقاً في الخفاء، وقد تصالحـتُ ببساطة مع هذا العيب الصغير الذي يكاد يكون حتمياً في حالة من يحصل على الحب مقابل المال. وإذا بهذه المرأة الغبية أوّل من وجّه إليّ ضربة.

Twitter: @ketab_n

- قبِّليني، - قلت لها.

لكنّها ابتسمتْ ببلاهة وتجمَّدت في مكانها.

- هيّا!

فارتجفتْ، واحمرّت، وتصنّعت الذعر في عينيها، وشبّت نحوي عبر الطاولة متوسِّلة وهي تقول:

- أنطون إغناتيفِتش، يا روحي، اذهب إلى الطبيب!

- وماذا أيضاً؟ - قلت بغضب.

- آه، لا تصرخ، فأنا خائفة! لِماذا أخافُك، يا روحي، يا ملاكي!

على أنها لم تكن تعرف أيّ شيء عن نوباتي، ولا عن القتل، وكنت لطيفاً معها دائماً ومتّزناً. "إذاً، فقد كان فيّ شيء ليس موجوداً عند الناس الآخرين، وهو مخيف". - ومضت هذه الفكرة في ذهني ثم اختفت في الحال مخلّفة إحساساً غريباً بالبرد في رجليَّ وظهري. وهنا أدركت أن ماريّا فاسيليِفنا غرفت شيئاً ما خفية، من الخدم، أو أنها وقعت على ثوبي الملطّخ الذي رميتُه، وهذا ما كان يفسِّر رعبها تفسيراً طبيعياً تماماً.

- انصرفي، - أمرتها.

ثم استلقيت على الديوان في مكتبتي. لم أكن راغباً بالقراءة، وكنت أشعر بالتعب في جسمي كله، وكانت حالتي على العموم مثل حالة ممثل بعد أداء دورٍ مثّله بإتقانٍ باهر. كنت أشعر بلذّة النظر إلى الكتب، وبلذّة التفكير بأني سأقرؤها ذات يوم فيما بعد. وكانت تعجبني شقّتي

Twitter: @ketab_n

كلّهـا، والديـوان، وماريّا فاسيليفنا. كذلك كانـت تومض في رأسي شذراتٌ من ذلك الدور، وتتردَّد في سريرتي تلك الحركات التي كنت أقـوم بهـا، وفي لحظات نادرة كانـت أفكار ناقدة تتسلـل بكسل إلى ذهنـي: هنا كان في الإمـكان أن أقول أو أن أفعلِ شيئاً أفضل. ولكنني كنـت راضياً عن ارتجالي كلمـة «انتظر!». حقّـاً كان التجربة نموذجاً نـادراً، وهـي بالنسبة إلى مـن لم يعشها بنفسه نموذجٌ لقـوّة الإيحاء لا تصدَّق.

- "انتظر!" - كررت، ثم أغمضت عينيَّ، وابتسمت.

وبـدأتُ أشعر بثقلٍ في جفوني، وأردت أن أنام عندما دخلت رأسي فكـرةٌ بكسل وسهولة، مثل غيرها، وسيطرت على كلِّ ما يتّصف به ذهني من الصفـاء، والدقة والبساطة. دخلتْ بكسل وتوقّفت. وها هي الفكرة حرْفياً بصيغة الغائب، كما كانت لسبب لا أعرفه:

« وهنـاك احتمال كبير أن يكون الدكتـور كيرجنتسِف مجنوناً حقاً. لقـد كان يظـن أنه يتصنّع، بينمـا هو مجنون حقّـاً. والآن هو مجنون أيضاً».

تكـررت هذه الفكـرة ثلاثَ مـرّات أو أربعاً، وكنت مـا أزال بعدُ أبتسم، لا أفهم:

«كان يظن أنه يتصنّع، بينما هو مجنون حقّاً. والآن هو مجنون أيضاً!».

ولكنْ عندما فهمتُ... ظننت أوّل الأمر أن من قال هذه الجملة هو ماريّـا فاسيلِيفنـا، لأنه كأنما كان هناك صوت، وهـذا الصوت كأنما كان صوتها. ثم فهمتُ أن هذا ما ظننته أنا، - وكان ذلك مرعباً. فقد

Twitter: @ketab_n

قبضت على شعري، وأنا واقف لسبب ما في وسط الغرفة، وقلت:

ـ هكـذا. لقد انتهـى كل شيء. ووقع ما كنت أخشـاه. إنني دنوت كثيراً من الهاوية، و لم يبقَ الآن أمامي إلا شيء واحد هو الجنون.

حين جـاؤوا لاعتقالي، تبيّن لهم، حسب كلامهـم، أن هيئتي مرعبة، فقـد كنت أشعث الشعر، ممـزّق الثياب، شاحباً ورهيبـاً. ولكنْ، أيها السـادة! إذا عاش المرء هذه الليلة من دون أن يفقد عقله ألا يعني ذلك أنـه يملـك دماغاً لا يمكـن تحطيمُه؟ علـى أنني اكتفيـت بتمزيق ثوبي وكسـرتُ المـرآة. فاسمحوا لي، بهـذه المناسبة، أن أقـدّم لكم نصيحة واحدة. فإذا ما قدّر لأحد منكم في يوم من الأيام أن يعيش ما عشته أنا في تلـك الليلة فليعلّق مرآة في الغرفة التي سوف يتخبّط فيها. وليعلّقْها بالطريقة التي تُعلَّق بها حين يكون في البيت ميتٌ. علِّقوها!

إنـه لشيء رهيـب بالنسبة لي أن أكتب عن هـذا. فأنا أخاف ممّا يجب عليَّ أن أتذكّره وأكتبه. غير أنه لا يجوز الاستمرار في التأجيل، فقد لا أجني من أنصاف الكلمات إلا مزيداً من الرعب.

هذا المساء.

تصـوّروا أفعى سَكرى، نعم، نعـم، أفعى سكـرى بالضبط ، ولكنها تحتفـظ بقدرتها على الأذى، وقـد تعاظمت مرونتهـا وسرعتها، وما زالت أنيابها حادّة وسامّـة كما كانت. إنها سكرى، وفي غرفة مغلقة فيها كثـير من الناس يرتعدون من الخوف. إنهـا مهتاجة ببرود، تنزلق بينهـم، تلتفّ على أرجلهم، تلدغهـم في الوجه وفي الشفاه، وتتكوّر علـى نفسها، وتغرس أنيابها في جسمها. ويخيَّل أنها ليست وحدها، بـل هنـاك آلاف من الأفاعي تتلـوّى، وتلدغ، وتـأكل نفسها. هكذا

Twitter: @ketab_n

كانت فكرتـي، تلك الفكرة ذاتها التي كنت مؤمنـاً بها، والتي كنت أرى في حدّة وسُمّيِة أنيابها خلاصي وأماني.

فكـرةٌ واحـدة انشطـرت إلى آلاف الأفكار، كل واحـدة منها قوية، وكلّهـا متعاديـة. كانـت تلك الأفكار تـدور حول نفسهـا في رقص وحشي، وكانت موسيقاهـا صوتَ عويل أسطوري متلاطم كصوت بـوق، وكان قادمـاً من أعمـاق لا أعرفها. تلك كانـت فكرة هاربة، وهـي الأرهب بين الأفاعي لأنها كانت مختبئة في الظلام. لقد غادرت رأسي الـذي كنت أحتفظ بها فيـه، غادرته إلى جسـدي، إلى أعماقه السوداء المجهولـة. ومن هناك كانت تصرخ كغريـب، كعبدٍ هارب، وقح وجريء بسبب إدراكه أنه في أمان.

« كنـتَ تظنّ أنـك تتصنّع، ولكنـك كنتَ مجنوناً. أنـت صغير، أنت شرّير، أنت غبـيّ، أنت الدكتور كيرجنتسِف، دكتور كيرجنتسِف ما، الدكتور المجنون كيرجنتسِف!.. »

كانت تصـرخ بقوّة، ولم أكن أعرف من أين يصـدر صوتها الوحشي الغريب. بـل ولا أعرف من كان هذا. إننـي أسمّي هذا فكرة، ولكنّ هـذا قـد لا يكون فكرة. فالأفـكار هي تلك التي كانـت تدور حول نفسها في رأسي مثل يمام فوق حريق، أمّا هي فكانت تصرخ من مكان ما، من تحت، من فوق، من الجوانب، من حيث لم يكن في استطاعتي أن أراها، ولا أن أقبض عليها.

والشـيء الأشد رعباً هو ما كابدتُه، ذلك الوعي بأنني لا أعرف نفسي ولم أكـن أعرفها في يوم من الأيـام. وطالما كانت "أنا"يَ موجودة في رأسـي الذي يضيئه نور ساطع، حيث كل شيء يتحرّك ويعيش بطريقة

Twitter: @ketab_n

مشروعة، كنت أفهم نفسي وأعرفها، وكنت أتفكّر بطبعي وخططي، وكنت ـ كما ظننت ـ سيّداً. أمّا الآن فقد رأيت أنني لست سيّداً، وإنّما أنا عبدٌ تافه وعاجز. تصوَّر أنك كنت تعيش في بيت يتألّف من غرفٌ كثيرة، وكنت تشغل غرفة واحدة وتظنّ أنك تملك البيت كلّه. وفجأة تعرف أن هناك من يعيشون في الغرف الأخرى. نعم، يعيشون. تعيش كائنات غامضة، قد تكون بشراً، وقد تكون شيئاً آخر، وأن البيت ملْكها. وأنت تريد أن تعرف من هي، إلا أن الباب مغلق، وليس مسموعاً خلفه صوتٌ واحد أو شيء. وفي الوقت نفسه أنت تعرف أن مصيرك يتقرّر هناك بالضبط. وراء الباب الصامت.

دنوتَ من المرآة... فلتعلّقوا مرآة. علّقوها!

بعد ذلك لم أعد أذكر أيّ شيء إلى أن جاءت السلطة القضائية والشرطة. سألتهم كم الساعة، فقالوا: التاسعة. وظللت وقتاً طويلاً لا أستطيع أن أفهم أنه لم يمضِ على عودتي إلى البيت إلا ساعتان، وعلى قتل أليكسي حوالي ثلاث ساعات.

معذرةً، ايها السادة الخبراء، لأنني وصفت لحظة بالغة الأهمية بالنسبة للطب الشرعي كهذه الحالة الرهيبة بعد ارتكاب الجريمة، بتعابيرَ عامّة وغيرِ محددة إلى هذه الدرجة. ولكنّ هذا كل ما أذكره وما أستطيع أنْ أعبِّر عنه بلغة بشرية. فأنا لا أستطيع، مثلاً، أن أعبِّر بلغة بشرية عن ذلك الرعب الذي كنت أكابده حينها طول الوقت. وعلاوة على ذلك، فأنا لا أستطيع أن أقول بثقة أكيدة أن كل ما دوّنته بهذا القدْر من الضعف قد وقع حقيقة. لعلّ ذلك لم يقع، وإنّما وقع شيء آخر، ثمّة شيء واحد فقط رسخ في ذاكرتي ـ إنه فكرة، أو صوت، أو شيء آخر:

Twitter: @ketab_n

«كان الدكتور كيرجِنتسِف يظن أنه يتصنّع الجنون، ولكنّه مجنون حقّاً».

لقد قستُ نبضي الآن، إنه ١٨٠ ! وهو هكذا الآن، بمجرّد التذكُّر فقط !

الورقة السابعة

لقد كتبت في المرة الماضية كثيراً من الهراء السخيف وغير الضروري، وللأسف، فإنكم استلمتموه الآن وقرأتموه. وإني لأخشى أن يعطيكم تصوّراً كاذباً عن شخصيّتي، وعن الحالة الحقيقية لقدراتي العقلية أيضاً. على أنني أثق بمعارفكم وبعقلكم النيِّر، أيها السادة الخبراء.

أنتم تدركون أن الأسباب الجدّيّة هي وحدها التي كان في مقدورها أن تجبرني، أنا الدكتور كيرجِنتسِف، على الكشف عن الحقيقة كلّها بخصوص قتل سافيلوف. وببساطة سوف تفهمونها وتقدِّرونها عندما أقول إني لا أعرف حتى الآن إن كنت أتصنّع أنني مجنون أم لا من أجل أن أتفادى العقاب على القتل، أم أنا قتلت لأنني كنت مجنوناً؛ وإني لمحروم وربما إلى الأبد من القدرة على معرفة ذلك. لقد زال كابوس ذلك المساء، غير أنه خلّف أثراً من نار. ليس هناك خوفٌ سخيف، بل هناك رعب الإنسان الذي فقد كل شيء، هناك الوعي البارد بالسقوط، بالهلاك، بالخداع، بالاستعصاء.

إنكم، أيها العلماء، سوف تختلفون بشأني. سيقول أحدكم إني مجنون، فيما يمضي آخرون يبرهنون على أني سليم العقل، ولن يوافقوا إلا على

Twitter: @ketab_n

بعض من تحفّظات مـن يقولون بانحطاطي العقلي. ولكنكم، بكل ما أنتم عليه من علم، لن تبرهنوا على أني مجنون، ولا على أنّي سليم العقل، بالجـلاء الـذي أفعل أنا به ذلك. لقد عادت فكرتـي إليّ، وكما سوف تقتنعـون، لا يجوز أن تنكروا ما فيها من قوة وذكاء. إنها فكرة رائعة، مفعمة بالطاقة، إذ ينبغي أن نعترف حتى للأعداء بحقِّهم!

أنا مجنون. وأنتم ألا يطيب لكم أن تسمعوا حتى النهاية: لماذا؟

إن أوّل مـا يدينني هو الوراثـة، وبالضبط تلك الوراثة التي فرحت لها فرحاً شديداً وأنا أضع خطّتي. النوبات التي أُصبت بها في طفولتي... عـذراً، أيهـا السادة. لقـد كنت أريـد أن أُخفي عنكم هـذه المعلومة الصغـيرة حول النوبات فكتبت أني كنت قويّ البنية منذ الطفولة. هذا لا يعني أني كنت أرى أيّ نوع من الخطر عليّ في تعرضي فعلياً لنوبات سخيفة كانت تنتهي سريعاً. فقط لم أشأ أن أُثقل القصة بتفاصيل عديمة الأهميـة. وقد احتجت الآن إلى هذا التفصيل مـن أجل البناء المنطقي الصارم، وإني، كما ترون، أتعثّر في نقله إليكم.

وهكـذا تشهد الوراثة والنوبات على قابليتـي للإصابة بمرض نفسي. وقـد بدأ هـذا المرض، مـن حيـث لا أدري شخصياً، قبـل وقت من قيامـي بوضع مخطط القتل. غـير أن كوني مثل جميـع المجانين، أتمتّع بدهـاءٍ لاواعٍ وبمقدرة على التوفيق بين أفعالي الجنونية ومعايير التفكير السليم، جعلَنـي أخدع نفسي وليس الآخرين، كمـا كنت أظن. ولمّا كنـت مأخوذاً بقوة غريبة عني فإني كنـت أتقصّد أن أبدو وكأني أسير من تلقاء نفسي. أمّا باقي البرهان فيمكن التكيف بتشكيله كما بعجينة من الشمع. ولكنْ هل هذا صحيح؟

Twitter: @ketab_n

مـا من شيء أسهل من البرهان على أني لم أكن أحبّ تتيانا نيكولايفنا، وعلـى أن الدافع لارتكاب الجريمة لم يكـن حقيقياً، بل كان مفتَعلاً لا غـير. ويهون كثـيراً أن يقال إن تلك الإرادة المجنونـة نفسها هي التي تفسّر غرابـة خطتي، وبرودَ الدم الذي نفّذت بـه تلك الخطّة، وعدداً كبـيراً من التفاصيل. حتى إن ذكاء فكرتـي وغليانها نفسه قبل الجريمة إنما يدلان على خللي العقلي.

ومثلَ مصابٍ بجرحٍ بليغٍ

—مضيتُ أمثِلُ

موتَ المصارعِ...[٣٢]

لم أترك تفصيلاً واحداً في حياتي إلا ودرَستُه. لقد دقّقت النظر بحياتي كلّها. فطبّقـت معيار الجنون على كلّ خطوة من خطواتي، وعلى كلّ فكرة من أفـكاري، وعلى كلّ كلمة، ووجدتـه ينطبق على كل كلمة وعلـى كل فكرة. وقد تبـيّن، وهذا ما كان أكبر دواعـي دهشتي، أن الفكرة التـي راودتني حتى قبل هذه الليلة هي: ألستُ أنا مجنوناً حقّاً؟ إلا أنني كنت أتملّص من هذه الفكرة وأنساها.

وبعـد أن تأكّدت من أنني مجنون، هل تعرفـون ماذا رأيت؟ لقد رأيت أنني لستُ مجنوناً، هذا ما رأيته. فلتتكرّموا بالاستماع إليّ حتى النهاية.

إن أوّل مـا تُثبـتُ الوراثة والنوبات أنه موجـود فيّ هو الخلل العقلي. إنني واحد من المختلّين عقلياً، وهـم كثيرون، ويمكن العثور عليهم، إذا ما دقّقنا البحث، حتى بينكـم، أيها السادة الخبراء. وهذا يمنحنا مفتاحاً

٣٢—م. من قصيدة للشاعر الألماني هاينريش هايني (١٧٩٧ - ١٨٥٦).

Twitter: @ketab_n

رائعاً لكل ما تبقّى. وتستطيعون أن تعزوا آرائي الأخلاقية إلى خلل عقلي وليس إلى صياغة واعية مُحكَمة. حقّاً إن الغرائز الأخلاقية موجودة في مكان عميق جداً ولا يمكن التحرر منها إلا ببعض الاختلاف عن النمط السليم. على أن العلم، الفائقَ الجرأة في تعميماته حتى الآن، ما يزال يعزو رغم ذلك جميع هذه الاختلافات إلى حقل الخلل العقلي حتى ولو كان الإنسان من الناحية الجسدية متين البنية مثل أبوللو، ومعافى مثل أدنى معتوه. ولكنْ، فليكنِ الأمر كذلك. إنني لا أعترض بشيء على الخلل العقلي، فهو يُدرِجني في عِداد جماعة رائعة.

لن أذهب إلى الدفاع عن الباعث على جريمتي. أقول لكم بإخلاص كامل إن تتيانا نيكولايفنا أهانتني حقاً بضحكتها، واستقرّ جرحها عميقاً جداً في داخلي كما يستقرّ في الانطوائيين، الوحيدين أمثالي. ولكنْ، فليكن هذا غير صحيح. بل وليكن أنني لم أحبّها. أفلا يجوز أن نفترض أنني بقتل أليكسي لم أكن أريد إلا تجريب قواي؟ إنكم لا تمانعون في افتراض وجود بشر يتسلقون جبالاً لا تقهر، مجازفين بحياتهم، لا يدفعهم إلى ذلك إلا كونها لا تقهر، وأنتم لا تسمُّونهم مجانين؟ إنكم لن تتجرّؤوا وتنعتوا بالجنون نانسن[٣٣]، ذلك الذي كان أعظم الرجال في القرن المنصرم! إن للحياة الأخلاقية قطبيها، وقد حاولتُ أن أبلغ واحداً منهما.

إن ما يربككم هو عدم وجود الغيرة، والثأر، والطمع وغير ذلك من الدوافع السخيفة التي درجتم على عدِّها الدوافع الوحيدة الحقيقية والصائبة. ولكن يتوجَّب عليكم في هذه الحالة، يا أهل العلم، أن تدينوا

٣٣- فريتيوف نانسن (١٨٦١ - ١٩٣٠) مستكشف نرويجي، أول من اقترب من القطب الشمالي. عالِم في مجالَي الحيوانات البحرية وجغرافية البحار. - م.

Twitter: @ketab_n

نانسـن، أدينوه مثلُه في ذلك مثلُ الأغبياء والجهـلاء الذين يَعدّون فعلِه جنوناً.

خطّتـي... إنها متميزة، إنها أصيلة، إنهـا جريئة حتى الوقاحة، ولكنْ أليسـت عاقلـة من وجهة نظر الهـدف الذي أرمي إليـه؟ وتحديداً فإن مَيلـي إلى التصنّع، ذلك المَيل الذي شرحته لكم بطريقة عاقلة، هو الذي كان قـادراً على أن يوحي لي بهذه الخطّة. إشراق الذهن، وهل العبقرية اختلاط عقلـيٌّ حقّاً؟ برودُ الدم، ولكنْ لمـاذا لا مناص للمجرم من أن يرتجـف، وأن يشحب ويـتردَّد؟ إن الجبناء يرتجفـون دائماً حتى عندما يعانقون الخادمات في بيوتهم، فهل الشجاعة جنون؟

ومـا أسهل الطريقة التي يفسّرون بها شكوكي الشخصية بكوني عاقلاً! إنني كفنان حقيقي، كممثل، قد تلبّست دوري بعمق كبير، وتقمّصت مؤقتـاً الشخص الذي أمثّله، ففقدت لدقيقة قدرتي على تحديد مَن أنا. هل ستقولون إنه حتى بـين المحلَّفين الذين يُقلّدون يومياً دور الممثل لا يوجد من يشعرون حقاً، وهم يلعبون دور عُطيل، بالحاجة إلى القتل؟

هذا مقنِع تماماً، أليس كذلك، أيها السادة العلماء؟ ولكنْ، ألا تشعرون بشيء واحدٍ غريب هو: عندما أُثبِتُ لكم أنني مجنون يخيَّل إليكم أنني سليم، وحين أُثبِتُ لكم أنني سليم تسمعون مجنوناً.

أجل. والسبـب هو أنكم لا تصدّقونني... ولكني أنـا أيضاً لا أصدِّق نفسي، إذ مَن هو الذي سأصدِّقه في داخلي؟ هل أصدّق الفكر الدنيء التافـه، العبدَ الكذّاب الذي يخـدم أيّاً كان؟ إنـه لا يصلح إلا لتنظيف الأحذيـة، ولكني جعلتـه صديقي، وإلهي. فليسقـطْ عن عرشه الفكر الحقير العاجز!

Twitter: @ketab_n

مَن أنا، أيها السادة الخبراء: هل أنا مجنونٌ أم لا؟

ماشا، أيتها المرأة الغالية، ثمّة شيء تعرفينه أنت ولا أعرفه أنا. أخبريني، ممّن عليَّ أن أطلب العون؟

إنني أعرف جوابك. كلا، ليس هذا. إنك امرأة طيِّبة ورائعة. ولكنك، يا ماشا، لا تعرفين الفيزياء ولا الكيمياء، و لم تذهبي إلى المسرح مرّة في حياتك، بل ولا يخطر على بالك أن هذا الشيء الذي تعيشين عليه، وتقدِّمين وتأخذين وتنظِّفين، هو شيء يدور حول نفسه. إنه يدور، يا ماشا، يدور، ومعه ندور نحن أيضاً. أنت طفلة، يا ماشا، أنتِ كائن غبيٌّ، نباتٌ تقريباً، وإنّي لأحسدك جدّاً، أحسدك بقدْر ما أَحتقرك تقريباً.

كلا، يا ماشا. إنك لن تجيبيني. وأنت لا تعرفين شيئاً، هذا غير صحيح. ففي واحدة من الغرف الصغيرة المظلمة في بيتك البسيط يعيش شخصٌ ما، مفيدٌ لك جداً، إلا أن هذه الغرفة فارغة عندي. لقد مات منذ زمن بعيد ذلك الشخص الذي كان يعيش فيها، وأقمتُ على قبره تمثالاً باذخاً. لقد مات، يا ماشا، لقد مات، ولن يُبْعَثَ حيّاً.

فمن أنا، أيها السادة الخبراء، هل أنا مجنون أم لا؟ اعذروني إن كنت أطرح عليكم السؤال بهذا الإصرار العنيد الفظ، ولكنكم "أهلُ عِلم"، كما كان يسمّيكم والدي عندما يريد أن يداعب غروركم، عندكم كتبٌ وتتمتّعون بفكرٍ بشري صاف، دقيق، لا يخطئ. بالطبع، إن نصفكم سيظلّ على رأي، والنصفُ الآخر على رأي آخر، ولكني أصدِّقكم، أيها السادةُ العلماء، سأصدِّق النصف الأوّل منكم والنصَف الثاني أيضاً. فلتقولوا لي... ومن أَجل مساعدة عقلكم النيِّر سأورد واقعة صغيرة مشوِّقة، شديدة التشويق.

Twitter: @ketab_n

ذات مـرّة أمضيت مسـاء تسوده السكينة والسـلام بين هذه الجدران البيضـاء، وكنت ألمح على وجه ماشا، عندمـا تقع عيناي عليها، تعبير الرعب والضياع والخضوع لشيء قويّ ومخيف. ثم ذهبتْ، فجلستُ علـى سريري المُعَدّ للنوم وواصلت التفكير بما كنت أرغب فيه. وكنت أرغب بأشياء غريبة. لقد كنت، أنا الدكتور كيرجنتسِف، أرغب في أن أجأر. لا أن أصرخ، وإنما بالضبط أن أجأر مثل ذلك الذي هناك. كنت أريـد أن أمزِّق ثيابي، وأن أخدش نفسي بأظفاري. أن أُمسك قميصي من زيقه وأشدّه أوّل الأمر قليلاً، قليلاً جدّاً، ثم أشقّه دُفعة واحدة حتّى آخـره. وكنت أرغب، أنا الدكتور كيرجنتسِف، في أن أقف على أربع وأزحـف. كان السكون يحيط بـي، والثلج يقرع النافذة، وفي مكان غيرِ بعيد عنّي كانت ماشا تصلّي. أمضيتُ وقتاً طويلاً أختار برويّة ماذا ينبغـي عليَّ أن أفعل. فإذا ما صرخـتُ سيكون صراخي عالياً، ويكون ذلـك فضيحة. وإذا ما مزّقـت قميصي فإنهم سيلحظـون ذلك غداً. وبطريقـة عاقلة تماماً اخترت حـلاً ثالثاً هو أن أزحـف. فلن يسمعني أحـد، وإذا ما رأوني فسـوف يقولون إن زرّاً مـن أزراري انقطع وأنا أبحث عنه.

وفيمـا كنت أختار وأقرر كانت حالتـي حسنة، ولا أشعر بالخوف بل بشعورٍ طيّب، حتّى إنني كنت، كما أذكر، أهزُّ رجلي. وإذا بي أفكِّر:

«ولماذا أزحف؟ هل حقّاً أنا مجنون؟»

شعـرت بالرعب، وما لبثت أن رغبت بـأن أفعل كل شيء: بالزحف، والجئير، وتخديش نفسي. فأخذني الغضب.

ـ تريد أن تزحف؟ ـ سألت.

Twitter: @ketab_n

ولكنه ظل صامتاً، و لم يعد يريد.

ـ كلا، فأنت تريد أن تزحف؟ ـ ألححت.

وظلَّ صامتاً.

ـ هيّا، فلتزحفْ !

ثـم شمَّرتُ عن ساعديَّ ووقفت على أربـع وزحفت. ولمَّا لم أكن قد درتُ بعدُ إلا نصف الغرفة فقط، جعلتْ هذه السخافةُ الأمرَ مضحكاً في نظـري، حتّـى إني جلسـت في مكاني علـى الأرض وقهقهت، قهقهت، قهقهقت.

وبإيمـاني المعتاد الذي لم ينطفـئ بعدُ بأن في الإمـكان معرفةَ شيء ما، ظننـت أني عـثرت علـى مصدر رغباتـي المجنونـة. يبـدو أن رغبتي بالزحـف كانت ناجمة هي وغيرها من الرغبات عـن إيحاء ذاتي. إن التفكـير الملحّ بأنني مجنون كان يستدعي رغبـات مجنونة أيضاً. وما إن لبّيتُ تلك الرغبات حتى تبيَّن لي أنه ليس هناك أيّ رغبات، وأني لست مجنوناً. إن هذا التفكير، كما ترون، جدُّ بسيط ومنطقي. ولكنْ...

ولكـنْ مع ذلك ألَمْ أزحف؟ ألَمْ أزحف ؟ فمن أنا: أمجنون يسوِّغ فعله، أم سليم يجنِّن نفسه ؟

فلتساعـدوني، يا رجالات العِلم الأجـلاّء! ولْترجِّح كلمتكم المرجعية هـذه الكفّة من الميزان أو تلك وتحلّ هـذه المسألة الشائكـة المرعبة. وهكذا، فأنا أنتظر!..

عبثاً أنتظر. يا أصحـاب الرؤوس الكبيرة الغالين عليّ، ألستم أنتم أنا؟ أليـس ما يـدور في رؤوسكم الصلعاء هو ذلك الفكـر البشري المتستِّر

Twitter: @ketab_n

الـذي هو أبدَ الدهـر كاذبٌ، متلوّن، شبحيٌّ، كما هـو عندي؟ وفيمَ فكـري أسـوأ من فكركـم؟ أنتم ستمضـون تثبِتون أنني مجنـون، وأنا سأثبِـت لكم أنني سليم، ستمضـون تثبِتون أنني سليـم، وأنا سأثبِت لكـم أنني مجنون. ستقولـون لا تسرقْ، لا تقتلْ ولا تغشّ، لأن ذلك لا أخلاقـيٌّ وجريمة، وسأثبِت لكم أنه يجـوز القتل والنهب وأن ذلك أخلاقيٌّ جدّاً. وسوف تفكّرون وتتكلّمون، وأنا سوف أفكّر وأتكلّم، وكلّنـا سنكـون على حقّ، وما مـن أحدٍ منّا سيكون علـى حقّ. فأين القاضي الذي يستطيع أن يحكم بيننا ويجد الحقيقة.

إن لكـم ميزة هائلة تمنحكم وحدكم معرفـة الحقيقة: فأنتم لم ترتكبوا جريمة و لم تحاكَموا، وأنتم مدعوون لدراسة حالتي النفسية مقابل مبالغ ماليـة مجزية. ولهذا فأنا مجنون. أمّا لو أنهـم وضعوك أنت هنا مكاني، أيهـا البروفيسور درجيمبيتسكـي، ودُعيت أنا لمراقبتـك لكنتَ أنت المجنون، ولكنت أنا القاضي: كنتُ الخبير الشرعي، الكذّابَ الذي لا يختلف عن الكذّابين الآخرين إلا بأنه يكذب بعد أداء اليمين القانونية.

حقـاً، أنت لم تقتل أحـداً، ولكنك سرقت من أجـل السرقة، وعندما تستأجـر عربة خيل فإنك لا بُدَّ أن تساوم الحوذيَّ لكسب قروش منه، وهـذا دليل صحّتك النفسية الكاملة، الدليـل على أنك لستَ مجنوناً. غير أنه قد يحدث شيء غير متوقّع إطلاقاً...

ربّما غداً، أو الآن، في هذه الدقيقة، وأنت تقرأ هذه السطور تخطر لك فجـأة فكرة شديدة الغباء، ولكنها غير حـذرة: تُرى، ألستُ أنا مجنوناً أيضـاً؟ فمن ستكون حينها أيّهـا السيد البروفيسور؟ يـا لها من فكرة غبيّـة سخيفة، إذ ما الذي سيجعلـك تفقد عقلك؟ ولكن فلتجرّبْ أن تطردهـا. لقد كنتَ تشرب الحليب وتظنّ أنه حليبٌ صافٍ إلى أن قال

Twitter: @ketab_n

لك أحدهم إنه مخلوط بالماء. عندئذ سوف ينتهي الأمر، فلا يعود هناك بعد ذلك حليب صاف.

أنـت مجنون. ألا تريد أن تزحف علـى أربع؟ طبعاً، لا تريد، إذ هل من إنسـان عاقل يريـد أن يزحف! لكنْ، مع ذلك؟ ألا يـراودك مثل هذه الرغبـة الخفيفة، الخفيفة تماماً، السخيفة تمامـاً والتي ترغب بالضحك منهـا: الرغبـة في أن تنزلق عـن الكرسي وتزحف قليـلاً، قليلاً جداً؟ بالطبـع، لا تراودك، ومن أين لهذه الرغبـة أن تراود إنساناً عاقلاً كان للتوِّ يشرب الشاي ويتكلّم مع زوجته. ولكنْ، ألا تشعر أنت برجليك وإن كنـت مـن قبلُ لا تشعر بهما، ثم ألا يخيَّل لـك أن ثمة شيئاً غريباً يحدث في ركبتيك: خَدَرٌ ثقيل يحول دون الرغبة بمدّ الركبتين، وبعد ذلـك... إذ حقاً: هل يستطيع أحـد أن يمنعك إذا ما أردت أن تزحف أقلَّ من القليل ؟

لـ-ا أحد.

ولكـنْ، أجِّلِ الزحف. فأنـا ما أزال بحاجة إليـك. إن صراعي لم ينتهِ بعدُ.

الورقة الثامنة

إن أحد تجلّيـات المفارقات في طبيعتي هو أنني أحبّ الأطفال كثيراً، الأطفال الصغار جداً، عند أوّل بدئهم بالكلام، حين يكونون شبيهين بجميـع الحيوانات الصغـيرة من جِراء وقطط وأفـاع صغيرة. فحتى الأفاعي تكون جذّابة في صغرها. وقد قدِّر لي ذات يوم رائق مشمس في الخريف الحـالي أن أرى المشهد التالي. لقد رأيت طفلة صغيرة في

Twitter: @ketab_n

معطف قطني له غطاء رأس، لم يكن ظاهراً منه إلا خدّاها الأحمران وأنفها. كانت تريد الاقتراب من جروٍ صغير جداً ذي أرجل دقيقة رفيعة، وخطم رقيق، وذيلٍ مضموم بين ساقيه بفزع. وفجأة أحسَّتِ الطفلة بالخوف فاستدارت، ومثل كرة بيضاء صغيرة تدحرجت نحو المربية الواقفة بالقرب منها، وبصمت، من غير ما دموع وصراخ، أخفت وجهها بين ركبتَي مربّيتها. أمّا الكلب الصغير فكانت عيناه تطرفان بحنان، وكان يعصر ذيله بفزع، فيما كان وجه المربّية طيّباً وبسيطاً.

- لا تخافي، - قالت المربِّية وابتسمت لي، وكان وجهها طيِّباً وبسيطاً.

لا أعرف لماذا، ولكنَّ هذه الطفلةَ كثيراً ما كانت تخطر على بالي، سواءٌ يوم كنت طليقاً أعمل على تنفيذ خطتي لقتل سافيلوف، أو هنا. وحتى في ذلك الوقت، وأنا أنظر إلى تلك المجموعة تحت شمس الخريف الصافية، راودني شعور غريب بما يشبه اكتشاف سرٍّ من الأسرار، وبدت لي خطة القتل التي رسمتها كذباً من عالم آخر، مختلف تماماً. ولأن الطفلة والكلب الصغير كليهما كانا على هذا القدْر من الصغر واللطف، وكان كلٌّ منهما خائفاً من الآخر بطريقة مضحكة، وكانت الشمس تبعث كل هذا النور الدافئ - كان ذلك كلّهُ بسيطاً للغاية، ومفعَماً للغاية بحكمة لطيفة وعميقة، - كأنما سرُّ الوجود يكمن في هذه المجموعة بالضبط. ذلك كان شعوري. فقلت لنفسي: «يجب أن أفكِّر بهذا كما ينبغي»، غير أنني لم أفكِّر حتى الآن.

وأنا الآن لا أذكر ما الذي كان وقتها، وأتعذّب محاولاً أن أفهم، ولكنني لا أستطيع. ولا أعرف لماذا رويت لكم هذه الأقصوصة

Twitter: @ketab_n

المضحكـة التي لا لزوم لها، فيما لا يـزال هناك كثير جداً من الأشياء الجدِّية والهامّة التي يجب عليَّ أن أرويها. لا بُدَّ أن أُنهي.

فلْندَعِ الموتى في سكينتهم. لقد قُتِل أليكسي، وبدأ يتفسّخ منذ وقت طويلَ. إنه رحل، فإلى الشيطان! ثمّة في وضع الموتى ما يسرّ.

لن نتحدّث عن تتيانا نيكولايفنا أيضاً. فهي تعيسة، وإني لأنضمُّ بطيب خاطر إلى جميع الآسفين عليها. ولكن، ماذا تعني هذه التعاسة وكلّ ما في العالم من تعاسة بالمقارنة مع ما أكابده الآن أنا، د. كيرجنتسف! ما أكثر ما في الدنيا مـن زوجات يفقدن أزواجهنّ الأحبّاء، وما أكثر ما سوف يفقدنهم أيضاً. فلنتركْهنَّ، دَعوهنَّ يبكين.

أمّا هنا، في هذا الرأس...

أنتـم تفهمون، أيها السادة الخبراء، كيف حـدث ذلك بهذه الطريقة الفظيعـة. إننـي ما أحببت أحداً في العالم غـير نفسي، والشيء الذي أحببته في نفسي ليس هذا الجسـد الكريه الذي يحبّه حتى السفهاء، لقد أحببت الفكـر البشري وحرّيّتي. إنني ما عرفت ولا أعرف شيئاً أسمـى من فكري، لقـد كنت أعبـده، أليس هو جديـراً بذلك؟ ألمْ يصارع العالَمَ كلَّه وضلالاته صراع العمالقة؟ لقد ارتقى بي قمة جبل عالٍ فرأيت في مـكان سحيق تحتي كيف كان أناس صغار يتخبّطون بنزواتهـم الحيوانيـة الصغيرة، بخوفهم الأبدي أمـام الحياة والموت، بكنائسهم، وصلواتهم، وأدعيتهم.

ألم أكـن عظيماً، وحـرّاً وسعيداً؟ مثل بارون مـن العصور الوسطى، أقيـم في قصري المنيع كأنني صقـرٌ في عشّه ينظر بفخر وجبروت إلى الوديـان الممتدّة تحته، كم كنتُ قهّـاراً وفخوراً في قصري، وراء هذه

Twitter: @ketab_n

العظـام السـوداء. ولمّا كنت ملِكاً على نفسي، فقـد كنت مَلكاً على العا لم أيضاً.

ثـم خانوني. بنذالـة ومَكرٍ، مثلما تخـون النساءُ والعبيـدُ، والأفكار. قصـري صار سجنـي. وفي قصري قـام أعدائي بالهجوم علـيّ. فأين النجاة؟ إن هلاكي في مِنعة قصري وعرض جدرانه. صوتي لا يتسرّب إلى الخارج. فمـن هو القوي الذي سينقذني؟ لا أحد. لأنه ما من أحدٍ أقوى منّي، وأنا، أنا العدوّ الوحيد لـ «أنا»ي.

لقـد خانني فكري النذل، خانني أنا، مَن آمن به وأحبّه إلى هذا الحد. إنـه لم يصبـح أسوأ، بل ظلّ هو نفســه وضّاءً، حـادّاً، مرناً مثل سيف المبـارزة، غير أن قبضته لم تعد في يدي. وهل يقتلني أنا، خالقه، سيِّده بتلك اللامبالاة البليدة نفسها التي قتل بها الآخرين.

مـا إن يحـلّ الليل حتّى يطوِّقنـي رعبٌ مسعور. لقد كنـت ثابتاً على الأرض، وكانـت رِجلايَ تقفان عليها راسختين. أمّـا الآن فقد أُلقيَ بـي في فراغِ فضاءٍ لانهائي. إنهـا لوحدةٌ عظيمة ورهيبة عندما أجدني فريداً، أنا، ذلك الذي يعيش ويشعر ويفكِّر، والذي غالٍ إلى هذا الحد، وعندمـا أجدني صغيراً إلى هذه الدرجـة، ولا نهاية لتفاهتي وضعفي، ومهيّـأ كلَّ دقيقة للأفول. إنها لوحـدةٌ كريهة لا تطاق عندما لا أكون أنـا نفسي أكثر مـن ذرّة تافهة، عندما أكون في داخلـي محاصَراً، يشدُّ على خناقي أعداء خفيّون، صامتون، متجهِّمون. إنهم في داخلي أينما سـرتُ أحملهم معي في كل مـكان. وحيد في فراغ الكون، وليس لي مـن صديق حتـى في داخلي. وحدة جنونية عندمـا لا أعرف من أنا، وحيد عندما يتكلّمون بشفتَيّ، بفكري، بصوتي، أولئك اللامرئيون.

Twitter: @ketab_n

لا يمكـن العيش علـى هذا النحو. أمّـا العالَم فإنه نائـم، فيما الأزواج يقبّلون زوجاتهم، والعلماء يُلقـون المحاضرات، والفقير يفرح لقرشٍ أُلقيَ به إليـه. سيكون استيقاظك رهيباً، أيها العـالَم المجنون، السعيدَ في جنونه!

مَـنِ القويُّ الذي سيمدّ لي يد العـون؟ لا أحد. لا أحد. أين أجد ذلك الأبديَّ الذي أكون قادراً على الالتصاق به مع «أنا»يَ التافه، العاجز، الوحيـد حتى الرعب؟ لن أجده في أيِّ مكان. آه، أيتها الطفلة الغالية، الغالية، لماذا تمتدُّ إليك الآن يدايَ الملطَّختان بالدم، فأنت أيضاً إنسان، وأيضـاً تافهة، ووحيدة، وعُرْضـةٌ للموت. وسواءٌ أكنـتُ أنا أعطف عليـك، أو أريـد منك أن تعطفي علـيّ، فإني سأختبـئ وراء جسمك الصغـير الذي لا حول له ولا قوّة، مثلما أختبئ وراء درع، هرباً ممّا في الزمان والمكان من فراغٍ يائس. ولكنْ، كلا، كلا، فإن هذا كلَّه كذبٌ!

سأطلـب منكم خدمـة كبيرة، هائلـة، أيها السادة الخـبراء، وإذا كنتم تشعـرون بأن فيكم ولو قليلاً من الإنسـان، فإنكم لن ترفضوا طلبي. آمـلُ أن يكـون قد فهم بعضُنـا بعضاً بما يكفي لكـي لا يصدِّق بعضنا بعضاً. وإذا ما طلبت منكم في المحكمة أن تقولوا إني إنسان عاقل فإن من سيكـون أقلّ تصديقاً لكلامكم هو أنا. ما يخصّكم تستطيعون أن تقرِّروه أنتم، أمّا بالنسبة لي فإنه ما من أحدٍ سيجيب على هذا السؤال:

أأنا تصنَّعت الجنون لكي أَقتل، أم أنا قتلت لأني تصنَّعت الجنون؟»

ولكـن القضـاة سيصدّقونكـم ويحكمون علـيَّ بما أريـد: بالأعمال الشاقـة. أرجوكـم ألا تفسِّروا نواياي تفسيراً كاذبـاً. إنني لست نادماً علـى قتل سافيلوف، فأنا لا أبحث في العقاب عن التكفير عن ذنوبي،

Twitter: @ketab_n

وإذا كنتم محتاجين، من أجل أن تثبتوا أنني عاقل، أن أقتل أحداً بهدف نهبه، فإنني سأقتل وأنهب بسرور. غير أني أبحث في الأعمال الشاقة عن شيء آخر مازلت أجهله أنا أيضاً.

يجذبني إلى أولئك الناس المحكومين أملٌ غامض بأن أجد بينهم، بين من خالف قوانينكم من قتلة ولصوص، ما لا أعرفه من منابع الحياة، كي أصبح صديقاً لنفسي من جديد. ولكنْ ليكن هذا غير صحيح، وليكنْ أن أملي سيخيب، فأنا مع ذلك أريد أن أكون معهم. أووه، إني أعرفكم! فأنتم جبناء ومنافقون، أنتم تحبّون طمأنينتكم أكثر من أيّ شيء، وبسعادة مستعدّون لأن تجعلوا من مستشفى المجانين مأوى لكل لصّ سرق كعكة، لأنكم أكثر رغبة في أن تَعدّوا العالَم وأنفسكم مجانين، من أن تتجرّؤوا على المساس بتلفيقاتكم الحبيبة على قلوبكم. إني أعرفكم. المجرم والجريمة، ذلك هو هاجسكم الأبدي، إنه صوتُ هوّة سحيقة رهيب، إنه إدانة لا رحمة فيها لكل حياتكم العاقلة والأخلاقية، إدانة ستخترق أسماعكم مهما أحكمتم سدَّ آذانكم بالقطن، ستخترقها! وأنا أريد الالتحاق بهم. أنا الدكتور كيرجنتسف سأنضمّ إلى صفوف هذا الجيش الرهيب بالنسبة لكم، مثلَ تأنيبٍ أبدي، مثل من يسأل ولا ينتظر جواباً.

إني لا أتضرّع إليكم ذليلاً، بل أطالبكم: قولوا إني عاقل. اكذبوا إن كنتم لا تصدّقون ذلك. أمّا إذا كنتم ستغسلون أيديكم بخسّة وتودِعونني مستشفى المجانين أو تطلقون سراحي، فإني أحذِّركم بلطفٍ: سوف أزعجكم بمنغّصات كبيرة.

بالنسبة لي ليس هناك قاضٍ، ولا قانون، ولا ممنوع. كل شيء مباح. هل تستطيعون أن تتصوّروا عالَماً ليس فيه قوانين جاذبيّة، ليس فيه فوق

Twitter: @ketab_n

وتحت، وما من شيء فيه يخضع إلا للنزوة والمصادفة؟ أنا هو، الدكتور كير جِنتسِف، ذلك العالَم الجديد. كل شيء مباح. وأنا، الدكتور كير جِنتسِف، سأثبِت لكم ذلك. سأتصنّع أني عاقل. وسأحصل على الحِرية. وسأظلّ أتعلّم طول ما تبقّى من حياتي. سأحيط نفسي بكتبكم، وسآخذ عنكم كل قوّة معرفتكم التي تفتخرون بها، وسأجد الشيء الذي بات ضرورة ملحّة منذ زمن طويل. سيكون ذلك مادّة انفجارية. مادّة لها من القوّة ما لم يرَه الناس بعد: أقوى من الديناميت، أقوى من النيتروغليسيرين وأقوى من الفكرة نفسها عنه. إنني موهوب، دؤوبٌ، وسأجدها. وحين أجدها سأفجّر في الهواء أرضكم اللعينة التي لها كثير من الآلهة وليس لها إلهٌ أبديٌّ واحد.

كان سلوك الدكتور كير جِنتسِف في المحكمة هادئاً جداً، وظل طول وقت الجلسة في وضعية واحدة لا توحي بشيء. كان يجيب على الأسئلة بحيادية وعدم اكتراث، ويُجبِر القضاة أحياناً على تكرارها مرّتين. وقد أضحك مرّة واحدة ذلك الجمهورَ المختار الذي غصّت المحكمة بعدده الهائل. فلمّا أعطى الرئيس أمراً إلى لجنة القضاة نهض المدَّعَى عليه، ربّما لأنه لم يسمع نهاية الأمر أو لأنه كان شارداً، وسأل بصَوتٍ عالٍ:

- ماذا، هل يجب عليّ أن أخرج؟

- إلى أين تخرج؟ - تعجّب الرئيس.

- لا أعرف. أنت قلت شيئاً ما.

ضحك بعض من الجمهور، فأوضح الرئيس المسألة لكير جِنتسِف.

Twitter: @ketab_n

كان قد تمّ استدعاء أربعة خبراء في الطب النفسي، وانقسمت أصواتهم بالتساوي. وبعد كلمة النائب العام وجّه الرئيس خطابه إلى المتَّهم الذي رفض أن يكون له محامي دفاع:

ـ أيها المتَّهم! ما الذي لديك لتقوله كي تبرِّئ نفسك؟

نهض الدكتور كيرجنتسِف. وبعينين كابيتين، كأنهما لا تبصران، شمل القضاة بنظرة بطيئة، ثم نظر إلى الجمهور. وسرى في مَن وقعت عليهم هذه النظرة الثقيلة شعورٌ غريب ومعذِّب، وكأن ما نظر إليهم من مِحجَري جمجمةٍ فارغَين هو الموت الأخرس اللامبالي.

ـ لا شيء، ـ أجاب المتَّهم.

ومرّة أخرى أجال نظره في الناس المجتمعين لحضور محاكمته، وأعاد:

ـ لا شيء.

نيسان ١٩٠٢

Twitter: @ketab_n

هذا ما كان

I

كان ينتصب في الساحة برجٌ ضخم أسوَد، جدرانه سميكة كجدران القلاع، وفيها فتحات رمي متباعدة.. وكان قد بناه فرسانٌ من قطّاع الطرق لأنفسهم، غير أن الزمن طواهم، وصار نصف البرج سجناً لكبار المجرمين العُتاة، ونصفٌ للسكن. وكلَّ مائة عام كانوا يضيفون إليه مبانيَ جديدة تلتصق بالجدار السميك وبعضها ببعض. وشيئاً فشيئاً تحوّل البرج إلى بلدة كاملة تقوم على صخرة، وفيها غابة مختلفة الارتفاع من المداخن والأبراج الصغيرة والأسطح الحادّة. وعندما كانت السماء المشوبة باللون الأخضر تحتفظ ببعض الضوء الرائق من الجهة الغربية، وتشتعل المصابيح في بعض النوافذ العالية تارة والمنخفضة تارة، كانت كتلة البرج السوداء كلّها تتّخذ أشكالاً خيالية وشديدة الغرابة، ويخيَّل لسببٍ ما أن ما هو بالقرب من أسفلها ليس طريقاً عاديّة، وإنما هو بحرٌ، أو محيط مالح بلا ضفاف. فتجول في الخاطر أفكارٌ عمّا هو قديمٌ، منسيٌّ وميتٌ منذ عهد بعيد.

كانت توجد في أعلى البرج ساعةٌ ضخمة قديمة يراها الناظر من بعيد. وكان جهازها الميكانيكي المعقَّد يحتلّ طابقاً كاملاً، ويراقبه شخص أعورُ يسهل عليه النظر في العدسة المكبِّرة. ولهذا السبب صار ساعاتياً،

Twitter: @ketab_n

وكان قد اشتغل مدة طويلة بتصليح الساعات الصغيرة قبل أن يوكلوا إليه أمر الساعة الكبيرة. فطاب له العيش هناك، وكثيراً ما كان يذهب في الليل والنهار، ومن غير ما ضرورة، إلى الغرفة التي تدور فيها ببطءٍ تروسٌ مسنَّنة وأذرعة وبندول يشقّ الهواء بحركةٍ انسيابية عريضة. وحين تبلغ حركة البندول ذروتها يقول:

- هذا ما كان.

ثم يهبط البندول ويرتفع إلى الذروة من جديد ويضيف:

- هـذا ما سيكون. هذا ما كان - هـذا ما سيكون. هذا ما كان - هذا ما سيكون.

بهذه الكلمات كان الساعاتي الأعور يترجم الصوت الرتيب الغامض الذي يصدر عن البندول. لقد جعله قربُه من الساعة الكبيرة فيلسوفاً، كما كانوا يومها يقولون.

فوق المدينة القديمة التي كان ينتصب فيها البرج، وفوق البلاد بأسرها كان يقف عالياً شخص واحد هو الحاكمُ اللغزُ لهذه المدينة والبلاد، وكانت هذه سلطة اللغز، سلطته وحده على الملايين، كانت قديمة أيضاً قِدَم المدينة نفسها. كان يسمّي نفسه ملكاً، وكان يلقَّب بـ "العشرين" وَفقاً لترتيب أسلافه الذين كان لهم الاسم نفسه "الملك"، غير أن ذلك لم يكن يفسّر أيَّ شيء. فمثلما لم يكن أحد يعرف بداية تاريخ المدينة، كذلك لم يكن أحد يعرف بداية تاريخ هذه السلطة الرهيبة التي بيد شخص واحد يحكم الملايين وترتسم صورته الغامضة هذه نفسها بقدْر ما تسعف الذاكرة البشرية، منذ الماضي السحيق. كان ذلك في زمنٍ غابر، أَصمّ، لم يعُد للذاكرة البشرية سلطان عليه. غير أن

Twitter: @ketab_n

الذاكـرة أيضاً كانت تفتح شفتيها في أحيان نـادرة فتُسقط حجراً، أو بلاطة صغيرة نُقش عليها بعض علامات، أو قطعةً من عمود، أو قطعة قرميد من جدار تهدَّم، وكانت مكتوبة في هذه العلامات قصة الواحد الـذي يحكم الملايين. كانت تتغيّر الألقـاب والأسماء والكِنى، إلا أن صورتـه ظلّت ثابتة لا تتغيّر، كأنها خالدة. ولمّا كان الملك يولد ويموت كالجميـع، فإنه بمظهره الذي يشبـه مظهر الناس كلّهـم، كان إنساناً. ولكنهم عندما كانوا يتأمّلون ذلك الكمَّ الهائل من السلطة والجبروت الذي يتمتّع به، كان يسهل عليهم التفكير بأنه إله. سيّما وأن الإله كان يصوَّر دائماً شبيهاً بالإنسان، و لم يكن ذلك يتناقض مع حقيقته المميَّزة تماماً، والعصية على الفهم.

كان العشـرون ملكاً. وكان هذا يعنـي أنه قادر على أن يجعل الإنسان سعيداً أو شقيّاً، وأنه قادر على حرمانه من الرزق، والصحّة، والحرّية، والحيـاة. فبكلمـة منـه يذهب عشـرات آلاف من البشـر إلى الحرب، يقتَلـون ويموتـون. وفي سبيله يكـون العدل والظلـم، والخير والشر، والرحمـة والقسوة، و لم تكن قوانينه أقلَّ إلزاماً من قوانين الإله نفسه. وقـد كان عظيماً أيضاً من حيـث أن الإله لا يبدّل قوانينـه أبداً، بينما كان هو قادراً على تغيير قوانينه باستمرار، وسواءٌ أ قريباً كان أم بعيداً، فإنه كان دائماً فوق الحياة، إذ منذ الولادة يجد الإنسانُ الإلهَ والطبيعة والمدن والكتب.

إن تاريـخ البلاد، الشفهيّ والمكتوب، يتحدّث عـن الملوك الأفاضل، العادلين والطيِّبين، ورغـم أنه كان يعيش على الأرض دائماً من هم خيرٌ منهم، فإنه يبدو مفهوماً لماذا هم الذين يحكمون. ولكنْ كثيراً ما كان الملـك أسوأ من في الأرض، مجـرّداً من الفضائل، قاسيـاً، ظالماً، لا بل

Twitter: @ketab_n

ومجنوناً أيضاً. غير أنه حتى في هذه الحالة كان يظلّ لغزاً، فرداً، يحكم الملايين، وسلطته تتعاظم مع تعاظم جرائمه. كان الجميع يكرهونه ويلعنونه، وكان وحدَه يحكم جميع من يكرهونه ويلعنونه. وتغدو هذه السلطة المتوحشة لغزاً، وفضلاً عن رعب الإنسان من الإنسان يأتي رعبه الغيبي من المجهول. ولهذا كان يحدث أنّ الحكمةُ والفضيلة والروح الإنسانية أشياء تُضعِف السلطةَ وتجعلها موضع خلاف، فيما يعززها الطغيان والجنون والغضب. ولهذا كان يحدث أن يكون من هو أشدّ بأساً بين هؤلاء الحكام المبهمين عاجزاً عن الإبداع وفعل الخير، وكان الأضعفُ بينهم ذا قدرة تفوق في التدمير والشرّ قدرةَ الشيطانِ وكلّ قوى الجحيم. ولمّا لم يكن الحاكم، هذا الخادم الخفيّ للجنون والموت والشر، قادراً على أن يهِب الحياة، فإنه كان يهِب الموت دائماً. وكلّما ازداد عرش المُلْك علوّاً ازداد عدد العظام التي يقوم عليها أساسه.

كذلك كان يتربّع على العروش في البلدان المجاورة الأخرى حكّام، وكانت جذور سلطتهم تعود إلى أزمنة سحيقة. وكان يحدث في بعض السنوات أن يختفي حاكم مبهم من حكام إحدى الدول؛ غير أنه لم يحدث من قبل قَطّ أن تحرّرت الأرض كلها منهم. ثم تمضي مئات السنين ويعود العرش إلى الظهور من جديد في تلك الدولة، لا أحد يعرف من أين جاء. ومرّة أخرى يعتلي ذلك العرش شخص غامضٌ ما، لا يحيط العقل بما هو من مزيج من العجز والقوّة الخالدة. وبغموضه كان يسحر الناس. ففي جميع الأزمنة كان يوجد بينهم هذا الصنف من البشر، وكان كبيراً عدد من يحبّونه أكثر من أنفسهم، وأكثر من نسائهم وأولادهم، وكانوا يتقبّلون الموت الشنيع والمشين منه وفي

Twitter: @ketab_n

سبيله راضين طائعين، من غير ما وجلٍ أو ندم، وكأنه قضاء الله المحتوم.

نادراً ما كان العشرون وأسلافه يظهرون أمام الشعب، وقليلٌ مَن شاهدهم. غير أنهم كانوا كلّهم يحبّون أن يوزِّعوا صورهم على الناس، فتظل الصورة مطبوعة على العملة المعدنية، ومنحوتة من الحجر، ومنسوخة على لوحات لا تحصى عدداً، وفي كل مكان كان الخيال الفني يضفي عليها مزيداً من الرونق والجمال. لم يكن في مقدور المرء أن يخطوَ خطوة من غير أن يشاهد صورة وجه لشخص واحد هو الشخص البسيط، المبهَم نفسه، شخصٌ يقتحم الذاكرة عنوة بكثرة صوره، فيسيطر على المخيِّلة، ويوهم بأنه موجودٌ في كل مكان، كلّيُّ الحضور، إلى أن يكتسب صفة الخلود. ولهذا فإن الناس الذين لا يذكرون جدَّهم جيّداً، ولا يعرفون وجه والد جدّهم البتّة، كانوا يعرفون جيّداً وجه الحاكم الذي عاش قبل مائة أو مائتين من الأعوام أو ألفِ عام. ولهذا فمهما كان بسيطاً وجه ذلك الذي يحكم الملايين، كان ينطبع دائماً بطابع السرِّ واللغز الرهيب، هكذا دائماً يبدو وجه الميت لغزاً، وجليلاً، لأن الموت الغامض الجبّار نفسه يطلّ من خلال ملامحه العادية المألوفة.

هكذا كان الملك يقف عالياً فوق الحياة. كان الناس يموتون، وكانت تندثر أقوامٌ عن بكرة أبيها تحت التراب، أمّا هو فلم تكن تتغيَّر إلا ألقابُه كما يتغيَّر جلد الأفعى. فبعد الحادي عشر جاء الثاني عشر، ثم الخامس عشر، ثم مرّة أخرى عاد الأوّل، والخامس، والثاني. وكان في تردُّد هذه الأرقام الباردة صدى لقدَر محتوم، كما في حركة البندول الذي يشير إلى الدقائق:

ـ هذا ما كان، هذا ما سيكون.

Twitter: @ketab_n

II

وكان أن اندلعت الثورة في المملكة المترامية الأطراف التي كان العشرون حاكمهـا، وكانت هذه الانتفاضة التي قامت بها الملايين غامضة بقدْر مـا كانت غامضـة سلطة الواحد. شيء غريب أصـاب الوشائج المتينة التي كانت تربط بين الملك والشعب، فراحت تتفكّك من غير صوت، غـير ملحوظة، على نحوٍ غامض مثلما يحدث في الجسد الذي فارقته الحياة، وبدأت تعمل فيه قوى جديدةٌ، مختبئة في مكان ما. كان العرش والقصـر هُما هُمـا، وكان العشرون هو هـو، أمّا السلطـة فقد ماتت تدريجيـاً، و لم يعـرف أحدٌ ساعـة موتها، إذ كان الجميـع يظنّون أنها مريضـة لا غير. ولمّا فقد الشعب عادةَ الطاعة مـا لبث أن انبثقت من حركات المقاوَمة الكثيرة المتفرِّقة، الصغيرة، والتدريجية حركةٌ هائلة لا تُقهـر. وما إن كفَّ الشعب عن الطاعة حتى انفتحت في الحال جميع جروحـه القديمة التي عمرُهـا قرون كثيرة، وبغضـبٍ أحسّ بالجوع، والظلم، والقهر. فصرخ جاهراً بذلك. وطالب بالعدالة. وفجأة ثارت ثائرتـه، مثل وحشٍ هائل الحجم، مستنفَـرٍ ينتقم من مروّضه في دقيقةِ غضبٍ حرٍّ واحدةٍ عن كل سنوات المهانات والتعذيب.

ومثلمـا لم تتّفق الملايين على الطاعة، كذلـك لم تتّفق على أن تنتفض. وسرعـان ما تدفّقت الانتفاضة نحو القصر من كل صوب. كان الناس متعجِّبين من أنفسهم ومن أعمالهم، ناسين الطريق الذي اجتازوه وهم يـزدادون اقتراباً من العرشـ، وباتوا يتلمّسون بأيديهـم نعشه وطلاءه المذهَّـب، باتـوا يُطلّون بأنظارهـم على غرفة النوم الملكيـة ويجرِّبون

Twitter: @ketab_n

الجلوس على الأرائك الملكية. كان الملك ينحني لهم، والملكة تبتسم، فدمعت عيون كثيرين من الناس باكيةً وهم ينظرون إلى العشرين من مسافة قريبة إلى هذا الحدّ. ولامست النساء بأصابعَ حذرةٍ مخملَ قفطان الملكة وثوبها الحرير، وبصرامة رقيقة داعب الرجالُ الطفلَ الملكي.

كان الملك ينحني محيّياً، والملكة الشاحبة تبتسم، وخطٌّ دم أسوَدُ تحت باب غرفة النومِ المجاورة يسيل من نبيلٍ ذبح نفسه لأنه لم يتحمَّل المنظر عندما لامستْ قفطان الملك أصابعُ قذِرةٌ، فقتل نفسه. وصرخوا وهم يتفرّقون:

- يعيش العشرون !

وقطّب أحدهم، غير أن المرح السائد جعله أيضاً ينسى حزنه ويضحك، كما في الكرنفال عندما يضعون التاج الملكي على رأس مهرِّج مبهرجَ الثياب، وبدأ بالصراخ:

- يعيش العشرون !

ضحكوا. ومع دنوِّ المساء كانت الوجوه متجهِّمة وفي النظرات ارتياب، إذ كيف استطاعوا أن يصدِّقوا من يخدع شعبَه البريء والطيِّب بدهاء شيطانيّ منذ ألف عام؟ القصر غارق في الظلام. نوافذه الضخمة تشعّ بأضواء زائفة وتنظر متجهّمة، فثمة شيء يدبّرونه هناك. إنهم هناك يدبِّرون مكيدة. هناك ينادون الظلام ويستدعون منه جلادين لقهر الشعب، هناك يمسحون فمهم بقرَفٍ بعد أن يطبعوا قبلات الخيانة، ويغسلون الطفل الذي ينجِّسه الشعبُ بلمساته، وقد لا يكون هناك أحد. ربّما ليس في الصالات الضخمة السوداء إلا ذلك

Twitter: @ketab_n

النبيلُ الذي انتحر، والفراغ: لقد اختفوا. لا بد من الصراخ، لا بد من استقدامه إلى هنا، إذا ما كان هناك أحدٌ حيّ.

ـ يعيش العشرون !

سماء المساء الشاحبة، المضطربة، تنظر إلى الوجوه الشاحبة المرفوعة إلى فوق. الغيوم المسطَّحة الخائفة تجري على عجَل، والنوافذ الضخمة تشعّ بضوءٍ زائف، ميِّتٍ ميتة غامضة.

ـ يعيش العشرون !

ثمّة حارسٌ منهَكٌ يتمايل في الحشد. إنه أضاع سلاحه ويبتسم. و يصطكّ القفل في الأبواب الحديدية بقعقعة متقطِّعة مثل مصابٍ بالحمّى، وعلى قضبان السور الحديدية العالية نَمَت ثمارٌ سوداء غريبة الشكل، أجسام متبعّجة، وأيدٍ ممدودة، وشيءٌ شاحب من جهة السماء وأسوَدُ من جهة الأرض. تمُرّ مسرعةً كتلةٌ من الغيوم التي تنظر إلى تحت. صراخ. ثمّة من أضاء مشعلاً فأعتمَت نوافذ القصر، وامتلأت دماً ومضت تتقدّم نحو الحشد. وزحف شيء ما يتسلّق الجدران صاعداً نحو السطح. القصر صامت. وغطّى الناس بأجسامهم الشبَك الحديدي كلّه، وفجأة اختفى وانفتحت الطريق،فتابع الناس السير.

ـ يعيش العشرون.

تراقصت أضواء شاحبة وراء النوافذ. والتصق وجهٌ مشوّه بالزجاج ثم اختفى. الأضواء تزداد، وتتكاثر، وتتحرّك جيئة وذهاباً، شيء يشبه رقصاً مرعباً أو جنازة. ثم تتزاحم الأضواء، وتنحني، فالملك والملكة

Twitter: @ketab_n

يخرجـان إلى الشرفـة. وراءهما ضوء، ولكن وجهيهمـا قاتمان، لعلّ هذين ليسا هما.

ـ مزيداً من الضوء! أيها العشرون، مزيداً من الضوء! فنحن لا نراك!

وانبعثت الأضواء من مشاعلَ على الجانبين، وانبثق في مغارة يكتنفها الظلام وجهان قانيا الحمرة يتمايلان. صياحٌ في الصفوف الخلفية:

ـ هذان ليسا هُما! لقد هرب الملك!

ولكـنّ القريبـين من الشرفـة شرعوا يصرخـون بفرحِ مَـن ذهب عنه الخوف:

ـ يعيش العشرون!

يتحـرّك الوجهان القانيا الحمرة ببطء، صعوداً وهبوطاً، تارة يضيئهما نـور ساطع أحمر، وتـارة يذوبان في الظلال وهُمـا ينحنيان للناس. ينحنـي للناس التاسع عشـر، والرابـع، والثاني. تنحنـي في الدخان الأحمـر القاني هذه الكائنات المبهمـة التي في أيديها كثير من السلطة غيرِ المفهومة، الإلهيّة تقريبـاً. وفي أعقابهم يمضي القتلة والإعدامات والعظَمـة والخوف إلى أعماق ماضٍ قـاني الحمرة أغبش. لا بد له من أن يتكلـم، لا بد من صوت بشري. فعندمـا يصمت وينحني بوجهه الناري يصبح النظر إليه مرعباً كالنظر إلى شيطان جيء به من الجحيم.

ـ تكلَّم، أيها العشرون! تكلَّم!

إيمـاءة غريبة من يده تدعو إلى الصمـت. إنها إيماءة رهيبة، آمرة، قديمة

Twitter: @ketab_n

قِـدَم السلطة نفسهـا. وإذا بصوتٌ خفيض، غير معـروف، يُلقي إلى الحشد بكلمات قديمة وغريبة:

- إني سعيد برؤية شعبي الطيِّب.

أهذا كلُّ ما هناك؟ ولكنْ هل هذا قليل؟ إنه سعيد! العشرون سعيد. لا تغضـب علينا، أيها العشرون. إننا نحبّك، أيها العشرون، فأحببْنا أنت أيضاً. إذا كنت لن تحبّنا، فإننا سنأتي إليك مرة أخرى في مكتبك الذي تعمل فيه، وإلى غرفة الطعام التي تتناول فيها طعامك، وإلى غرفة النوم التي تنام فيها، وسنجبرك على أن تحبّنا.

- يعيش العشرون ! يعيش الملك ! يعيش السيِّد !

- أيّها العبيد !

مـن قال: أيّها العبيد؟ تخمد المشاعل. إنهم يرحلون. تنكفئ الأضواء الشاحبة عائدة، وتظلم النوافذ، تصبح ضبابية، تمتلئ دماً وتبحث عن أحـدٍ ما في الحشد. تهـرب الغيوم متلفِّتة. هـل كان الملك هنا، أم أن ذلـكَ لم يكـن إلا حلُماً؟ يجـب أن نتلمّسه، أن نلمـس بأيدينا ثيابه، ووجهه، فليصرخْ من الخوف أو من الألم.

يتفرّقون صامتين، وفي وقْع الأقدام المضطرب تضيع صيحات متفرِّقة تندُّ عنهم مفعمـةً بما هو غامض من الذكريـات والتنبّؤات والرعب. وطول الليل تظل ترفرف فوق المدينة أحلام رهيبة.

Twitter: @ketab_n

III

سبق له أن حاول الهرب. لقد سحر بعضهم، ونوّم آخرين. وكان قد بات قريباً من حرّيته الشيطانية عندما عرفه ابن الوطن البارّ متخفّياً في ثياب خادم قذر. ولمّا لم يركن إلى ذاكرته نظر إلى الصورة التي على قطعة عملة معدنية، فدقّت النواقيس منذرة، وقذفت البيوت بالناس الخائفين الشاحبين: هذا هو! إنه الآن في البرج، في البرج الأسود الضخم ذي الجدران السميكة والنوافذ الصغيرة. يحرسه أبناء الشعب البرَرَة الذين لا تغريهم الرشوة والمديح وسحر الجمال. وتفادياً للخوف يشرب الحرّاس ويضحكون، وينفثون دُخان غلايينهم في وجهه مباشرة، عندما يخرج مع أبنائه وأحفاده إلى باحة التنفّس في السجن. ولكي لا يكون في مقدوره أن يسحر المارّة أغلقوا الجزء السفلي من النوافذ بأخشاب ثخينة، وسوّروا أعلى البرج الذي يتنزّه فيه أحياناً نادرة، ووحدَها الغيوم الشاردة كانت تتلفّت وتنظر في وجهه. ولكنه أقوى منها. إنه يحوِّل الضحك الطليق إلى دموع ذليلة؛ وعبر الجدران العريضة ينثر بذور الخيانة والغدر كي تنموَ أزهاراً سوداء بين الناس فتلطّخ ثوب الحرية الذهبي ليغدو شبيهاً بجِلد وحش كاسر. الخونة والأعداء في كل مكان. وينزل عن عروشهم ملوك جبابرة مثلهم أيضاً يجتمعون وهم ذاهبون إلى الحدود مصطحبين معهم جموعاً من الناس المتوحّشين، المغرَّرِ بهم، قتَلة الأمهات القادمين لقتل أمِّهم الحرية. في البيوت، وفي الشوارع، في أقاصي الغابات والقرى، وفي بيوت مجلس الشعب الفاخرة، في كل مكان تفحُّ الخيانة، ويزحف الغدر ظلاً أسوَد. الويل للناس! لقد خانهم أولئك الذين كانوا أوّل من رفع راية

Twitter: @ketab_n

الانتفاضة، رُفاتهم القذرة باتت مرميّة من التوابيت المخدوعة، ودمُهم الأسود روى الأرض. الويل للناس! لقد خانهم مَن قدّموا له الروح، يخونهم نوّابهم المنتخَبون، أصحاب الوجوه الشريفة، والكلامِ الصارم الذي لا يمالئ، والجيوبِ المليئة بذهب الآخرين.

لقد فرغوا من تفتيش المدينة. كانت الأوامر تقول إنه بحلول الساعة الثامنة مساء يجب على الجميع أن يكونوا موجودين في بيوتهم. وحين دقّ الناقوس في الساعة المحددة تدحرجت أصواته المشؤومة تهدر في الشوارع المقفرة الصامتة. لم تعرف المدينة منذ تأسيسها مثل هذا السكون. لا وجود للناس عند النوافير، والمتاجر مغلقة، والشارع من أوّله إلى آخره خالٍ من أيِّ عابر سبيل، ومن أيِّ عربة خيل. تنسلّ بالقرب من الجدران الصامتة قطط مضطربة، ذاهلة، فهي لا تعرف أهذا هو الليل أم هو النهار، ويخيَّل - بسبب هذا السكون - أنك تسمع وقعاً مخملياً لأقدامها المتراكضة. دقّات الناقوس النادرةُ تمرّ على طول الشارع مثل مكانسَ لا تُرى، وكأنها تكنس المدينة. حتى القطط اختفت، خائفة من شيء ما. قفرٌ، سكون.

وتظهر في الشوارع كلّها وفي وقتٍ واحد مجموعات صغيرة من الناس المسلّحين. إنهم يتحدّثون بصوتٍ عالٍ، وبحرّيّة يخبطون الأرض بأقدامهم، وبصرف النظر عن أن عددهم قليل فإن الجَلَبة التي تصدر عنهم تبدو أكبرُ ممّا يصدر عن المدينة كلّها عندما يتحرّك فيها مئات آلاف من الناس والعربات. وواحداً بعد آخرَ وعلى التوالي يبتلعهم كلُّ بيت ثم يعود ثانية فيتقيّؤهم ويتقيّأ معهم أيضاً شخصاً أو شخصين شاحبين من الغيظ، أو أحمرين من الغضب. إنهم يمشون واضعين أيديهم في جيوبهم باحتقار - فما من أحد كان في هذه الأيام

Twitter: @ketab_n

الغريبة يخاف الموت ـ ثم يختفون في غياهب السجون. لقد عثر أبناء الشعب البررة على عشرة آلاف خائن. عثروا على عشرة آلاف خائن وألقوا بهم في السجون. لقد أصبح النظر إلى السجون الآن ساراً ومخيفاً. كم هي مليئة من أعلاها إلى أسفلها بالخيانة والغدر الشنيع. ما هي إلا طرفة عين حتى تنوء الجدران تحت الثقل وتنهار.

لقد عمّت البهجةُ المدينةَ في هذا المساء. ومرّة أخرى كانت البيوت خاوية، مرّة أخرى غصّت الشوارع بالناس، وكان الحشد الأسوَد الذي لا حدود له يتماوج في رقص غريب، مدوِّخ، في تضافر حركات حادّة ومفاجئة. كانوا يرقصونَ من أقصى المدينة إلى أقصاها. عند الفوانيس النادرة في الشارع، ومثل هدير البحر المزبد عند الصخور، كانت تتلألأ دفقات نور، وأيد متشابكة، ووجوهٌ متأجّجة بالضحك، وعيون كبيرة، كلٌ شيء كانَ يدور، ويختفي، ويتبدّل. وبعيداً في الأعماق كان ثمة شيء غير محدد يضطرب، يجتمع ويتفرّق، تارة يدور مثل دوّامة، وتارة يجري متدفّقاً كتيّار. وعلى واحد من أعمدة الفوانيس كان يتأرجح مشنوق، خائنٌ لم يُقدَّر له أن يصل إلى السجن. كانت رؤوس الراقصين تلامس رجليه المتدلِّيتين المتشوِّقتين بنهم إلى الأرض، فيخيَّل بسبب ذلك أن هذا المشنوق نفسه يرقص، وأنه قائد الجوقة الموسيقية الرئيس الذي يدير الرقص.

ثم ساروا نحو البرج الأسود، وراحوا يصرخون بالجدران العريضة رافعين رؤوسهم:

ـ الموت للعشرين ! الموت !

كانت تتَّقد في فتحات الرمي أضواء دافئة، إنهم أبناء الشعب البررة

Twitter: @ketab_n

يحرسـون الطاغية. كانوا مطمئنّين، واثقين من أنـه موجود هنا ولا يستطيع الهرب، يصرخون بقصد المزاح أكثر ممّا بقصد أن يخيفوه:

- الموت للعشرين !

ثـم كانوا ينسحبون كي يفسحوا المـكان لمشاركين جددٍ في الصراخ. وفي الليـل عادت الأحلام المرعبة تحوم فـوق المدينة من جديد. ومثل سُمّ دخـل جسمَها و لم يخرج، كانت تحرق جوفَهـا الأبراجُ السوداء والسجون التي تمزِّقها الخيانةُ والغدر.

كانوا قد بدأوا بقتل الخونة. لقد شحذوا السيوف والفؤوس والمناجل، وتسلّحـوا بالأخشاب الثخينة والأحجـار الثقيلة، وأمضوا يومين من العمـل المتواصل في السجون إلى أن يهدّهـم التعب. كانوا ينامون في أيّ مـكانٍ حيثما اتّفق، وفي المكان نفسه كانوا يأكلون ويشربون. لقد كلّت الأرض عن تشرُّب الدم الكثيف، وكان لا بد من نثر التبن عليها، إلا أن التـبن أيضـاً كان قد تحول إلى زبلٍ بنّيّ اللـون. كان عدد القتلى سبعة آلاف. سبعة آلاف خائن طوتهمُ الأرض من أجل تنظيف المدينة ومنحِ الحياة للحرّية الفتيّة.

ومرّة أخرى كانوا يذهبون إلى العشرين حاملين إليه الرؤوس المقطوعة، والقلـوب المنزوعة من الصدور. وكان ينظر إليها. وفي مجلس الشعب كان يخيّم الاضطراب والرعب، إذ كانوا يبحثون عمّن أمر بالقتل ولا يجدونـه. غير أن ثمّـة من أعطى الأوامر. ألستَ أنـت؟ ألستَ أنت؟ ولكنْ من ذا الذي يجرؤ على إعطاء الأوامر ما دامت السلطة في أيدي مجلس الشعب وحدَه؟ ثمّة بعضٌ يضحكون، إنهم يعرفون شيئاً.

- أيها القتلة !

Twitter: @ketab_n

ـ كلا ! بل نحن نعطف على وطننا، وأنتم تعطفون على الخونة.

غير أن الطمأنينة لا تأتي، والخيانة تنمو وتزداد، وتتسرّب إلى صميم قلب الشعب. ما أكثر ما كان من عذاب، ما أكثر ما أُريقَ من دماء، وكل ذلك سُدى! وعبر الجدران العريضة يواصل الملكُ اللغزُ بثَّ الخيانة والسحر. الويل للحرية! من الغرب تأتي أخبار مرعبة عن فِتَنٍ مرعبة، عن معارك، عن جـزء انشقّ عن الشعـب المجنون الذي انتفض بالسـلاح ضد أمّه الحرية. من الجنوب تنهال التهديدات تباعاً. من الشمال والشرق يزداد اقـتراب الملوك الألغازِ الذين نزلوا عن عروشهم مصحوبين بجحافلهم المتوحِّشة. الغيوم مفعمة بأنفاس الأعداء والخونة أيّاً كانت الجهات التي تأتـي منها. وسواءٌ أهبَّ الهـواء من الشمال أم من الجنوب، من الغرب أم من الشـرق، فإنه يأتي نابضاً بالأخطار والغضـب، ويتردَّد فرَحاً في آذان المحبوسـين في الـبرج، ورنينـاً جنائزيـاً في آذان المواطنين. الويل للشعب! الويل للحرّيّة! القمر في الليالي ساطع يتألّق كأنه فوق أنقاض، والشمس تَدخل كلَّ مساء في الضباب، فيخنقها فيض من غيوم سوداء سارحـة، حدباء، شائهة، شنيعة في غرابتهـا. تحيط بها غيوم، تخنقها، وتنهار معها كتلةً قانية واحدة وراء الأفق. قبل قليل تمكّنَتْ من اختراق السحـب والإشراق مدّة دقيقة واحدة فانبثق شعـاع شدَّ ما كان كئيباً، ومرعباً وخائفاً! شعاع عَجولٌ رقيـق عانق أعالي الأشجار، والبيوت، والكنائس، وألقى نظرة من عينيه الكبيرتين، الساطعتين والمرعبتين، ثم أظلـم وذاب، وانطفـأ، فانقلبت السحابة مثل سلسلـة جبلية شعثاء في المحيط البعيد، آخذة معها الشمس. الويل للشعب! الويل للحرية!

والساعاتـي الأعور الذي يهون عليه كثـيراً أن ينظر في العدسة يتمشّى على البرج بين التروس والعجلات الصغيرة، بين الأذرعة والحبال، يميل

Twitter: @ketab_n

برأسه جانباً وينظر إلى حركة البندول الضخم.

ـ هذا ما كان، وهذا ما سيكون، هذا ما كان، وهذا ما سيكون.

ذات مرة، يوم كان الساعاتي ما يزال فتيّاً بعد، تعطّلت الساعة وتوقفت مـدّة يومين كاملين. وكان ذلك مرعبـاً رعباً خُيِّل معه وكأن الزمن كلّه بـدأ علـى الفور بالسقوط في مـكان ما، بكلِّ كتلته التـي لا يحيط بها قياس. وعندما أصلحـوا الساعة عادت الأمور حسنـة من جديد. إن الزمـن يتسرّب الآن من بين الأصابع، يتساقط قطرة قطرة، يتقطّع قِطَعاً صغيرة، وينقضي لحظة إثـر لحظة. ويشعّ القرص المعدني الضخم باهتاً في حركتـه، وهـو يومض أصفـر في العين المزمومـة، ويمامةٌ تهدل في مكان ما على حامل الستارة.

ـ هذا ما كان، وهذا ما سيكون. هذا ما كان، وهذا ما سيكون.

IV

– لقـد سقطت الملَكيـة التي عاشت ألف عام. لم يكن هناك من حاجة للتصويـت بالأسماء، فقد نهض كل مـن كان في مجلس الشعب فغصَّ بالواقفـين من عاليه إلى أسفله، كأنهم نبتـوا. ونهض أيضاً ذلك النائب المريض الذي جاؤوا به في كرسـي، يسنده أصدقـاؤه وقد مدَّ رجليه المسنّتيـن اللتين حطّمهما الشلـل، ووقف مثل جذمـورٍ يابس طويل، تسنده شجرتان شابّتان.

ـ لقـد تمّـت الموافقة على إعـلان الجمهورية بالإجمـاع، ـ قال أحدهم بصوتٍ رنّانٍ عبثاً يحاول إخفاء بهجته.

Twitter: @ketab_n

ولكـن الجميع واقفون. تمرُّ دقيقـة وأخرى. وفي الساحـة التي تغصّ بالناس المنتظرين كان قد ارتفع هديرُ فرح كأنه الرعد، بينما كان يسود المجلسَ صمتٌ وسكينـة كما في الكنيسة. وكان الناس فيه صارمين، وقورين بإجـلال وقد تجمّدوا في هيئة تنمُّ عن اعتـزاز وتبجيل. فأمام مـن هم واقفون؟ إن الملك لم يعـد موجوداً، فلا وجود إذاً للإله، ذلك الطاغيـة في السماء، فقد أُسقـط عن عرشه السماوي منذ زمن طويل. إنهـم واقفون أمـام الحرية. النائب العجوز، الذي تصـكّ رأسَه رجفةُ الشيخوخـة منـذ سنوات طويلة، يتحكّـم الآن برأسه تحكـذُم شباب وكبرياء. ها هـو يُبعد أصدقاءه بحركة خفيفة مـن يده، ويقف وحدَه دون معـين، فقد حققت الحريةُ هذه المعجزة! لقـد نسيَ هؤلاء الناسُ عادةَ البكاء منذ عهد بعيد، إنهم يعيشون بين عواصف التمرّد والدماء، ولكنهـم الآن يبكون. وعيون الصقور القاسيـةُ التي لم يكن يرفّ لها جفـن وهي تنظر الشمس الدامية، شمسِ الثورة، ها هي الآن هادئة لا تستطيع النظر إلى بريق الحرية الرقيق، وها هي تبكي.

في القاعـة صمـت. ووراء النوافذ هديرٌ يـزداد قوّة وانتشـاراً ويفقد حدّتـه، يشبه باستوائه وجبروته هدير محيـط بلا ضفاف. هؤلاء الناسُ كلُّهـم الآن أحـرار. حرٌّ مَن يموت، حرٌّ من يولـد، حرٌّ من يعيش. لقد انهـارت السلطة اللغز، سلطة الواحد الـذي أبقى الناس آلاف السنين في القيود، انهارت السقوف السوداء في السجون، وأشرقت الشمس صافية فوق الرؤوس.

- الحريـة ! - يهمس أحدهم بصوت خفيض، رقيق، كمن يهمس باسم حبيبته.

- الحريـة ! - يهمـس أحدهـم وهـو يغصُّ بفرحة لا حدود لهـا، كلّه

Twitter: @ketab_n

طموح، كلّه إلهام وتحليق.

الحرية ! ـ يرنُّ الحديد.

ـ الحرية ! ـ تغنّي الأوتار.

ـ الحرية! ـ يهدر المحيط المتعدد الأصوات.

لقد مات، النائب العجوز مات. قلبُه لم يتحمّل الفرح الذي لا حدود لـه فتوقّـف، وكانت آخر دقّاتـه: الحرية. إنـه الأسعد بـين البشر! إنه سيحمل معه إلى الظل الخفيّ في قبره حلُمَه اللانهائي عن الحرية الفتيّة.

في المدينـة كانوا يتوقّعون الجنون، ولكنه لم يـأتِ. فقد جعلت أنفاسُ الحريـة الناسَ نبـلاء، وصاروا لطيفين، ورقيقـين، وحكماء في إظهار فرحهم كالبنات. حتى إنهم لم يرقصوا. كانوا يكتفون بالنظر بعضهم إلى بعض، وبتدليل بعضهم بعضاً بلمساتٍ حذرة بالأيدي: ما أطيبَ تدليـلَ الإنسانِ الحر والنظرَ في عينيه! و لم يشنقـوا أحداً. وكان هناك مجنـون صرخ وسط الحشد: «يعيش العشرون!» ـ وفتّل شاربَيه واستعدّ لخوض عراكٍ قصير مع سكرةِ موتٍ طويلة في أحضان الشعب المهتاج المميتة. وكانَ البعض قد قطّبوا حواجبهم، فيما لم يفعل البعضُ الآخر، الأكثرية، إلا أن تعجّبوا ومضوا بفضولٍ يتفحّصون ذلك الذي صرخ، مثلما يتفحّص جمهورٌ من المتبطّلين في الميناء قرداً جيء به من البرازيل.

ثم أطلقوه.

لم يتذكـروا العشريـن إلا في وقـت متأخـر مـن الليـل. كان ثمّة من المواطنـين الذين لم يستطيعوا بحال مـن الأحوال أن يفارقوا هذا اليوم العظيـم فقرروا أن يتجوّلـوا حتى الفجر شرذمةٌ قـد تذكرت العشرين

Twitter: @ketab_n

مصادفة، واتجهت صوب البرج. كان البرج الأسود يكاد يمّحي في السماء، وكان لحظة اقتراب المواطنين منه يبتلع إحدى النجوم. كانت نجمة صغيرة ساطعة قد دنت قريباً منه فتلألأت ثم اختفت في الفضاء المظلم. وعلى ارتفاع قليل جداً عن الأرض كان الضوء ينبعث دافئاً من نافذتين صغيرتين، هناك كان الحرّاس سهرانِين.

دقّت الساعة الثانية صباحاً.

- هل هو يعرف أم لا؟ - قال أحد الذين وصلوا، وهو يدقق النظر عبثاً في كتلة سوداء هائلة الحجم محاولاً أن يكتشف كنهها. فانفصل عن الجدار خيال قاتم، ثم أجاب صوتٌ ذابل، تعِب:

- إنه نائم، أيها المواطنون.

- ومن أنت، أيها المواطن؟ لقد أخفْتَنا، فأنت تمشي بهدوء مثل قطّة.

وتقدّم من مختلف الجهات عدد آخر من الخيالات القاتمة التي توقّفت صامتة أمام القادمين.

- ما لك لا تجيب؟ إذا كنتَ شبحاً فلْتنصرف سريعاً، فقد منع المجلس ظهور الأشباح.

وبالذبول نفسه ردَّ مجهول:

- إننا نحرس الطاغية.

- هل الكومونة عيّنتكم؟

- كلا، نحن عيّنّا أنفسنا. إن عددنا هنا ستة وثلاثون رجلاً. كنا سبعة وثلاثين، ولكنّ واحداً منّا مات. إننا نحرس الطاغية. ومنذ شهرين،

Twitter: @ketab_n

وربّما أكثر، ونحن نعيش بالقرب من هذه الجدران. لقد تعِبنا.

ـ إن الأمة تشكركم. هل تعرفون ماذا حدث اليوم؟

ـ نعم، لقد سمعنا شيئاً ما. نحن نحرس الطاغية.

ـ وتعرفون أنه جاءت الآن الجمهورية، جاءت الحرية ؟

ـ نعم، نحن نحرس الطاغية. لقد تعبنا.

ـ فليقبِّلْ بعضُنا بعضاً، أيها الإخوة.

وبفتورٍ لامست الشفاه الباردة أفواهاً حارّة.

ـ لقد تعبنا. إنه شديد الدهاء والخطورة. عيوننا تراقب جميع الأبواب والنوافذ ليلَ نهار. وأنا أنظر إلى تلك النافذة، أنتم لن تجدوها الآن. تقولون: الحرية؟ هذا حسن. ولكن يجب علينا أن نذهب إلى مواقعنا. اطمئنّوا، أيها المواطنون، إنه نائم. نحن نستلم معلومات كل نصف ساعة. إنه نائم.

تمايلت الأشباح، ابتعدت. اختفت وكأنها غابت في الجدار. وكأن البرج الأسود ازداد ارتفاعاً، ومن زاويته اليسرى كانت تمتدّ باتجاه المدينة سحابة قاتمة عديمة الشكل. وخيِّل أن البرج يكبر ويمدّ ذراعَيه. وفجأة انبثق ضوء وصوت في ظلمة الجدار الدامسة، شيء شبيه بالإشارة. امتدّت السحابة فوق المدينة واصفرَّت من لهيب النيران. وتساقط رذاذ مطر. كان هدوء وقلق.

هل هو نائم حقاً ؟

Twitter: @ketab_n

V

ثمّ مرّت بضعة أيام أخرى من الأحاسيس الجديدة الحلوة، أحاسيس الحرية، ومرّة أخرى امتدّت، مثل عروق سوداء في مرمرٍ أبيض، خيوط قاتمة من الخوف وانعدام الثقة. لقد استقبل الطاغية خبر خلعه بطمأنينة مريبة. ولكنْ كيف يكون مطمئناً إنسان يُجرَّد من مملكته، إن لم يكن قد بيّت في نفسه شيئاً رهيباً؟ وكيف يمكن لشعب أن يكون مطمئناً ما دام يعيش بين صفوفه شخص غامض يتمتّع بقوة سحر قاتلة؟ إنه يظل مرعباً وهو مخلوع؛ ويظل وهو سجين، يتكيّف على هواه بسلطته الشيطانية المتعاظمة عن بعد. كذلك هي الأرض القاتمة عن كثب، تبدو نجمة ساطعة عند النظر إليها من عمق الفضاء الأزرق. بل وحتى عن كثب ثمة من يبكون عذاباته. لقد شاهدوا امرأة تقبّل يد الملكة، شاهدوا حارساً يمسح دمعة عن عينيه، سمعوا خطيباً يدعو إلى الرأفة. لكأنه حتى في هذا الوقت ليس أسعد حالاً من آلاف الناس الذين لم ترَ عيونهم النور يوماً، والذين مرّة إثر مرّة يريدون أن يقدّموهم قرباناً له. مَن يكفل ألا تعود البلاد منذ الغد إلى جنونها القديم، وألا تزحف راكعة على ركبها تتوسّل منه الغفران، وألا تعود من جديد فتبني العرش الذي حطّمته بهذا القدْر من المشقّة، وهذا القدْر من الألم!

يستشيط الشعب غضباً وخوفاً وهو يستمع بملايينه الكثيرة إلى خطابات مجلس الشعب. يا لها من خطابات غريبة، وكلام مخيف! إنهم يتكلّمون عن حصانته، عن أنه محصّن لا يُمَسّ، وأنه لا يجوز أن يحاكَم مثلما يحاكَم الآخرون، ولا يجوز أن يُعاقَب كما يعاقَب الجميع، ولا يجوز قتله لأنه ملك. وهذا يعني أن الملوك ما زالوا موجودين! ذلك

Twitter: @ketab_n

ما يقولونـه وهم يُقسِمون أنهم يحبّون الشعب والحرية، ذلك ما يقوله أناسٌ مشهـود لهم بالنزاهة، أعداء للطغيان، أبناء الشعب الطالعون من صميـم أعماقه، أُناس عذّبتهم سلطة الملـوك التجديفية تعذيباً لا رحمة فيه. فيا لَلعمى الشنيع!

لقد بـات الأكثرية ميّالـين إلى جهة المخلـوع، وكأن الضباب الأصفر القـادم من البرج قد اخترق حدود العقل الشعبـي المقدّسة، فهو يعمي العيـون البصيرة، ويخنـق الحريةَ الفتية، هـذه العروسَ الشابّة المكللة بالـورود البيضاء، العروسَ التي أدركها الموت في ساعة زفافها المهيب. يتسلـل الحزن والقنـوط إلى القلوب، وكثيرة هي الأيـدي التي تتلمّس السلاح، إذ خيرٌ لنا أن نموت مع بروتوس من أن نعيش مع أوكتافيوس.

الصيحات الأخيرة مفعَمة باستياء مميت:

- إنكم تريدون أن يكون في البلاد إنسان واحد فقط، وخمسة وثلاثون مليوناً من البهائم!

أجـل، هذا ما يريـدون. إنهم يصمتون خافضـين أبصارهم، فقد تعبوا مـن النضال، تعبوا من التمنّـي. وفي تعبهم: في تمطّيهم وتثاؤبهم، وفي خطاباتهم الحائلة اللون، ولكنها خطابات باردة لها فعل السحر، باتت تلـوح معالم العرش. ثمة صيحـات متفرِّقة، خطابـات كابية، وغدرٌ جَماعـيٌّ صامـتٌ صمتاً أعمى. ها هـي الحرية تهلِك، هـذه العروسُ المسكينـة في إكليلٍ من الورود البيضـاء، العروس التي لاقت حتفها في ساعة زفافها المهيب.

اسمـعْ! إنـه صدى وقْـع أقدام. إنهـم قادمون. كأن عشـرات الطبول العملاقة ترسل دقّات ثنائية متناوبة سريعة. ترام - ترام - ترام. الضواحي

Twitter: @ketab_n

قادمـة. ترام ـ ترام ـ تـرام. إنهم قادمون للدفاع عن الحرية! ترام ـ ترام ـ ترام. الويل للخونة. ترام ـ ترام ـ ترام. الويل للغادرين.

ـ الشعب يطلب السماح له بالمرور أمام المجلس.

وهـل يمكن الوقـوف أمام جبلٍ من الثلج ينهار؟ مـن يجرؤ على القول لهزّةٍ أرضية: أرضك تنتهي هنا، فلا تتعدّيها!

تنفتـح الأبواب على مصاريعهـا: تلك هي الضواحـي! وجوهٌ ترابية. صدورٌ عارية. فانتازيا لانهائية من الأسمال المتعددة الألوان التي تنوب عـن الثيـاب. خُيلاءُ حركاتٍ وثّابـة، منفلتة. اضطـرابٌ منتظم شرير. فوضٍ تمشي مِشية عسكرية. ترام ـ ترام ـ ترام. عيونٌ تتّقد ناراً. عِصيٌّ، مناجلُ، مَذارٍ. أوتاد سياج. رجال، نساء وأطفال. ترام ـ ترام ـ ترام.

ـ يعيش ممثِّلو الشعب ! تعيش الحرية ! الموت للخونة !

النوّاب يتبسمـون، يعبسون، ينحنون بالتحية. يصـاب الرأس بالدوار من هـذه الحركة اللانهائية، الملوّنة، مثل نهـرٍ متدفّقٍ يجري في مغارة. الوجوه كلّها تغدو شبيهة بوجهٍ واحد. الصرخات كلّها تلتحم في هديرٍ واحـد مديد. وقعُ الأقدام يصبح شبيهاً بوقْع قطرات مطرٍ على السطح فيجلب النوم، يشلّ الإرادة، يتغلغل في الوعي. سطحٌ عملاق، قطرات عملاقة.

ـ ترام ـ ترام ـ ترام.

يهطـل المطـر ساعـة، يهطل ساعتـين وثلاثاً. يبـدو أن الليـل قد حلّ. يتصاعـد دخان نيران قرمزية حمراء. ثمة فجوتان سوداوان ـ تلك التي يتدفّـق منها الناس، وتلك التي يختفون عبرهـا ـ مثل شدقين مفتوحين على سعتهمـا: كأنهما شريط أسود ينسكب نحاسـاً وحديداً يترجرج

Twitter: @ketab_n

بين شدق وشـدق. عيونٌ منهكَة تتخيّل أشباحـاً. تارة حزام لانهائي، وتارة دودة ضخمـة، منتفخة، يغطيها الشعر. مَـن هـم جالسون فوق الباب يتخيَّلون أنهم فوق الجسـر، وأنهم يبدؤون بعبور الماء. يراودهم وعيٌ صافٍ، حَيٌّ وغير عادي في بعض الدقائق: لا، إنه الشعب! كبرياء وشعور بالقوة، وتعطّش للحرية العظيمة التي لم يسبق لها مثيل من قبلُ. إنه الشعب الحر، يا للسعادة!

ـ ترام ـ ترام ـ ترام.

إنهم يسيرون منذ ثماني ساعات، وما من نهاية لتدفُّقهم حتى الآن. ثمّة أغنية ثورية تهدر من الجهتين: الجهة التي يأتي منها الشعب، وتلك التي يغيـب عبرها. كلماتها مسموعة بالكاد، لا تصـدر عنها جلَبةٌ باستثناء إيقاعـات موسيقية، أصـواتِ سقوط ونهوض، لمحـةُ بصرٍ من سكونٍ ثم انفجـاراتٌ رهيبة. إلى السلاح، أيها المواطنون! تجمّعوا في كتائب! فلْنمشِ ـ فلْنمشِ!

يسيرون.

لا حاجة للتصويت. لقد تمَّ إنقاذ الحرية مرّة أخرى.

VI

جـاء اليوم العظيـم لمحاكمة الملك. سيكـون على السلطـة الغامضة، القديمة قدِمَ العالم أن تمثُلَ في محكمة أمام الشعب الذي استعبدته آلاف السنـينَ، أمام العالم الذي ألحقت به العار بكونها شيئاً سخيفاً معظّماً. السلطة المحرومة من أبواق التهريج والعرشِ المطليّ بالذهب، المجرَّدة مـن الألقاب الرفيعـة ومن جميع ما للسلطة من هـذه الرموز الرهيبة،

Twitter: @ketab_n

سوف تمثُلُ عارية أمام الشعب وتعطي جواباً واضحاً: لماذا كانت سلطة، ما الذي أعطاها القوّة والحق من أجل حكم الملايين في شخصٍ واحدٍ يمارس الشر والعنف من غير ما عقاب، ويمنع الحرية، ويسبِّب الموتَ والجروح؟ العشرون محكومٌ عليه سلفاً من قِبل ضمير الشعب كله. إننا لا نرحمه ولن تأخذنا به رحمة، ولكنَّ عليه أن يكشف قبل إعدامه عن روحه الغامضة، وأن يُطلِع الناس ليس على أعماله - فالجميع يعرفونها - وإنما على أفكار الملوك ومشاعرهم. هذا التنين الأسطوري، الذي كان يأكل الفتيات ويرعب البلاد، مقيَّد بالسلاسل، يجرّونه إلى ساحة المدينة، وسيرى الناسُ الآن ظهره الذي تغطّيه الحراشف، ولسانه المشقوق نصفين، وشدقيه الظالمين اللذين ينفثان ناراً.

كان ثمّة ما هم خائفون منه. فقد كانت الجيوش تتحرك منذ الليل في الشوارع الهادئة في مختلف الاتجاهات، فتمتلئ بضوضائها الساحات ومداخل البيوت، وتجعل طريق الملك كلّهاَ غابة من الحراب وجداراً من الوجوه المكفهرّة، الصارمة، المهيبة. وفوق الظلال السوداء التي تلقيها المباني والكنائس المدببة الأبراج، المربّعة المائعة بطريقة غريبة في غبش الفجر كما يشعّ نورٌ ضعيف من السماء الغائمة الضاربة إلى الصفرة، سماءِ المدينة الباردة، القديمة كبيوت يغطّيها السخام والصدأ كأنها نقشٌ في إحدى قاعات قصرِ فرسانٍ قديم.

كانت المدينة نائمة في انتظارٍ قاسٍ ليوم عظيم رهيب، فيما كانت جماهيرُ منتظمة من المواطنين الذين تحوّلواً إلى جنودٍ تسير في الشوارع متحكِّمةً بوقْع أقدامها الثقيل، وكانت المدافع تزحف بجَلَبة وقحة، خافضة ذقونها إلى الأرض، وعلى كلِّ منها سراجٌ يومض بضوءٍ مشوبٍ بالحمرة. كانوا يُلقون أوامر متقطِعة، بنصف صوت، بما يشبه الهمس،

Twitter: @ketab_n

كأنهم خائفون من أن يوقظوا شخصاً نائماً نوماً مضطرباً ومرهَفاً. لم يكن أحدٌ يعرف إن كانوا خائفين على الملك، على سلامته، أم كانوا خائفين من الملك نفسه. غير أن الجميع كانوا يعرفون أن عليهم أن يستعدّوا، أن يستنهضوا ويستجمعوا كل ما لدى الشعب من قوة.

تأخّر طلوع النهار طويلاً. ثمة غيوم صفراء متّصلة، منفوشة، وسخة، كأنما لُطّخت بخرقة رطبة كانت تتهدّل عابسة فوق أبراج النواقيس. وفي لحظة خروج الملك من البرج تماماً اشتعلت الشمس بوهج أزرق. إنه فألُ سعدٍ بالنسبة للشعب، وتحذير خطير للطاغية.

كانوا ينقلونه بهذه الطريقة: في ممرٍّ ضيِّق مؤلَّف من صفٍّ متَّصل من العساكر، كانت تسير فصائل مسلّحة، متلاحقة: فصيل أوّل، فصيل آخَر، عاشرٌ... لا يمكن عدّها. وها هي المدافع: تقعقع، تقعقع، يليها عربة خيل قاتمة اللون تسير بالكاد، محاطة بأعداد كبيرة من البنادق، والسيوف، والحراب. ثم تليها أيضاً مدافع وفصائل. وعلى امتداد هذا الطريق الطويل كان السكون يحيط بالعربة من كل صوب: أمامها، ووراءها وحولها. وفي مكان ما من الساحة أطلق عدد من الأشخاص صرخة مدوّية متلجلجة:

ـ الموت للعشرين!

ولكنها تفرقت وصمتت عندما لم يردِّدها الحشد. مثلما في عملية صيد خنزير برّيّ لا يصدر صوت إلا عمّن يدفعون بالحيوان إلى الفخ، فيما يلوذ الصيادون والطريدة بالصمت استجماعاً للحقد والقوّة.

في المجلس ضجيج مضبوط وأحاديث. إنهم منذ بضع ساعات ينتظرون الطاغية الذي يزحف ببطء شديد، ويتمشّون في الممرِ جيئة

Twitter: @ketab_n

وذهاباً متوتّرين، يغيّرون أماكنهم كلَّ دقيقة، يضحكون بلا سبب، ويثرثرون بحيوية حول شيء ما. ولكنّ كثيرين منهم جالسون في هيئة تماثيلَ حجرية لا يتحرّكون، تشبه وجوههم الحجر. وجوهٌ شابّة، ولكن بتجاعيدها قديمة، عميقة كأنها حُفرت بفأس. شعورهم خشنة. عيونهم تارةً شريرةٌ غائرة في أعماق الجمجمة، وتارةً شاخصة بتوتّر إلى الأمام، شديدة الاتّساع، كأنها عديمة الحواجب، مثل فوانيس المحارس السوداء في أسوار السجون. ما من شيء مرعب في العالم لا تستطيع أن تنظر هذه العيون إليه دون خوف. ما من شيء قاسٍ، حزين، شبَحيّ غامض ترتعد أمامه هذه النظرة الفائقة السخونة في مرجل الثورة. أولئك الذين كانوا أول من بدأ هذه الحركة العظيمة ماتوا من زمان، تشتتوا في أرجاء الأرض، طواهم النسيان. لقد طوى النسيان أفكارهم، آمالهم والأحلام. ما كان من هدير خطاباتهم يشبه خشخاشة في يدَي طفل. حرّيتهم العظيمة التي كانوا يحلمون بها سريرُ أطفال يغطّيه قماش رقيق يحمي من الذباب والنورِ الساطع في النهار. أناسٌ صغار، غريبون، أقزامٌ ينحتون جبلاً. أمّا هؤلاء فقد ترعرعوا بين العواصف وعاشوا في العواصف. إنهم أبناء الأيام العصيبة المحبوبون، أيام الرؤوس المدمّاة التي يحملونها مثل بطِّيخ[٣٤] على رماح خشبية، والقلوب الإسفنجية اللحيمة التي يعصرون منها الدم. أيّام الخطابات الجبارة العملاقة التي كلُّ كلمة فيها خنجرٌ مسنون، وكلُ فكرة أشدّ فتكاً من البارود. إنهم لا يخضعون لشيء غيرِ إرادة الشعب العظيم، وقد استدعوا شبح السلطة الغامضة، وهم الآن باردون مثل علماء التشريح، مثل القضاة، مثل الجلادين، يدرسون ألَقَه الأزرق الذي

٣٤- الكلمة الروسية (طيكفا) هي اسم لنوع من الخضار الأرضية كالبطيخ، ضخمة، ثقيلة، غليظة القشر

Twitter: @ketab_n

يخيف الجهلة والمتطيّرين، وسوف يفصلون أعضاءه الشبحية لكي يعثروا على ما في الطغيان من سُمّ أسوَد ثم يُسْلمونه للإعدام الأخير. وإذا بالضجيج يهدأ خلف الجدران، ويغدو السكون عميقاً وأسود مثل السماء في الليل، وإذا بالمدافع تهدر وهي تقترب. ثم تصمت. ثمة حركة خفيفة عند المدخل. الجميع جالسون، يجب عليهم أن يستقبلوا الطاغية جالسين. إنهم يحاولون أن يبدوا لامبالين. يصدر عن الفصائل التي تنتشر في المبنى وقْع أقدام ثقيل، وصليل أسلحة خفيض. المدافع تنهي هديرها وراء الجدران. إنها تحيط بالمبنى إحاطة سِوارٍ من حديد. سبطاناتها موجَّهة إلى الخارج، إلى العالم كلِّه - إلى الغربِ والشرق، إلى الشمال والجنوب.

دخل شيء صغير.

لقد جاء من الصخور العليا البعيدة. إنه إنسان سمين، قصير القامة، حركاته سريعة ولكنّها مضطربة، تراه عن كثب سميناً، رَبْعَ القامة، له أنفٌ كبير تضرّج حمرة من البرد، وجلدٌ متهدّلٌ على خدَّيه، وعينان صغيرتان، باهتتان هما خليطٌ يعبِّر عن طيبة قلْب، وعن تفاهة وغباء. إنه يتلفَّت برأسه، لا يعرف إن كان عليه أن ينحني محيِّياً أم لا. ينحني قليلاً. يقف مضطرباً على قدميه المتباعدتين، لا يعرف إن كان يحقّ له أن يجلس أم لا. الجميع صامتون، غير أنّ ثمّة كرسيّاً خلفه، يبدو أنه وُضِع من أجله، فيجلس قليلاً في البداية، ثم يعدّل جلسته، ثم يتّخذ وضعيّة كبرياء وعظمة. كأنه مصاب بالزكام. إنه يُخرِج منديله على عَجَلٍ ويتمخّط فيه بسرورٍ مرتين متتاليتين، فيُصدر من أنفه كلَّ مرّة صوتاً حادّاً كأنه صوت بوق. ثم يستدرك فيخبِّئ منديله بمهابة.

إنه العشرون.

Twitter: @ketab_n

VII

كانوا ينتظرون الملك فجاء المهرِّج. كانوا ينتظرون تنِّيناً فجاء بورجوازيٌّ كبير الأنف يحمل منديلاً. إنه مضحك وغريب، ومرعبٌ قليلاً. أليس هذا نوعاً من الغش؟

ـ أنا الملك، ـ يقول العشرون.

أجل، إنه الملك. كم هو مضحك! هكذا يكون الملك! ابتسم الجميع وهزّوا أكتافهم وهم بالكاد يتمالكون أنفسهم من الضحك، ومن أوّل المكان إلى آخره راحوا يتبادلون فيما بينهم إشارات البشاشة والاحترام، وكأنهم يسألون:

ـ هل يعجبكم؟

أمّا النوّاب فكانوا وقورين، شديدي الوقار، بل وشاحبين، لعلّهم كانوا يشعرون بثقل المسؤولية، إلا أن الناس كانوا يتهجون بهدوء. كيف أتيحَ لهم أن يتسلّلوا إلى المجلس؟ كانوا يتسرّبون مثلما يتسرّب الماء، عبر النوافذ العالية، عبر شقوقٍ ما، ومن ثقوب الأقفال تقريباً. مئات من المجهولين الذين يرتدون ما يفوق الخيال من الأسمال الرثّة المتنوِّعة الألوان، ولكنهم في غاية البشاشة والتهذيب. كانوا يسألون النائب وهم يضيِّقون عليه:

ـ هل أضايقك، أيها المواطن؟

إنهم مهذّبون جدّاً. يتجمّعون على حوافّ النوافذ أعشاشاً قائمة كاملة

Twitter: @ketab_n

كالعصافـير، يحجبون النور وبحركات من أيديهم يُبرِقون إلى الساحة تحتهم بشيء يبدو أنه مضحك.

غير أن النوّاب كانوا وقورين، وقورين للغاية، بل وشاحبين. فقد كانوا يصوِّبون عيونهم الجاحظة، مثل عدسات مكبِّرة، إلى العشرين، ينظرون إليه طويلاً وبغرابة، ثم يشيحون عنه بأنظارهم عابسين. بعضهم كانوا يُغمضون عيونهم كأنهم يتقزّزون من النظر إلى الطاغية.

ـ أيها المواطن النائب! ـ برعبٍ مرِحٍ يهمس أحد المجهولين المبتهجين.
ـ انظرْ إلى عينَي الطاغية كيف تلتهبان.

ومن غير أن يرفع جفنيه المسبَلين:

ـ نعم.

ـ كم ارتوى من دمنا !

ـ نعم.

ـ غير أنّك لستَ ممّن يحبّون الثرثرة، أيها المواطن !

يسود الصمت. أمّا في الأسفل فيغمغم العشرون بكلام ما. إنه لا يفهم فيـمَ يمكن أن يتهمـوه ؟ فقد كان دائمـاً يحب شعبـه، وكان الشعب يحبّـه. وهـو يحب الشعب في هـذا الوقت أيضاً، بصـرف النظر عن جميـع الإهانـات، وإذا كانوا يعتقـدون بأن الجمهوريـة هي الأفضل للشعب فلْتكن الجمهورية، لا اعتراض لديه على ذلك.

ـ ولكنْ لماذا، إذاً، دعوتَ الطغاة الآخرين للحضور؟

ـ أنا لم أَدْعُهم، بل هم جاؤوا من تلقاء أنفسهم.

Twitter: @ketab_n

جواب كاذب. فالوثائق التي عُثر عليها في مخبأ سرّي تؤكد حقيقة المباحثات. ولكنه يتكتّم بفظاظة وغباء مثل أي نصّاب ضُبط بجرم الغش المشهود. بل وهو يبدي الاستياء مدّعياً أنه في جوهر الأمر كان دائماً لا يفكّر إلا بالشعب. ليس صحيحاً أنه ظالم، فقد كان رحيماً دائماً بمن يستحقّ الرحمة. ليس صحيحاً أنه نهب الدولة، فقد كان يقتِر على نفسه مثل أيّ من المواطنين غيرِ الأثرياء. إنه لم يكن في يوم من الأيام فاجراً، ولا مبذّراً. وهو يحبّ كبار الأدباء الإغريق واللاتين ومهنة النجارة، فكلّ الأثاث الذي في مكتبه من صنع يديه.

هذا صحيح. بل ونحن إذا ما أمعنّا النظر وجدْنا أن مظهره مظهرُ بورجوازيّ متواضع. إذ إن هؤلاء البدينين الذين لأنوفهم الكبيرةِ صوتُ بوقٍ يمكن أن تصادف كثيرين منهم في الأعياد على النهر حيث يُمضون ساعات في صيد السمك. إنهم أناس تافهون، مضحكون، كبار الأنوف.

ولكنه كان ملكاً! فما معنى ذلك؟ هل معناه أن كلّ شخص يمكن أن يكون ملكاً، وأن يصبح حتى الغوريلا حاكماً مطلقاً على الناس؟ وأنهم سيقيمون له عرشاً مطلياً بالذهب، وسيُجلّونه كما يُجلّون الآلهة، وهو من سوف يسنّ قوانين حياة الناس، هذا الغوريلا الذي يغطّي الشعرُ جسمه، هذا الكائن المنقرض البائس الذي يتسكّع في الغابات.

النهار الخريفي القصير بات يدنو من نهايته، وبدأ الشعب يعبّر عن نفاد صبره: لماذا كل هذه المماطلة في التعامل مع الطاغية؟ هل هي خيانة جديدة؟ وفي غرفة شبه مظلمة يلتقي نائبان كانا قد غادرا المجلس. إنهما يتبادلان النظرات، يعرف كل منهما الآخر ويسيران جنباً إلى جنب، ولسببٍ ما يتجنّبان أن يلامس أحدهما الآخر. إنهما يتمشّيان.

Twitter: @ketab_n

- ولكنْ، أين هـو الطاغية ؟ - فجأة ينفجر أحدهما غضَباً ويقبض على كتف صاحبه. - قل لي، أين الطاغية ؟

- لا أعرف. إني أخجل من الذهاب إلى هناك.

- أفـكارٌ فظيعة ! أحقّاً أن هذا الشـيء السخيفَ هو الطاغية ؟ أحقّاً أن التافهين هم الطغاة ؟

- لا أعرف. إني أشعر بالخجل.

كان الجـو في الغرفة هادئـاً. ولكن ضجيجاً مديـداً كان يأتي من كل مـكان، من جهـة المجلس، ومن الباحة التي يحتشـد فيها الناس. ربما كان كل واحـد يتكلـم بصوتٍ خفيض، وكانت الأصـوات مجتمعة تشـكِّل هديراً طبيعياً يشبـه هدَيراً بعيداً في المحيـط. وتراقصت على الجـدران ظلالٌ حمراء وبقعٌ، لعلّهم أوقدوا المشاعل في الأسفل، وراء النوافـذ. وترامى إلى السمْع من مكان قريب وقْـع أقدام ثقيلة وقعقعة سـلاح خفيفة، فقد كانوا يغـيِّرون ورديّة الحراسة. فمـن الذي كانوا يحرسونه: أحقّاً هذا؟

- يجب أن يُطرَد من البلاد.

- كلا. إن الشعب لن يسمح بذلك. يجب أن يُقتَل.

- ولكنّ ذلك سيكون خدعة جديدة.

تراقصـ البقع القانيـة اللون على الجـدار، تزحـف وتتراكض ظلالُ دخـانٍ غامضة: كأنها أيام الماضي والحاضـر الدموية تمرّ أمام العين في حلُم غَامض، وليس لها نهاية. يتزايد الهدير في الساحة. يخيَّل وجود هتافات متفرِّقة.

Twitter: @ketab_n

ـ اليوم شعرت بالخوف أوّل مرّة في حياتي.

ـ وباليأس. وبالخجل.

ـ وباليأس. هاتِ يدك، أيها الأخ. كم هي باردة!.. هنا، أمام وجهِ الخطر المجهول، في دقيقة الخجل العظيم، تعال نُقْسِم على ألا نكونَ نحن من سيخون الحرية التعيسة. إننا هالكون، هذا ما شعرت به اليوم، إلا أننا سوف نصرخ ونحن نموت: «الحَرية! الحرية، أيها الأخوة!». سنصرخ بقوّة تجعل عالم العبيد كلّه يرتعد من الرعب. مزيداً من الشدِّ على يدي، أيها الأخ!

كان الجوّ هادئاً، والبقع القرمزية تشعّ على الجدران، وظلال الدُّخان الصامتة تتحرك، ووراء النوافذ كانت الهوّة تغلي بمزيدٍ من الغيظ. كأن ريحاً عاتية انفلتت من عِقالها ـ من الشمال والجَنوب، من الغرب والشرق ـ ونفخ الخوف في الجمهور المضطرب. نُتَفٌ من أغانٍ ـ جئير ـ وفي فوضى الأصوات برزت كلمة مكتوبة بحروف ضخمة، مسنّنة، سوداء:

ـ الموت!.. الموت للطاغية!

كانوا واقفين، يستمعون ويفكِّرون بشيء ما. الوقت يمضي وهم جميعهم واقفون، لا يتحرّكون، وسط ظلال النار والدخان المتراقصة، وخُيِّل أنهم واقفون منذ آلاف السنين. آلافٌ من السنين الشفّافة تحيطهم بصمت الأبدية العظيم والرهيب، فيما كانت الظلال تتراقص، والصرخات ترتفع، وتسقط، وتدنو من النوافذ مثل ماءٍ هائج. في بعض الدقائق كان يمكن التقاط إيقاع الموجة الغامض والمرعب وهديرِ صوتها وهي تتكسّر.

Twitter: @ketab_n

ـ الموت! الموت للطاغية!

دبّت فيهم الحركة.

ـ طيِّب، فلنذهب إلى هناك.

ـ فلنذهب. يا لي من غشيم! لقد ظننت أن هذا اليوم سينهي الصراع ضد الطاغية.

ـ ما يزال الصراع في بدايته. فلْنمشِ!

ممرّات معتِمة، درجات سلالمَ حجرية، قاعات يخيِّم عليها الصمت تماماً، باردة، صمّاء كالأقبية. وفجأة شعَّ ضوء، هبّت حرارة كأنها من فرن ساخن حتى الاحمرار، وطَرَقَ الآذانَ كلامٌ سريع، مشتّت وعموميّ، كأن مئاتٍ من الببغاوات راحت تردِّد في أقفاصها متقاطعةَ الأصوات، كلٌّ ما لديه. ثمة بابٌ آخرُ قليل الارتفاع، مفتوح على مصراعيه، وتحت الأرجل حفرة هائلة الحجم مليئة برؤوسٍ مختلفة الأشكال والألوان، شبهِ معتمة، مدخَّنةٍ، وألسنةُ ضوء حمراء تختنق من انعدام الهواء. يترامى كلام من مكان ما، تصفيق؛ لقد انتهى، على ما يبدو.

في قاع هذه الفجوة، وسط شمعتين سابحتين، تظهر قامة العشرين. إنه يمسح جبينه بمنديل، شديدُ الانحناء فوق طاولة يغمغم بكلام غامض، فهو يقرأ كلمة دفاعه الأولى. كم يشعر بالحرارة! هه، أيها العشرون! أنت الملك. فلترفع صوتك، ولتبارك الفأس والجلاد!

كلا. إنه يغمغم بكلامٍ ما، غبيٍّ، مأساويٍّ في وقاره.

Twitter: @ketab_n

VIII

كثـيرون كانوا على الأسطح يتفرّجـون على إعدام الملك. ولكنْ حتى علـى الأسطح لم يكن هناك أمكنـة تكفي جميع الراغبين، فلم يتمكّن بعضـ الناسـ من أن يـرى كيف يشنقون الملـوك. أمّا البيـوت العالية الضيقة، التـي يتحرّك فوقها شَعرٌ غريب أسوَدُ يغطّي أسطحها، فباتت شبيهــة بالأحياء، وشبابيكهــا المفتوحة على مصاريعهــا كانت شبيهة بعيـونٍ سوداء تومض. وخلف البيوت كانت تلـوح في السماء أبراج نواقيسَ كليلةٌ ومدبّبة، كأنها أبراج عاديــة، ولكنْ إذا ما دققتَ النظر وجدتَهــا مزنّــرة ببعض الخطوط الشديـدة السـواد، وكأنها تتحرّك. أولئك هم الناس أيضاً. لم يكن يُرى من هناك أي شيء إطلاقاً، ولكنهم كانوا يتفرّجون.

من فوق الأسطح كانت المشنقة تبدو صغيرة مثل دمية للأطفال، تشبه عربة أطفال مقلوبــةً، مكسورة الذراعين. الأشخاص المتفرقون حول المشنقــة كانوا الأشخاصــ المتفرقين الوحيدين الذين يمكــن أن يراهم المــرء في الساحة كلِّهــا، لأن الباقي ذاب كلّه في كتلــة متراصّة واحدة لا تتجــزّأ، تشبــه شريــط عشب أسود ســواداً من نــوع خاص. وكان الأشخاصــ المتفرقون يشبهون شبهاً مضحكاً نملات تشبّ واقفة على أرجلهــا الخلفية. كان كل شيء يبدو مستويــاً، فيما النمل يتسلّق ببطء وصعوبــة درجات غــير مرئية ويتراكض في حركــة دائبة. وكان غريباً جداً وجــود أناسٍ بالقرب منــك كِبارِ الأجسام يقفـون على السطح متجاورين، ضخامَ الرؤوس والأفواه والأنوف.

Twitter: @ketab_n

كان هناك طبولٌ.

واقتربت عربة خيل سوداء صغيرة تتهادى نحو المشنقة، ولوقتٍ طويل لم يكـن ممكناً فهـمُ شيء. ثم ظهـرت جماعةٌ وصعدت ببـطءٍ شديد درجاتٍ لا تُرى، فتوزّعت أقساماً واختفت، وظلَّ في الوسط شَخصٌ صغير.

دقّـت الطبول. تجمَّد القلـب. فجأة توقّفت دقّـات الطبول مبحوحة مثل انقطاع خطّ . خيّـم الهدوء. رفع الشخص الوحيد يده الصغيرة، ثـم أسبلها، وعاد فرفعها مرة ثانية. لعلّـه يتكلّم، ولكنْ ليس مسموعاً أيّ شـيء. ما الذي يقوله؟ ما الذي يقوله؟ دقّـت الطبول بقوة، تعالى قصفها، تدفّق، مزّق الهواء إلى مليارات من جزيئات ترتعش وتحجب الرؤية.

ثمـة حركة على المشنقة. لقد اختفى الشخص الصغير. إنهم يَشنقونه. تـدقّ الطبول، وفجأة في الحال تصمت مثـل ذلك الخطّ لذي يتداعى مبحوحاً. هدوء. المكان نفسه الذي كان العشرون واقفاً فيه قبل قليل، يقـف فيه شخص جديد مادّاً يده. في يده شـيء ضئيل جداً، جهة منه مضـاءة، والأخـرى معتِمة مثل رأس دبّوسٍ مطلـيّ بلونين. كان ذلك رأس الملك. وأخيراً...

...كانـوا متعجّلين يزعقـون ويدوسون الناس مسرعـين بالنعش وفيه جسد الملك ورأسه، خوفاً من أن غضب الشعب لن يرحم حتى رُفات الطاغيـة. كان الشعب رهيبـاً. كان متشبّعاً بخـوف العبيد القديم، ما يزال غـير مصدّق أن هذا يمكن أن يقع، أن الملك الجبّار الذي لا يُمَسّ، ولا يرقـى إليه أَحد، يمْكـن أن يضع رأسه تحت فأس الجلاد، أن يسير

Twitter: @ketab_n

إلى المشنقـة بقنوط وعمى، إذ إن البصر كثيراً ما يَخدع، والسمع كثيراً ما يكـذب، ولا بدَّ من تلمّس المشنقة، ومـن تنشُّق الدم الملكي، ومن الغوص فيه باليدين حتى المرفقين. كانوا يتعاركـون، يخنق بعضهم بعضاً، يتساقطون ويجأرون. ثمة شيء ليِّن مثل كرةٍ من أسمال يتدحرج تحت الأقدام بعناد. سحقته الأقدام. يتدحرج ويتدحرج. وحين وصلوا إلى كومة الحطام المتبقّي من المشنقة راحوا يقطّعون أجزاء منها بأيد ترتجف، ويسلخونها بأظفارهم، وفيما هم يكسّرونها كانوا يتناولون أخشاباً كبيرة خبطَ عشواء وبنهم، ثم لا يلبثون بعد بضع خطوات أن يسقطوا تحت ثقلها. وكان الحشدُ يتجمّع فوق رأس من يسقط فتطفو الخشبة فوقهم، كأن فيها حياة، ويحملها تيارٌ ما، ثم تعود تغوص ثانية وطرفها المسنن مرفوع، ثم تختفي في مكان ما. وكانوا يعثرون على بركة صغيرة من دم لم ينشف بعدُ، ولم تخُض فيه الأقدام فيبلّون فيها مناديلهم وثيابهم، ويلطّخ كثيرون شفاههم بالدم ويرسمون على جباههم رموزاً غريبة، يتعمّدون بدم الملك من أجل مملكة الحرية الجديدة.

لقد سكروا من الفرح الوحشي. ودون غناء، دون كلام، كانوا يدورون ويلهثون وهم يرقصون؛ ثم ركضوا صوبَ مكان ما رافعين نحو السماء مِزقاً مدمّاة، وتدفّقوا في أنحاء المدينة حاملين معهم صرخاتهم وهديرهم وقهقهة غريبة لا يوقفها شيء. لقد حاولوا أن يغنّوا، ولكن الأغنية كانت شديدة البطء، شديدة الانسياب والرتابة في الإيقاع. كانوا ذاهبين ليشكروا المجلس على تحرير الوطن من الطاغية، ولكنهم في الطريق انشغلوا بمطاردة خائن صرخ: «الملك مات، يعيش الملك! يعيش الحادي والعشرون!»، فتفرّقوا راكضين. وشنقوا شخصاً ما.

Twitter: @ketab_n

كثيرون ممّن ظلّوا يحبّون الملك سرّاً لم يتحمّلوا فكرة إعدامه فجنّوا. كثيرون، حتى من الجبناء، انتحروا. ظلّوا ينتظرون شيئاً ما حتى الدقيقة الأخيرة، لم يفقدوا الأمل، وكانوا يؤمنون بأن دعواتهم سوف تستجاب. وحين تمّ الإعدام استولى عليهم اليأس فانخرطوا بالتجديف والكفر، بعضهم بعبوس وفتور، وبعضهم بغضب، وانتحروا بالسكاكين. وكان بينهم من سيطرت عليهم حالة من التعطّش الوحشيّ للشهادة فانطلقوا راكضين إلى الشارع يواجهون الناس المندفعين مثل انهيار جبل من الثلج، يصرخون صراخاً مسعوراً: «يعيش الحادي والعشرون!»، ويتساقطون قتلى.

أشرف النهار على نهايته، ودنا الليل من المدينة، ليل قاسٍ وصادق، إذ ليس له عينان تريان. كان ما يزال في المدينة ضوء ينبعث من النيران. أمّا النهر المتدفق تحت الجسر فكان أسود مثل سخام ذائب. وحده النهر كان يترقرق باهتاً، مثل انعكاسات باردة تصدر عن معدن مطليّ، عند المنعطف، وراء البرج الواسع المستدير، حيث كان الغروب الشاحب، البارد يلفظ أنفاسه الأخيرة. كان واقفاً على الجسر اثنان يستندان بمرفقيهما على صخرة، ينظران إلى الأعماق القاتمة المبهمة.

- هل تصدّق أن الحرية قد جاءت اليوم؟ - سأل أحدهما، سأل بصوتٍ خفيض، لأن النيران كانت ما تزال مشتعلة في المدينة، وكان النهر تحت الجسر آخذاً بالسواد.

- انظر، تلك جثّةٌ طافية، - قال الآخر، تكلّمَ بصوتٍ خفيض، لأن الجثة كانت قريبة وتنظرُ إلى فوق ببقعة زرقاء هي وجهها العريض.

Twitter: @ketab_n

ـ كثير من هذه الجثث يطفو الآن على سطح النهر. إنها ذاهبة إلى البحر.

ـ أنا لا أؤمن بحريتهم. إنهم فرحون كثيراً لموت التافه.

ترامى من المدينة التي كانت النيران ما تزال مشتعلة فيها هديرُ أصواتِ ضحكٍ وأغانٍ. كان المرح هناك مستمراً.

ـ يجب القضاء على السلطة، ـ قال الأوّل.

ـ يجب القضاء على العبيد. ليس هناك سلطة، هناك عبودية فقط. ها هي جثة أخرى. ما أكثر الجثث! من أين تجيء طافية؟ إنها مباغتة تماماً في ظهورها تحت الجسر.

ـ ولكنهم يحبّون الحرية.

ـ كلا، إنهم يخافون السوط فقط. وعندما يحبّون الحرية يصبحون أحراراً.

ـ فلنذهبْ من هنا. إنني أشعر بالغثيان من منظر الجثث.

واستدارا ليَمضيا، وإذا بهما ـ والمدينة ما زالت تشتعل فيها النار، والنهر أسود مثل سخام ذائب ـ يريان شيئاً ثقيلاً ومبهماً تمخّض عنه الظلام والنور. فمن الناحية المواجهة للغروب، حيث يختفي النهر في ضفّتيه السوداوين، ويرتعش الظلام الدامس كأنه حيٌّ، كان يرتفع شيء ضخم، عديم الشكل، أعمى. لقد ارتفع وتوقّف دون حراك، ورغم أنه كان بلا عينين فقد كان ينظر، ورغم أنه كان بلا يدين فقد كان يمدّهما نحو المدينة، ورغم أنه كان ميتاً فقد كان حيّاً ويتنفّس. كان الموقف رهيباً.

Twitter: @ketab_n

ـ هذا ضباب فوق النهر، ـ قال أحدهما.

ـ كلا، إنها غيمة، ـ قال الآخر.

كان ذلك غيمة وضبباً.

ـ كأنها تنظر!

وكانت تنظر.

ـ كأنها تسمع!

وكانت تسمع.

ـ إنها قادمة إلى هنا!

كلا، لقد كانت واقفة دون حراك. كانت واقفة دون حراك، ضخمة، عديمة الشكل، عمياء، وعلى نتوءاتها الغريبة كانت انعكاسات أضواء المدينة تشعُّ حمراء، وفي الأسفل، عند قدميها، كان النهر الأسود يختفي في الشاطئين الأسودين، وكان الظلام يرتعش كأنه حيّ. وكانت الجثث وهي تتلوّى عابسة، تطفو سابحة إلى هناك وتختفي في الظلام، وبصمتٍ تحلّ محلّها جثث جديدة، وتمضي متلوِّية، لا حصر لعددها، هادئة، تفكِّر بشيء يخصّها هو أيضاً أسود وبارد كالماء الذي يحملها.

وعلى البرج العالي الذي نقلوا منه الملك في الصباح الباكر كان الساعاتي الأعور نائماً تحت البندول. لقد كان في هذا اليوم راضياً عن هدوء البرج، بل وكان يغنِّي، ـ كان الأعور يغنِّي، ـ وظلّ حتى حلول الظلام يتمشّى بولعٍ جيئة وذهاباً بين التروس والأذرعة. ولمس الحبال،

Twitter: @ketab_n

وجلس قليلاً على السلّم، وهو يهزّ رجليه ويموء، و لم يُلقِ نظرة إلى البندول، لأنه تصنّع هيئة من هو غاضب منه. ثم نظر إليه بطرف عينه وانفجر ضاحكاً، وبضحكٍ ردَّ عليه البندول الفرحان. كان يتمايل، ويضحك ضحكة عريضة بخطمه المعدني ويقهقه:

ـ هذا ما كان، هذا ما سيكون !

ـ تابغ، تابغ؟ ـ شجّعه الأعور وهو يتلوّى من الضحك.

ـ هذا ما كان، هذا ما سيكون !

وحين خيّم الظلام استلقى الأعور، و لم يلبث أن غطّ في نوم عميق. ولكنّ البندول لم ينَمْ، وظلَّ الليلَ بطوله يتمايل فوق رأسه باعثاً فيه أحلاماً غريبة.

تشرين ١/ أوكتوبر ١٩٠٥

Twitter: @ketab_n

الفهرست

تقديم ٥
قصّةُ سبعةٍ شُنِقوا ١٣
الضحك الأحمر ١٢٧
الجزء الثاني ١٨١
فكرة ٢١٩
هذا ما كان ٢٨٤

Twitter: @ketab_n

وُلِـد ليونيـد أندريف في مدينة أريـول لأبٍ يعمل موظفـاً بسيطـاً في إدارة مساحـة الأراضـي. وفي سنة ١٨٩١ سافـر إلى بطرسبورغ لدراسة الحقوق في جامعتهـا، فعاش حياة فقر، شبـهَ جائع، يعطي دروسـاً خاصّة، ويخوض نقاشات مع زملائه حتى الصباح. فقد كان عصـره شديد الاضطراب، مليئاً بالأحـداث الجسام، تخترقـه النظريـات السياسية والاجتماعيـة، والأفـكار الفلسفيـة، والتيـارات الأدبية من كل نـوع... وللإيجاز نكتفي بالإشارة إلى: هيمنـة الأجواء البوليسية في ظـل القضاء على حركة "حرية الشعـب" (١٨٨١)، ومحاولة اغتيال القيصـر الروسـي ألكسانـدر الثالـث (١٨٨٧)، وتفشِّـي روح التشـاؤم والإحبـاط ، ودعوة ليف تولستـوي إلى عـدم التصـدي للشـر بالعنف، من جهة، والانتشار الواسع للحركة الشعبية، والنظرية الماركسيـة في روسيا خـلال التسعينيات، من جهة ثانيـة... (بعد ذلك تأتي: هزيمـة روسيا أمام اليابان ١٩٠٤، الثـورة الروسيـة الأولى سنـة ١٩٠٥، الحـرب العالميـة الأولى ١٩١٤، الثـورة الشيوعية ١٩١٧، ثم الحرب الأهلية...).

ISBN 978-284306243-8

9 782843 062438